

رواية الهياك



<http://abuabdoalbagl.blogspot.com>

أبو عبدو اليرغل

خيرى شلبى



نغمات الجبابرة

نُعَاةُ الرَّجُلَانِ

خَيْرِ شَيْءٍ

<http://abuabdoalbagl.blogspot.com>



أَبُو حَبِيدٍ الْبِغْلُ

لَا إِلَهَ إِلَّا



الغلاف للفنان: أحمد أبو السعود

الخطوط للفنان: محمد العيسوي

الإشراف: ياسر شعبان

إهداء
إلى الفنان محمود حميدة ..
أول فرحتى الابوية
«خيري»



(١) ربطة المعلم

عائلتنا بدون عمى أبوالسعود أفندى عقل تصبح عائلة بأئسة من عموم العائلات التي يوقرها عليّة القوم وأسافلهم على سبيل برو العتب، حتى وإن كانت من أصل نقى طيب العنصر، وعميدها الأكبر جدى شيخ مشايخ البلدة كلها حسن أبوالسعود عقل صاحب أقدم وأشهر كُتّاب لتحفيظ القرآن الكريم ربما فى بلاد محافظة كفر الشيخ بأكملها ، قد علم أجيالاً كثيرة من أبناء الناحية وكلهم يدينون له بالفضل العميم. كما وأن عائلتنا تزرع فى ثلاثة أفدنة ونصف الفدان من أملاكها الموروثة عن الجد الأكبر، وفدانين تستأجرهما من مالك يمت إلينا بصلة قربى وثيقة وقد هجر الفلاحة والبلدة وراح يعيش فى مدينة الإسكندرية ويعمل حارساً خاصاً لخاله الهلباوى بك صاحب المحالج الكثيرة.

جدى الشيخ حسن عقل رجل حكاء بارع ويعتبره الناس - لخفة ظله الفاقعة - أظرف من شهدت بلدتنا على طول تاريخها . ولعل اتفاق الموعد فى ميلاده وموته يعتبر فى حد ذاته اتفاقاً طريفاً كأنه مزاح بين القدر والطبيعة إذ إنه ولد فى عام ألف وثمانمائة وخمسين ومات فى نفس يوم مولده ولكن فى عام ألف وتسعمائة وخمسة وخمسين من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين وحين كنت أتأهب للالتحاق

بالمدرسة الابتدائية فى منتصف أربعينيات القرن العشرين كان هو بسم الله ماشاء الله عفى البدن والذاكرة . كان مفتوناً بغرس يده فى شخصية عمى أبو السعود، فحاول بكل مواهبه التعليمية العريقة أن ينقل إلى جميع نسل العائلة هذا الافتنان ليبقى على طول الزمان فرعاً مخضوضراً يتوالد متجدداً متكرراً فى كل جيل ..

المصطبة البحرية الملتحقة بالجنية هى قعدته الحيمة التى تتسع لجمعنا وقت الأصيل، حيث الشمس الأفلة قد صبغت شواشى النخيل والأشجار بالحناء القرمزية الحجازية لا شك . تلك أروق لحظات جدى حسن، تنتشى منها جدتى معزوزة وبخاصة إذا رأته أن القعدة قد استقطبت أولادها، أعمامى وعماتى، فيحلو لها - وهى مقاربة لجدى حسن فى السن - أن تطبخ لنا زردة الشاى بنفسها ثلاثة أذوار، فيما نحن جميعاً ننصت فى شغف إلى حكايات جدى حسن المليئة بكل مثير للخيال والأخلاق من مواعظ وعبر قد صارت فى حكاياته أناساً مثلنا من لحم ودم ومثل كل كائنات الأرض تخطئ وتصيب وكلها أمم مثلنا تتعلم من الخطأ كيف تلتزم بالصواب..

يعرج الحديث دائماً على عمى أبى السعود أفندى عقل، الذى يعتبر الآن عمدة رجال التعليم والتربية فى محيط المديرية. هو الذى أسس مدرسة محمد فريد الابتدائية بنين وبنات فى بلدتنا ويتولى الآن نظارتها منذ سنوات كان فيها حديث الناس وموضع احترام وتقدير المفتشين وجميع المسؤولين فى مديريةية التعليم بالمحافظة . ولئن كان هذا الجد والإخلاص فى العمل قد لقى تقديره من المسؤولين فإن تقديره عند الله سبحانه وتعالى أفضل وأبقى، فبتوقيقه سبحانه قفز اسمه على قائمة المرشحين للترقية إلى درجة مفتش فى العام الدراسى القادم . وذلك ما كان يتوقعه جدى حسن الذى وافته

المنية منذ أشهر قليلة قبل أن يسمع هذا الخبر الذي استقبلنا به الشهر الخامس من عام ألف وتسعمائة وخمسة وخمسين، فإذا بزحيله يكرس لاستمرار الحياة فى قعدته اليومية على هذه المصطبة التى يحتلها من بعده عمى أبوالسعود، بمجرد أن يجلس الواحد منا فى رحاب هذه المصطبة فإن جدى حسن يشخص إليه فى الحال ماثلاً يتحرك ويحكى ويرن صوته الرفيع الحاد بجرس الكلمات الفصيحة رنيناً جاذباً يشعر المستمع إليه بجمال اللغة العربية ..

قال جدى حسن :

« عمكم أبوالسعود أول أفندى فى عموم الناحية ! »

عائلتنا أصبح فيها أفندى ! رفع اللقب قدرنا فى نظرة القوم يعنى باختصار نقلنا إلى الصف الأول من أعيان الناحية ! .. نروح بقى للبدلة ! يعنى عمكم أبوالسعود هو أول من لبس بدلة فى بلدان الناحية وليس فى عائلتنا فحسب ! .. أقصى ما ارتقت عائلة مثل عائلتنا كان الجبة والقفطان والعمامة يوم التحاقى بالمعهد الدينى فى مدينة دسوق ! صحيح أننى لم أكمل ثانوية المعهد وعدت إلى البلدة لكننى لم أخلع ثياب المشيخة مطلقاً إلى اليوم ! وحتى لو مشيت عرياناً والعياذ بالله دون حتى ورقة توت تستر عورتى فلن يجعل الناس بالهم منى ! .. إن ثوب المكانة ليس ينخلع إلا بإعصار مدمر والعياذ بالله ! ..

« أقول إن أول بدلة دخلت بلدتنا كانت تتألاً على كتفى عمكم أبوالسعود وتنزل سابغة على جسده الضخم المهيب !.. يا سلام يا أولاد على ذلك اليوم! ذاك حدث كان فاروقاً فى تاريخ العائلة أولاً ثم البلدة ثانياً ثم الناحية ثالثاً!.. ويانتقال العائلة إلى مرتبة الأفندية حظيت بما تحظى به طبقة الأفندية من احترام وتبجيل وتمييز فى المعاملة !! حقاً يا أولاد ! ..

إكراماً للبدلة والطربوش جاملنا صاحب هذه الأرض قباعها لنا بثمان بخس لنقيم فوقها هذه الدار بهذه الجنيينة ! .. توقيراً للبدلة وهى رمز للحكومة وملبس رجالها الأشداء جاملنا البناعون والمحارون والنجارون والمبلطون والجناينية ! .. نعم هم جميعاً أخذوا حقوقهم كاملة أربعة وعشرين قيراطاً وفوقها بوسة شكر إلا أنهم عملوا بإخلاص وذمة وضمير فيما ليس من خبرتنا أن نستكشفه أثناء العمل ! .. ولئن كان جميع أهالى بلدتنا والبلاد المجاورة مدينين لنا بالفضل فى تعليمهم ، هم وعيال عيالهم بالمجان، تعليماً قد راعينا حقوق الله فيه ! فإن خصلتنا يا أولاد العرب قذرة : نخاف ولا نختشى ! نقدر المعروف أى نعم لكننا نقدر جانب الخوف أكثر !!

نبادر بخدمة من يملك تخويفنا قبل أن نرد الجميل لمن خدمنا بالفعل ! .. ومن هنا قيمة البدلة وأخيها الطربوش ! .. فلابس البدلة إن لم يكن من الحكومة فإنه قريب منها كجبل الوريد ! .. إن دخل اثنان أحدهما بجلباب أو جبة يطلبان مقابلة مسئول حكومى سينفتح الباب أولاً للابس البدلة حتى وإن لم يكن ذا علم أو قيمة أو أصل ! فما بالك لو كان ملء هدومه كعمكم أبوالسعود أفندى ؟»

أيقنت منذ وقت مبكر أن جدى حسن يتوهج ويصهل حين يتكلم عن عمى أبوالسعود ! لكننى لم أفهم السر فى ذلك على وجه الدقة إلا من عبارة قالها جدى حسن ذات لحظة صفاء إذ هو يتسامر مع جدتى معزوزة على مصطبة الجنيينة فى ضوء القمر فيما أنا راقد ، سائداً رأسى على ركبة جدتى معزوزة، قال :

- «تريبتى لولدى أبو السعود يا معزوزة كائننى اشتريت لكم ألف فدان من أرض زراعية ! بل هو أهم منها إذ الأرض يمكن أن تضيع أو

تغتصب أما العلم في الرجال فلا يضيع ولا يغتصب ! .. أقرأيت إذن لماذا
كنت أقترب عليكم في المصروف كي أوفر له نفقات تعليمه في البنادر ١٩»
عمى إذن هو التاريخ الراهن المشرق لجدي حسن، ويحق له أن ينحته
في قلوبنا تمثالاً حياً باقياً يناطح الأبد. هذا التمثال الحي المتحرك المائل في
مخيلتي وأبناء عمومتى قد ارتدى بدلة من الصوف الهيلد الإنجليزي المعتبر
كما هو مبين في صورة زفافه المبروزة على الحائط في ججرة نومه فوق مرآة
البوريه في مواجهة فتحة ناموسية السرير ذات اللون الإردوازي. ليس من
أبناء العائلة من لم يتفرج على هذه الصورة واختطفت منه قبل أن يكسرها .
كذلك ليس منا من لم يسمع من زوج عمى أبوالسعود، خالتي تفيدة سليم
الفرغانى الشهير بتراتيرو، قصة زفافهما وسفرهما إلى دسوق لالتقاط هذه
الصورة، ومن لم يسمع من جدتى معزوزة قصة هذه البدلة التي أسبغت
على عمى كثيراً من الأبهة والعراقة كآئه الخديوى إسماعيل شخصياً .

(٢) أجويد المواوية

كل الكتابيب فى بلدتنا متواضعة الحال، جزء من مندرة فقدت كبار قومها فعفا عليها الزمان فانفضت لياليها، أو ربما فى كوخ مبنى من الطين المخلوط بالتبن أعدت فيه مصطبة للشيخ - الذى عادة ما يكون ضريراً وعلى درجة بشعة من الخشونة والقسوة - حيث يتكوم أمامه على الأرض رهط من عيال تعساء فى حال من التشنت والتوتر خوفاً من خيزرانة الشيخ التى دأبت على أن تفاجئهم بلسع الظهور والأكتاف والأرداف بغير سبب واضح فى معظم الأحيان إلا أن يكون عدد كبير منهم لم يأت لسيدتنا بالجزاية المتفق عليها كل يوم : بغض خبز وإدام مما ياكلونه فى دوزهم فعندئذ يكون العقاب مغن الأسباب قوياً . الويل - فى ظل هذا الاضطراب المشحون بالتوجس والرعب - لمن يخطئ عند التسميع بنسيان مفردة من آية فما بالك لو التبس عليه الأمر وسرح فى آية أخرى من الآيات المتشابهات ؟ أو نسى الآية كلها؛ الموت لحظتئذ أحب إلى الولد من انتظار العقاب : يجىء العريف بالفلكة، أو الفلقة ، وهى عبارة عن حبل مصنوع من ليف النخيل مربوط من طرفيه فى طرفى شومة غليظة كالنبوت، يأخذ الحبل شكل قوس الرياب؛ يمسك العريف بقدمى الولد من الكاحلين، يدخلهما فى هذا القوس، يبرم الشومة فيذهب كل طرف

من طرفيها مكان الآخر فيتوثق الحبل حول القدمين، يمسك العريف
بطرف الشومة ، ويمسك مساعده بطرفها الآخر، يرفعانها على
الكتفين، يصير الولد مصلوباً من قدميه المرفوعتين وقد سقط جلبابه كله عن
عورته القبيحة الشكل من خلف ومن أمام سيما إذا كان الرعب قد
زلزل أعماق الولد وكركب بطنه مقدماً فراحت صواريخ النتن تندلع من
مؤخرته المشرعة فى الهواء مضمومة الساقين، مع صواريخ أخرى من
صراخ وجعير يصدران عن دماغ الولد الذى راح يكنس الأرض بوجهه
خلال انتفاضة تحت نيران خيزرانة سيدنا التى راحت تنهال على
القدمين بعنفوان الفأس عند العزيق .. العيال يشخون على أنفسهم من
هول المنظر أما الذين تقرر عقابهم فقد راحوا يطلقون الصراخ مقدماً
وهم فى حال من الرعب والشحوب لو رأها الشيخ الضرير لسقطت
الخيزرانة من يده بل ويسقط قلبه فى قدميه إشفاقاً على العيال وندماً
على ما فعل؛ إلا أنه ليس يراهم إلا من أصواتهم، ولديه خط دفاع راسخ
وعتيق ضد صراخ العيال مهما ارتفع بنبرات تفتت الأكباد؛ ذلك أنه - مثل
أقرانه - اعتاد أن لا يأكل من هذه الأونطة الصاخبة إذ هو يعرف أنها
مبالغة فى تضخيم الألم لجذب الإشفاق هرباً من واجب العقاب؛ والعقاب
واجب فى رأى عمى أبوالسعود حينما يشكو إليه الناس الغلابة الذين رزئ
عيالهم بهذه النوعية السائدة من المشايخ القساة أصحاب الكتائب
الكثُنكان؛ إلا أنه يتحفظ على رأيه ذاك فى الحال مندداً - فى انفعال عميق
- بهذه القسوة الغاشمة التى أورثت عيالنا خوفاً مقيماً من القرآن الكريم
جعلهم يتوجسون منه إذ هم يقبلون على حفظه فإذا بالخوف من العقاب
يشنت أذهانهم فيغلطون بالفعل فتصيبهم من القرآن الكريم عقدة تقف فى
حلوقهم زمناً طويلاً ..

على أن عمى أبوالسعود أفندى سرعان ما يشعر بقليل من الحرج فيمسك لسانه عن الاستطراد فى الهجوم على أصحاب الكتابيب العشوائية الرخيصة التي لا يلجأ إليها سوى المعدمين الذين يملكون بالكاد رغيغ خبز بإمكانهم التنازل عنه لشيخ الكتاب مقابل أن يحفظ عيالهم القرآن أو حتى أجزاء منه تنفعهم فى الصلاة وتفيدهم فى الحياة . مصدر الحرج أن عمى أبوالسعود على جلالة قدره ابن واحد من أصحاب الكتابيب هو جدى حسن عقل؛ صحيح أنه لا وجه للمقارنة بين جدى وبينهم على جميع المستويات إلا أنهم فى النهاية زملاء له يتعين على عمى أن يحترمهم بنفس القدر الذى يحترم به أباه، إنه - كما يبادر بالتوضيح فى لباقة - يحترم موقع المعلم ، مكانة المعلم أياً ما كان الرأي فى مستواه العلمى والثقافى والاجتماعى . ما أجمل وجهه حينئذ وهو مشرق بقوة الزهو والفخار ثقة منه فى حقيقة ماثلة تعتبر إرثاً رئيساً فى تاريخ بلدتنا : ما هكذا جدى حسن ولا هكذا كتاب العقالوة الذى نملكه منذ تاريخ لم يدركه أحد من الجيل الراهن كما أن أدبيات فولكلور بلدتنا يؤرخ لبلدتنا بثلاثة معالم ثلاثة أحداث جلية ساهمت فى شهرة بلدتنا وارتفاع صيتها : الحدث الأول هو قيام محطة السكة الحديد باسم البلدة حتى وإن بعدت عنها بعشرة كيلو مترات؛ فمنذ أن بدأت القطارات تتوقف عندها لترابطها بدسوق ودمنهور والأسكندرية من جانب، وكفر الشيخ وطنطا فالقاهرة من جانب آخر تضاعف الوعى بين الناس، نشطت التجارات، تشجعت عائلات كثيرة على تسفير عيالهم للتعليم الثانوى والجامعى .

غير أن فريقاً من المستثمرين فى بلدتنا يعتبرون قيام محطة السكة الحديد فى بلدتنا هو الحدث الثانى؛ أما الحدث الأول بحق فى أنظارهم

فيؤرخ له بأول بدلة تفصيل معتبرة ارتداها واحد من أبناء الفلاحين لابس
الجلابيب والقفاطين؛ حيث كان لابس البدلة - يعنى عمى - إذا مشى بها أو
حملته الركوبة فى شوارع بلدة من البلاد قيل إنه أبوالسعود أفندى عقل
كبير المعلمين فى بلدة (الضبعة)؛ ولأن معظم من تعلموا من أبناء بلدان
المركز قد تلقوا علمهم الأولى والابتدائى فى مدرستى بلدتنا فإن أهاليهم
يهتفون دائماً بالثناء على العائلة فى كل مناسبة واصفين رجالها بأنهم
أجاويد بلدة الضبعة، مما أسهم فى تجميل صورة بلدتنا فى أنظار البلدان
الأخرى سيما والمصريون من فرط ظرفهم ولطفهم يتندر كل أبناء بلدة على
أبناء البلدة الأخرى، حيث للبلاد صفات كصفات البشر، أحياناً تحمل
البلدان أوزار أهلها كما يحمل أهلها أوزار سمعتها . بلدتنا كانت مشهورة
باسم المواوية؛ مفردها : مواوي ؛ والمواوي لون من المداحين الجوالين فى
القرى للتكسب بحلاوة حسهم أو لباقتهم ودربتهم على ضرب الدفوف
والعزف على الأرغول والسلامية، غير أنهم ليسوا متخصصين فى مدح
الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ بل فى مدح أعيان البلاد ؛ الواحد منهم
موهوب فى سرعة البديهة وملكة النظم وسليقة السجع وزخرفة العبارات
وقوة الذاكرة وكفاءة المخبر الناجح ؛ قبل أن ينزل بركوبته ورهطه إلى بلد
من البلدان يستطلع أسماء أشهر أعيانها، يجرى تحرياته الذكية البريئة عن
كل عين من الأعيان، عن أشهر مناقبه وأوصافه وأعماله الخيرية فإن لم تكن
له أعمال خيرية معلنة يؤلف له ما يناسبه من هاتيك الأعمال. يتخذ طريقه
إلى بيت هذا العين أو ذاك؛ هو ومن معه - وهم فى العادة من عياله أو
ضتيانته الذين يحبون المهنة - مدربون بالخبرة العملية وحدها على مهارات
مبهرة ، ليس فى العزف على الآلات الشعبية فحسب بل على حفظ واخترع

العبارات والمسكوكات اللغوية وإعادة ملئها بأسماء جديدة تنطبق عليها نفس الأوصاف أو لا تنطبق لا بأس فى ذلك؛ إنهم لبارعون فى معرفة ألوان المدائح التى يطرب لها أشخاص بأعيانهم، وأنواع الأمنيات التى يكرسون لها أعمارهم؛ يقف المداح أمام الدار، فى الحال يتكون حوله سامر من الأطفال المنبهرين على الدوام سرعان ما تدب البهجة بمجرد انطلاق الطبلية مع الدف والأرغول وربما الصاجات، تنفتح الشبابيك، تخطر النسوان فوق الأسطح ينظرن على استحياء. تلك مقدمة موسيقية فحسب، يخفت صوتها شيئاً فشيئاً بعد أن تكون قد لعبت دورها فى لفت الأنظار والانتباه لما سيحدث؛ يصعد صوت المداح مجالجلاً فى أداء توقيعى منغم، أو فى نغم ممثل أو ممسرح، كلام على بحر الموالم المطاط المساعد على رحرحة الأوصاف وندشة المدائح، يعدد مناقب صاحب الدار المشهور بالكرم والعزة والإباء والقلب الكبير، ينوه المداح عن أنه قد ذكر صاحب هذه الدار بالخير عند فلان وعلان من أجاويد بلدان زارها قبل أن يجىء إلى هنا .. ولربما استمر المداح يصدح بذكر المآثر لوقت طويل دون أن يأبه به أحد من أهل الممدوح، إلا أن المداح لا يبيأس بسهولة، إنه بخبرته الدعوية يدرك على الفور أن مثل هذا الممدوح شبعة بعد جوعة يستمرى استمرار مشهد المدح إلى أن يراه أكبر عدد ممكن من الناس ليتأكدوا أنه من الأجاويد وأن صيته ضارب إلى بعيد؛ وفى النهاية يبعث إلى المداح بحفنة قمح أو شعير أو عدة أرغفة طرية أو ملء حجر من الذرة. يعرف المداح كذلك أن مثل هذا الممدوح العويل أخف وطأة من الممدوح الخسيس الذى لا يد وأن يصطدم به المداح فى نهر الحياة، إنه - الممدوح الخسيس - غير واثق من أنه أهل للمديح ولقد يتصور أن مادحه يسخر منه فيعاجله بلطمة بدلاً من أن يمنحه كسرة خبز،

غير الشرير من هذه النوعية الخسيسة يترك المداح يواوي كيف يشاء حتى تتفلق رأسه دون أن يفتح باب أو درفة شباك . من هنا يطلق الناس على المداح لقب : المواوي ، ومعناه: الذى يواوىء، ذلك أن حرف الواو قاسم مشترك فى جميع عباراته ومسكوكاته الشعرية، ولأن هذا الاشتقاق يرتبط فى أذهان الناس بمعنى: الذى ينادى ولايسأل فيه أحد، مع أنه فى النهاية لا بد أن يعطف عليه أحد إما من جيران الممدوح الخسيس وإما من عابرى السبيل المتوقفين للفرجة بدافع الفضول..

كثرة عدد هؤلاء المداحين فى بلدتنا، واشتهارهم بالبراعة فى العزف على الرباب وتصنيعها فى بيوتهم، ومنهم من يعتبر مرجعاً موثقاً فى رواية الهلالية وعنصرة والبهلوان والملك سيف بن ذى يزن، تأتيهم الدعوات من بلدان بعيدة لإحياء الأمسيات ، كل ذلك جعل أهالى البلدان المجاورة، وخاصة أصحابنا منهم، يطلقون على أهل بلدتنا جميعاً لقب: المواوية . لكن للحقيقة أشهد أن جيلنا الذى بدأ يتشكل وعيه الحقيقى فى خمسينيات القرن العشرين لم يوصف منه أحد بهذا الوصف وإن سمعناه يتردد فى أدبيات بلدتنا.. ذلك أن عمى أبو السعود أفندى، كما يردد أبناء جيله والباقون من الجيل الأسبق، ومنذ أن ارتدى البدلة التفصيل المعتبرة فى زمن لم يكن يلبس فيه البدلة إلا كبار موظفى الميرى، رفع شأن البلدة باعتبارها قد أنجبت أفندياً، وباعتباره بحكم مركزه وعلاقاته الواسعة واحترامه ورهبته قد صرح الفكرة عن بلدتنا وأحاط اسمها فى أذهان القوم بحالة من التقدير والرغبة.

أما الحدث الثالث المهم فى تاريخ بلدتنا آنذاك فإنه قيام مدرسة محمد فريد الابتدائية بنين وبنات، وذلك حدث يقاسمه عمى أبو السعود فى المجد

والفخار باعتباره أحد أهم مؤسسيها وأول ناظر لها. بسعيه لإنشائها وتجميع قطعة أرض بالمجان والسهر على بنائها وتصنيع أثائها واستقدام المدرسين وجذب أولاد الأعيان من جميع البلدان المحيطة بنا، أضاف إلى بلدنا فرجة يومية مبهجة، من باكورة الصباح تمتلئ الشوارع والطرق والزراعية والمدقات التخريمية بولدان كالورود الطازجة يرتدون البنطلونات القصيرة والسترات والأحذية ذات الأبزيم النحاسي اللامع والجوارب الصاعدة إلى تخوم الركبتين ويمسكون حقائب من جميع الألوان والأنواع، منهم من يجئ ماشياً من بلدة مجاورة ومن يجئ ركباً كارتته أو ركوبة، يصير منظر البلدة في الصباح كقرص من الشمع يشغى بأعداد هائلة من نحل العسل..

بجهود بذلها عمى أبو السعود تطوعت أميرة من حفيدات الوالدة باشا رفقت ذكر اسمها بينائها على جزء متقطع من أرض زراعية من أملاكها في بلدتنا ووافقت على أن يكون الزعيم محمد فريد اسماً لها تعبيراً عن حب أمها له قائلة - كما لا يزال الناس يرددون في بلدتنا إلى اليوم - قولتها الشهيرة:

- « الفلاحون المصريون الذين ارتوت أرضى وأرض أجدادى من عرقهم يستحقون مدرسة ابتدائية لصبيانهم وبناتهم على السواء ! تخفف الضغط على مدارس دستوق وكفر الشيخ وطنطا! وفى نفس الوقت تشجع الفلاحين الفقراء على تعليم عيالهم النابغين فوق التعليم الأولى والمستعدين لمواصلة التعليم العالى فى مدرسة قريبة من منازلهم! »

يقال همساً إن عمى أبو السعود أفندى هو الذى كتب لها تلك الكلمة وألقاها نيابة عنها. لقد صرفت الأميرة بسخاء على المدرسة لأنها كانت

زوجاً لأحد نبلاء العائلة المالكة ذى نشاط سياسى يسارى يقف فى صف العمال وله إلى ذلك نشاط فى الصحافة والفكر والأدب، وكانت المدرسة فرصة تكرر لصدق توجهات النبيل وزوجه التى كانت من فرط الطيبة والإنسانية تكاد تكون سيدة ملائكة الرحمة فى أساطير بلدتنا، بناء المدرسة على نحو شبيه بالقصور الملكية، التخت والأرائك والسبورات الفاخرة تثير أحنقاد عيال المدرسة الأولية وتحفزهم على التفوق للانتقال بسرعة إلى المدرسة الابتدائية، حوش صالح لكى يستوعب جميع أنواع اللعبات الرياضية، حديقة مقطوعة من غابة الكافور والجزورين تغرى الأولاد بالبقاء فى المدرسة طول النهار بغير ملل أو ضجر..

هذه المدرسة باتت أهم معلم من معالم بلدتنا، يتضاءل أمامه مبنى محطة السكة الحديد برصيفها المهيّب وحجراته وتنداته ولافئاته المفشوخة الساقين بقامة عالية تحمل اسم بلدتنا ساطعاً بالخط الثلث الكبير ذى الحروف السابغة الغنية العملاقة المبهجة كعواميد النيون الملون. أما المدرسة الإلزامية العتيقة التى بنيت فى أواسط العشرينات على نفقة الحكومة فقد اعتلتها مسحة من الكآبة حيث تساقط الطلاب عن كل جدرانها من الداخل والخارج معاً، تاركاً أشكال خرائط وسراييب وهضاب شوهاة، الرطوبة جعلت الجدران تتصبب عرقاً يتمركز فى المساحات السفلية، والأبواب والشبابيك فقدت لونها الذى كان أزرق مبهجاً ذات يوم بعيد، حتى الجرس النحاسى المعلق أعلى سطح المراحيض قد صدئ جزيره وثقلت حركته وبع صوتته الذى كان نافذ الدقات عميقها فبات متحشراً غوغائى الإيقاع فاقداً لرهبته القديمة المهابة فلم يعد يحترمه العيال.. صار المقبل على المدرسة من بعيد نحو بابها العمومى يشعر بالامتعاض كأنه مقبل على مقبرة..

جار الزمن كذلك على نقطة الشرطة مع أنها والمدرسة الابتدائية من جيل واحد تقريباً بفارق لا يتعدى العامين يضاف إلى عمر النقطة .

أما صندوق البريد الكبير فلولا أنه فى حراسة النقطة لنطق حديدته مطالباً بضرورة رفعه عن جدار النقطة وتعليقه فى حائط مدرسة محمد فريد الابتدائية، حتى أصحاب الخطابات يتمنون ذلك ليصبح الذهاب إلى صندوق البريد نزهة فى رحاب حدائق الأميرة، أما البوسطجى نفسه، الطواف الذى يأتى كل يوم من المركز ليضع البريد الوارد إلى البلدة فى حوزة البلوكامين النوبتجى حيث يجىء الناس إليه يسألونه أو يتولى هو إرسالها لهم مع من يلتقيه من أقاربهم أو جيرانهم، ثم يدس البوسطجى إطار الكيس المعدنى تحت الصندوق فينزأح قعر الصندوق فتسقط الخطابات فى الكيس فيشد إطاره إليه فيعود قعر الصندوق إلى وضعه، ثم يقفل عائداً إلى المكتب الرئيسى فى المركز، (الودُ وده) لو ينتقل الصندوق ليعفيه من التوغل فى أحشاء البلدة بحماره المرهق من طول اللف بين البلدان، ما أحب على قلبه من أن يأخذها من قصيره فى مدخل البلدة على الطريق الزراعى المرصوص بأشجار الصفصاف والكافور والجزورين على مسافات طويلة تحدد أملاك النبيل وزوجه الأميرة، لكنه مع ذلك - البوسطجى - لا يرحب رسمياً بنقل الصندوق لأنه حينئذ لن يجد شخصاً يأنمته على خطابات الناس بما تحويه من أسرار وأخبار..

(٣) مريض الأطفال قرآنا

ولد جدى الشيخ حسن عقل عاجزاً أو شبه عاجز . كان ذا قتب مزدوج ، من الصدور الظهر معا ، لكأنه قرية ماء قد توسطها رأس دقيق بدون رقبة ، كأنه مجرد حلق للقرية للملء والتفريغ؛ وجهه محتقن البشرة حاد الملامح التى تنضح ثقة بالنفس تبدو عالمة بكل كبيرة وصغيرة فى الحياة، يمشى بقامته القصيرة وجسده الضئيل بسرعة واتزان كأنه آلة بشرية من كوكب آخر، تبدو العصا العوجاية فى يده محض عياقة وأبهة فى طفولته - كما حكى لنا بنفسه - كان صدمة لأبيه ناظر وسية الأمير محمد على القرية من زمام بلدتنا ، سيما وأبوه ، الذى يحمل عمى أبو السعود اسمه، كان يحلم بولد ذكر يكون أحاً جيداً لشقيقتيه زينب ورقية ، أما وقد أعطاه الله هذا الولد المعوق الذى ربما يصير هزأة بين العيال بسبب هذه العاهة فقد رضى بنصيبه عن طيب خاطر، عهد به إلى فقيهه لتحفيظه سوراً من القرآن الكريم لعلها تنفعه فى أكل عيشه إذا ما ادلهمت فى وجهه الدنيا . إلا أنه أقبل على حفظ القرآن بسليقة مرهفة وبرغبة قوية فى إثبات الوجود بات أصغر طفل حفظ القرآن كاملاً عن ظهر قلب فى زمنه، تشجع أبوه فألحقه بالمعهد الدينى، فواصل التقدم بنبوغ مذهل فى علوم القرآن والحديث والشريعة حتى حصل على ثانوية المعهد؛ بقى أن يسافر إلى الأزهر الشريف فى القاهرة

ليكمل تعليمه العالى بحصوله على العَلَمية ؛ والتعليم الأزهرى فى ذلك الحين
جباله طويلة مطاطة لاتنتهى إلا لتشبك فى مراحل يطول فيها الحفظ
والتسميع .

ولم يكن بمقدور أبيه أن يتشحط وراءه فى بلد بعيد ولا أن يتركه وحده
فى بلاد الغربية سنوات طويلة وهو فى احتياج لمن يرعاه ، على أن جدى
حسن كان قد قنع بهذا القدر من التعليم . وإذا نوى أبوه أن يكلم واحدا من
رجال الأمير أو الست هانم فى واسطة تلحقه بوظيفة فى وزارة الأوقاف أو
حتى فى إدارة الوسية ، فاجأه الشيخ حسن بأنه قد نذر حياته لخدمة القرآن
الكريم لا لخدمة أى أحد كائناً ما كان شأنه؛ لقد قرر أن يتوظف فى معية
القرآن نظير راتب من رضاء الله، يا ابنى يهديك يرضيك، لا فائدة ، وقال
لأبيه على سبيل الحسم النهائى :

– « أنا خلاص تلقيت جواب التعيين من هاتف هاتفنى

باسم الله فى غفوة ساعة السحر !»

من غده صار يفكر فى استقطاب العيال الأذكياء النجباء لتحفيظهم
القرآن الكريم . لقد رأى فى المنام أنه يرضع طفلاً من ثديه الذى فوجيء
لحظتها بأنه كبير كئدى الأنتى ، وكان يضغط بأصبعيه على ثديه كما تفعل
المرضعة فإذا به يستمع إلى خرير اللبن صوتاً يرتل القرآن الكريم؛ ولم يكن
هذا المنام فى تفسيره الشخصى له إلا بمثابة أمر تلقاه بأن يرضع الأطفال
قرآناً .

اقشعر بدن الأب والأم والأخوات من روعة المنام وقرر أبوه فى الحال أن
ينزل عند زعبته، وبدأ دماغه يفكر فى البحث عن مكان يصلح لهذا الغرض
بشرط أن يكون واسعاً ومحترماً وأمناً حتى يأمن الناس على عيالهم فيه،
كما وأنه لايرضى لابنه الأزهرى الحافظ الموجود بأن يكون صاحب كتاب من

هذه الكتابيب المخبوقة فى دكاكين وعشش ويديرها جهلاء ؛ ولكن أين يوجد هذا المكان ؟ إن دارهم فى سره البلد من الداخل، وإن كانت داراً بالطوب الأحمر مستورة إلا أنها مقفولة على نفسها وبالكاد تتسع لهم، ثم إنه رجل متحفظ لا يقبل أن يدهس داره رجال من أولياء الأمور يجسسون حرية حريمه. لحظتها كان جالساً على دكة من الخيزران تحت صفصافة فى مواجهة مبنى الديوان، ذاك الذى يضم مكتب الناظر فى الطابق العلوى مع مكاتب الباشكاتب والكاتب والمهندس الزراعى، أما الطابق الأرضى فيضم زريبة كبيرة ومخازن للمحاصيل وباحة واسعة تتكوم فى أركان منها نوارج ومحاريت وقصايبات وطنبور؛ فى قعدة الأب تلك تكون السراية على يساره عبارة عن فيلا محدقة تزدهى الألوان على حوائطها وشبابيكها ما بين البنفسجى والوردى والأزرق والأخضر تحيطها غابة من الكافور والجزورين ودقن الباشا؛ تمتلىء بالحياة والحركة فى أزمنة الحصاد لأيام طويلة، فيما عداها نادراً ما تفتح إلا أن يكون أحد الأمراء غضباناً من شىء أو ربما من نفسه فيجىء ليمكث فيها بضعة أيام كما لعله سيحدث اليوم حيث تلقى الناظر الأب خبراً بأن تكون السراية جاهزة لاستقبال زائر مهم؛ لهذا جلس على هذه الدكة يتربق جميع الطرقات . وراء مبنى الديوان ترقع بيوت العزية، بيوت من الطوب الطين المخلوط بالتبن، عدة صفوف متوازية ظهورها للخارج، يسكنها عمال الوسية الدائمون : الباشخولى والخوله ، الغفر والحراس وفراشو الديوان والسراى، نجار السواقى والطنابير والنوارج ، علاف الماشية .. الخ ، لكل منهم عياله. الطريق الزراعى الآتى من كفر الشيخ إلى السراية أكل من أرض الوسية مساحة كبيرة بإرادة أصحابها من أجل توسيع الطريق وتمهيده وإيجاد باحة عريضة جداً كأنها الميدان تسمح للسيارات التى تجرها الخيول بالدوران على راحتها. وهناك على مدد

الشوف تقف - كالحازوق - بناية على مساحة كبيرة ، مجرد جدران مبنية بالحجارة ومسقوفة كانت قد بنيت منذ زمن بعيد جداً ولا أحد يعرف ماذا كان الغرض منها على وجه التحديد، زربية؟ فعلاً تشبه الزربية، إسطبلاً؟ ممكن ، عشة تستريح فيها الثيران الساهرة كى تأخذ دورها معلقة فى شعبة الساقية؟ ربما ، أغلب الظن أنها كانت هكذا ، المهم أنها تبدو بلا صاحب على الإطلاق، فطوال ما يقرب من نصف قرن من الزمان فى خدمة الوسية لم يسمع عن أحد يدعى ملكيتها، حتى المفتش وهو خبير بأملك الوسية ولديه خرائط بكل سنتيمتر مربع فى أرض الضيعة قال بعظمة لسانه إنها ليست من أملاك الوسية لأن المساحة التى تحتلها ليست تدخل فى أرض الوسية. رقص قلب الناظر الأب إذ وقعت عينه على هذه البناية المجهولة، قال فى عقل باله : لن يظهر صاحبها الأصلي بالفعل إلا إن احتلها أحد ويأشر الانتفاع بها ، وعلى كل حال فإنه لن يشغلها فى بيع أو شراء أو تخزين أو ما شاكل ذلك من صور الانتفاع ؛ إنما سيجعل منها بيتاً لله لتحفيظ القرآن الكريم فإن ظهر لها مالك أصلي فى دار ما دخلك شر وهذه دارك يا عم والسلام عليكم، ومن يدري؟ لعله يرعوي حين يرى أنها استخدمت فى مثل هذا الغرض النبيل العظيم فيسكت أو حتى يقبل تأجيرها، ثم إنه طرب لفكرة بيت الله هذه وقال لنفسه : نعم ولماذا لا تكون اسماً على مسمى؟ إن هذا يكون هو المدخل الطبيعى المضمون. وقد كان، من غد أرسل نفراً من العزبة قاموا بتطبيقها من الداخل والخارج وهم فى غاية من الاستغراب من إهمالهم لهذه البناية على طول الزمن حتى باتت مرحاضاً لكل عابر مزنوق، ومخبأ للصوف المواشى، ودروة لرجل سافل مع امرأة خاطئة؛ جاء النجار فوق لها باباً وبضعة شبابيك كانت فراغاتها مفتوحة فى الجهات الأربع تصفر فيها الريح بتيارات الهواء المتصادمة فتحدث زئيراً مربعاً يوهم سكان كل

من العزبة والبلدة - وهى على بعد كيلو متر واحد من العزبة - بأن هذه
البناية الخرابانة تسكنها العفاريت والذئاب الجائعة. أنفق الأب الناظر بعض
الأموال فى فرشها بالحصائر الجديدة، ودكة لابنه الفقيه، وبضع مساند
وشلت وتكات دبرها من ديوان العزبة ومن بيته ومن تبرعات أهل الله من
رجالات الوسية ، أقام فى ركن منها تقفيسة مبنية بالطوب الأحمر بمثابة
كنيف لقضاء الحاجة وفحت له بئراً تحته يتم نزحه من خارج الجدار الخلفى،
صار شكل البناية مفرحاً كأنما الأنس كله قد ملاً هذه البرحاية التى يعبرها
الطريق الزراعى بثلاث تفرجات عريضات، واحدة تقود إلى باحة السراية،
الثانية تمتد طويلاً أو أفقياً فى طريقها إلى بلطيم ، الثالثة تنحرف يساراً إلى
بلدتنا . ثم بدأ هو نفسه يقف على بابها واضعاً كفيه على أذنيه رافعاً عقيرته
بالأذان للصلاة فى مواقيتها، فيجىء أهل العزبة وأهل البلدة المتواجدين فى
الغيطان وقت الأذان لأداء الصلاة جماعة فيها ، وفى ظرف شهر واحد كان
أطفال بلدتنا يتناثرون فى مجموعات تتلاقى مع أطفال البلدان المجاورة فى
طريقهم إلى هذه البناية حيث جدى الشيخ حسن فوق الدكة فى انتظارهم
ليحكى لهم - وإنه لأعظم الحكاين الذين عرفتهم - حكايات جاذبة مثيرة
لخيال الأطفال ذات مغاز دينية وأخلاقية ، لفرط براعته فى الحكى - يقول
أبى - كان الأطفال يعرفون المغزى دون أن يشرحه لهم من خارج الحكاية،
وإن تكون أدمغة الأطفال قد انتعشت بالحكايا القصيرة السريعة المشرقة
يبدأ فى تحفيظهم سورة القرآن آية بعد آية ؛ وكان لشكله الغريب - يقول
عمى زكريا - تأثيراً كبيراً فى جذب انتباه الأطفال إليه كأنه لعبة بشرية
ممتعة، هو أيضاً كان على وعى بذلك فيمعن فى تلطيف نفسه حتى صادقوه
وأخذوا عنه بشغف وحميمية . لم يكن فى الناحية كلها - يقول عمى أبو
السعود - ثمة من مدارس على الإطلاق ، كما لم تكن كل الكتاتيب جاذبة

للأطفال فانهمرت قوافل الأطفال من كل حدب وصوب على الكتاب الجديد المقام في مكان صحنى تحت الشمس وفى الهواء الطلق فى هدوء منقطع النظر . شيئاً فشيئاً علقت لافتة كبيرة بالخط الثلث بعنوان : دار المصحف الشريف لتحفيظ القرآن الكريم لمنشئها وحامل مسئولية التحفيظ والتجويد فيها خادم القرآن الكريم العبد الفقير إلى ربه تعالى الشيخ حسن أبو السعود حسن عقل الأزهرى .

المدهش حقاً - يقول أبى - أن أحداً لم يظهر على الإطلاق ليدعى ملكية هذه الدار، بل أن الدار أصبحت تعرف بكتاب العقالوة ، مما شجع الأب وابنه على تعديل الدار وتحويلها إلى ثلاث حجرات ينقسم عليها الأطفال بمستويات ثلاثة : المبتدئ فى الحفظ .. الموشك على إتمام الحفظ .. التجويد . وكانت مباني البلدة تقترب من هذه الدار عاماً بعد عام إلى أن أحاطت بالسراى وبالعزبة بعد قيام ثورة يوليو وتوزيع الأرض على الفلاحين . وقد لعبت هذه الدار فى حياة هذه المنطقة دوراً عظيماً ، فما من إنسان تابع فى علمه من نواحيها إلا وتلقى تدريبه الأول فى هذه الدار على يد الشيخ حسن عقل ، وما من إنسان يعرف القراءة والكتابة ويحيد قراءة القرآن فى صلواته إلا وقد تعلم فى كتاب العقالوة على امتداد أجيال وأجيال حتى بعد انتشار المدارس الإلزامية والابتدائية فى القرى ، كان الطفل لا يصلح تلميذاً حقيقياً إلا أن خرج من كتاب العقالوة إلى المدرسة الابتدائية مباشرة نظامية كانت أو أهلية .

(٤) يوم الفرح الأعظم

يوم تخرج عمى أبو السعود فى دار المعلمين بتقدير متقدم نظراً لتفوقه فى مادتى التربية والحصص التجريبية ، قامت دارنا ودار القرآن معاً على قدم وساق. أبى فى دارنا وعمى زكريا فى الكتاب يستقبلان وفود المهنيين من أعيان البلاد الذين حفظوا القرآن على يد جدى الشيخ حسن عقل كما نبغ عيالهم فى الجامعة والأزهر بفضلهم ، ناهيك عن أهل بلدتنا وكلهم بلا استثناء ممن جلسوا أمام جدى حسن ولسعت خيرزانتة الرياية أكتافهم ومؤخراتهم . الفحل الجاموس المنبوح فى حوش دارنا القديمة كان مبروكا فى نظر جدتى معزوزة ، أكلت منه بلدان بأكملها وفاض .

ذلك يوم من أيام بلدتنا قد سجلته الذاكرة وتوارثته الأجيال شأن الحواديت التى تمكث فى الأرض لأن فيها ما ينفع الناس يحفزهم على النجاح جلباً للأفراح والليالى الملاح وتصديراً للزهو والفخار .

أما يوم تعيينه مدرساً فكان يوماً عظيماً ارتفعت فيه الزغاريد مرفرفة كالأعلام فوق أسطح الدور من نسوان الحبايب والأقارب والجيران والرجال فى المساجد والغيطان والشوارع ودكاكين الخياطين والبقالين . وحتى فى سرادق العزاء . يومها راحوا يصفحون بعضهم بعضاً فى أريحية وسرور طافح على لحاهم وشواربهم وتقاطيع وجوههم الطفولية الإنسانية برغم تقدمهم فى السن، يباركون لكل من يلتقونه ، حتى العيال زأططوا فى الأجران كيوم العيد تتوفر فيه أعداد كبيرة تصلح للألعاب الجماعية التى

تبين لى فيما بعد أنها - حتى هي - ذات أغراض تربوية وأخلاقية عظيمة ولعلها كانت لوناً من المسرح الشعبي موروثاً من مصر القديمة مثل لعبة (لاينزل ولا يتزلزل) أو لعبة (الغراب النوحى) . كان العيال ، فيما يصف عمى موسى الذى كان طفلاً آنذاك، فرحين حقاً لفرحة أهاليهم، فحين يفرح الأهل لسبب من الأسباب تلتين جنوبهم القاسية ويسهل عليهم تمرير المطالب وسرسبة الملالم. يقول عمى جبريل تاجر المحاصيل لحساب العائلة تعليقاً على أخيه موسى خادم الثور إن أهالينا إذ يفرحون هكذا بنجاح ابن بلادهم إنما هم فى الواقع يقيمون طقساً سحرى من أجل أن تتكرر الفرحة مرة أخرى لعلها تكون بشيراً بواحد من عيالهم؛ إنهم بفرحتهم بنجاح واحد من بلدهم يحرضون عيالهم على النجاح ..

كم من تعليقات دارت فوق مصطبة دارنا الداخلية فى الليالى القمرية حين يتجمع الأعمام وكبار أبناء الأعمام والعمات القريبات من دارنا بعد صلاة العشاء؛ تنفجر الذكريات بعشوائية خميمة ساحرة وإن ضقتنا بها أحياناً لقطعها تدفق الحديث عند نقطة غير مقصودة بسؤال من طفل أو بكلمة عابرة من أحد الجالسين أو لمجرد أن أحد الجالسين أراد عن عمد تغيير مجرى الحديث بذكر حادثة أو نادرة أو طرفة سرعان ما تستدعى مثيلات لها أكثر عمقاً أكثر طرافة أشد عبرة وموعظة. مع ذلك فإن هذه التفجرات العشوائية كانت مصدراً مهماً لمعرفة الكثير من المعلومات التاريخية المهمة عن عائلتنا ولولاها ما قدر للعيال معرفة أى شىء عن تاريخ كبارهم الذين لا يحبون لعيالهم أن يعرفوا عن تاريخهم أى شىء على الإطلاق اللهم إلا ما يريدون لهم أن يعرفوه وهو فى الغالب ليس يمت للحقيقة بأية صلة، أما هذه الذكريات المتفجرة فى تلقائية عبر حكايات وطرائف فإنها أقتنتى منذ الصغر بأنها أدق منفذ لمعرفة الحقيقة الحقيقية كما أنها تحدث ما يشبه اللغز الثقافى أو المعرفى تعلق آثاره المفيدة - كالتمثيل الغذائى تماماً - بأذهان الحضور فتصيبهم جميعاً بعدوى اللباقة وسبك الكلام وانتقاء المفردات .

أما يوم الفرح الأعظم - يقول عمى زكريا - فكان يوم البدلة التفصيل حينما لبسها عمى أبو السعود فى دكان الخياط فى طنطا، الذى اشترى له القميص الافرنجى الحرير اليابانى ورباط العنق المسمى بالببيون الشبية بغصن الوردة، مع الحذاء الأسود على أبيض وهو تفصيل أيضاً ؛ إن للكلمة التفصيل احتراماً كبيراً فى أنظار أهالينا، لأنها تؤكد أن البدلة مقاسة على صاحبها بإحكام وليس ثمة من شبهة فى أن يكون استعارها أو شحذها أو اشتراها من سوق الكانتو .

يومها دخل بها البلدة فى زفة كبيرة، مكونة من جدى حسن وأبى وعمى جيريل الذين حرصوا على مرافقته فى السفر إلى طنطا على اعتبار أن الحدث عائلى بالدرجة الأولى ويجب أن ينال كبار العائلة شرف المشاركة فيه، ثم كان عمى موسى فى انتظارهم على محطة كفر الشيخ بالركاب؛ ولقد أسهب عمى موسى فى وصف النساء اللاتى كن يحملن فى شخصية الراكب ظناً منهن أنه واحد من الحكومة أو أحد باشوات وسية محمد على توفيق، وإذ يلاحظن فى محيط الركب جدى حسن بشكله المميز يتعرفن على شخصية الراكب فيزغردن . حينئذ تعلق جدتى معروزة مشوحة بذراعها المعروق فى فروغ بال :

« النسوان فى بلدتنا يزغردن عمال على بطال ربنا يبارك

فى أصواتهن فإنهن شربات الفرغ ! .. ولا فرح بغير

زغاريد كما لاطبيخ بغير ملح !»

جدتى معروزة برغم كهولتها لاتزال هى الأخرى قادرة على الزغرودة غير أنها لا تزغرد إلا إن هزها حدث جلال ، ونجاح أى حفيد من أحفادها ولو فى أعمال السنة الدراسية هو عندها ذلك الحدث الجلل، فإذا بخيال المتاة حى فى عنفوان صحته، وإذا بالزغرودة كلاسيكية فى رنتها المججلة المبهجة وفى طول نفسها ، زغرودة كصوت الشوكة الرناتة يبقى فى الأذن طويلاً بعد اندياحه فى الأفق البعيد .

(٥) مديونية الزبان

ما أن التحقت بالمدرسة الابتدائية حتى صرت تابعاً لعلى أبو السعود أفندي، في كعبه أينما ذهب، أقضى له مشاويره الخاصة. إن صاحب دكان البقالة لن يصدق أحداً غيرى إذا جاءه يطلب علبة سجائر كوتاريللى على حساب أبو السعود أفندي؛ ذلك أن التقييد في دفتر الشكك يقتضى مرسالاً رسمياً معتمداً من العائلة ومنه وكنت أنا هذا المرسال. أما أعمامى فلكل واحد منهم نصف ربع أوقية دخان فرط كل يوم ولا بد أن يذهب بنفسه إلى البقال ليقيدها بخط يده إذ إن المحكمة - لا قدر الله - تأخذ بدفتر الشكك هذا كأنه صك أو كميالة يترتب عليها استصدار أمر أداء من المحكمة على يد محضر يقوم بتسليمه للمدين يداً بيد، فإن لم يدفع بالتى هى أحسن يتم توقيع الحجز على ممتلكاته ثم بيعها فى مزاد علنى فإن أوفى البيع بحق الدائن كان بها وإن نقص عاود الحجز عليه مرة أخرى وثالثة ورابعة إلى أن يأخذ حقه على دابر مليم فوق هذه البهدلة والفضيحة. أما طلبات الدار من سكر وشاى وشطة وكمون وفلفل وزيت وجاز وشرايط وشرايط لمبات الجاز، وإبر بوابير وحلاوة طحينية فى شهر رمضان.. إلى آخر هذه الاحتياجات اليومية العاجلة فإنها كلها من اختصاص أبى وهو أكبر إخوته وإن لم يكن عميد العائلة؛ به يضمن الجميع أن أحداً لن ينتهز دفتر الشكك

ويجرّ لحسابه طلبات شخصية خاصة به تدفع العائلة ثمنها فتختل الموازين في الدار..

ذلك أن عمى أبو السعود أفندى منذ تعيينه معلماً في مدرسة الحكومة رصد مرتبه الشهري لاحتياجات الدار من كافة المشتريات طوال الشهر؛ لا يقتطع منه إلا النذر اليسير لمصروفه الشخصي الضروري كأجرة السفر إلى المديرية أو زنقة حرجة على مقهى في البندر أو ما إلى ذلك؛ في مقابل أنه يأكل ويشرب ويكتسى من محصول الدار فضلاً عن أنه قد أنفق على تعليمه الكثير مما يعتبر حقوق إخوته الذين لم يكملوا تعليمهم لسبب أو لآخر وذلك دين في عنقه لا بد أن يرده الصاع صاعين . والواقع أن جدى حسن كان حصيماً حينما تنازل له عن قيادة الدار في حياته ، منها توقيع لولده الذى أصبح باسم الله ما شاء الله شخصية مرموقة ، ومنها خلاص من وجع الدماغ ، ومنها كذلك اطمئنان على حسن قيادة الدار بعد رحيله .

هذا ما قد حدث بالفعل؛ فحينما رحل جدى حسن بعد استمتاعه - كما كان يردد باستمرار أثناء وعكته الأخيرة - بطول العمر حتى رأى الثورة الأكبر من ثورتى عرابى وتسعتاشر ، وشاهد بعينه الملك يتنازل عن عرشه ويغادر البلاد ، والاحتلال الإنجليزى يلم خرقه وهلاهيله ويغور فى سنتين داهية، وإلغاء الألقاب ، ورفع رعوس الفلاحين والعمال والفقراء .. سارت الأمور فى دارنا على خير مايرام: عمى زكريا مختص بالكتاب وحصيلته فى الشهر عدة برايز قلما تجاوزت الجنيهين بعد دفع الإكراميات الرمزية لمن يؤدون حصصاً .. أبى مختص بشئون الزراعة ، وتسديد حسابات القطعة المستأجرة ، وشئون الأنفار ، وميسانية النجار والحداد والحلاق وخادم المسجد وبائع العسل وكلها أجور متفق عليها تدفع من المحاصيل .. عمى

جبريل يلعب فى أسواق البلدان يبيع ما زاد عن حاجة الدار من محاصيل ويشترى مانقص منها، يدبر لبيع محصول القطن بسعر مرتفع يستلزم خبرة فى اختيار وقت البيع ومناورات مع التجار .. عمى موسى مختص بالزربية بما تحويه من بقرة وجاموسة وثور يستأجر للتعشير، وحمارين للركوب وبغلة للسباح ونقل الأمتعة والدوران فى الساقية .. وكان جدى حسن قد حضر زواج اثنتين من عماتى، عمتى مسعودة عقل التى تزوجت من السعيد أبو بكر تاجر الحبوب الميسور، وعمتى عزيزة عقل التى تزوجت من إبراهيم الشامى الغنام صاحب قطعان هائلة من الأغنام ؛ بل حضر مولد حفيديه منهما ؛ أما عمتى خديجة عقل فقد تزوجت بعد رحيله من عبد الحسيب الشريتلى الفرارجى ابن عم لحوالى مائة زلة اسمهم الشريتلى كلهم فرارجية وتجار بيض ، وكان زفافها أوسع من زفاف شقيققتها بحكم هذا العدد الهائل من الأزام الشريتلية المشهورين جميعهم بخفة الظل وتأليف النكت الحراقه اللاسعة إلى حد القرص الموجه المؤلم.

كل قرش يدخل دارنا من أى مصدر يتجمع فى دولاب الحائط فى حجرة جدتى معروزة حاضنة البنات جميعهن مفتاح الدولاب مربوط فى صغيرة شعرها الذى بات يطرد الحناء فصار لونه كلون ورق الشجر الجاف حين يسقطه الخريف ، تخفيه تحت الطرحة السوداء التى تتبشيق بها. ولا أحد يعرف مقدار الفلوس فى دولاب جدتى معروزة حتى هى نفسها رغم أنها أمينة الصندوق ، الوحيد الذى يحسبها بالمليم والسحتوت هو عمى أبو السعود ، كثيراً مايفاجئنا طالباً من جدتى معروزة طلباً على هذه الصيغة:

– «يامه! فاضل عندك فى الدولاب مائة وسبعون

قرشاً وثلاثة مليمات وخردة! .. أعطنا منها

خمسين قرشاً لكرء أنفارى وىبقى عندك مائة

وعشرون قرشاً وثلاثة مليمات وخردها».

ولما لم تكن جدتى معرزة تعرف حساب ما فى حوزتها، ونظراً لتوجسها الأبدى من مسئولية الفلوس وتوقع نقصانها والخوف إلى حد يمحس بطنها من نفادها كلها ذات لحظة، فإنها تتكىء بكفيها على ركبتيها وتدفع نفسها واقفة، تمشى محنية الهامة قليلاً، تفتح الدولار، تقبض على الصرة كلها وتأتى بها، ترمى بها فى حجر عمى أبو السعود، يتلقفها، يفكها بصعوبة الكسكرة بعدى من العقد، يفرطها فى حجره على الملاء، يعدها أمامنا فلا تزيد ولا تنقص نصف مليم على الإطلاق، يأخذ الخمسين قرشاً يناولها لأبى عبد العال، ييرم الصرة على ماتبقى، يعقدها من جديد بكسكرة كأنها لن تفك ثانية، يسلمها لجدتى معرزة فتحضنها فى صدرها مرددة: اللهم احفظها من الزوال وأدمها نعمة، تقفل عائدة إلى الدولار فترقددها فى ركن ثم تتحسسها بأناملها عدة مرات لتتأكد من أنها محطوطة فى مكانها، تغلق باب الدولار وتشدده من المقيض تحتبر إن كان أعلق بالفعل أم لا، تعود إلى قعدة المصطبة الداخلية التى تعشقها وسط عيالها وأحفادها الكثار. تكون جدتى معرزة فى ذروة انتشائها بالفرحة الكبرى مرة فى كل عام وهى تسلمهم من دولابها - شأنهم وهم أطفال - مصاريف الكسوة السنوية للدار كلها عقب بيع محصول القطن مباشرة..

فى دارنا خمسة رجال، وست نساء، يصرن تسعاً عند حضور عمانى لزيارتنا، وتسعة وعشرين ابناً وابنة: ست بنات وولدين لعمى زكريا، خمسة صبيان وبنتين لأبى، ثلاثة صبيان وثلاث بنات لعمى جبريل، ثلاث بنات وولد لعمى أبوالسعود أفندى، ولدان وبنتان لعمى موسى فى دار تتكون من مندرة كبيرة مطلة على جرن واسع مشهور باسمنا: جرن العقالوة، مع أنه ليس من أملاكنا، وتسع قاعات تطل على فناء داخلى مسقوف، وحجرتين داخلتين

فى الجنينة امتداداً لـدورة الفرن تتمتعان بميزتين مهمتين : حرارة الفرن تتفعلهما طوال الشتاء، ونسيم الجنينة ينعشهما طوال الصيف. فى هاتين الحجرتين المفتوحتين على بعضهما بواسطة باب بدرفتين، ينام كل عيال الدار قاطبة ، البنات مع جدتهن معروزة فى الحجرة المكنونة التى يوجد بها تريباس الباب الداخلى تقوم جدتى بسنكرته بعد صلاة العشاء مباشرة ، أما نحن الصبيان فنرتع فى الحجرة المتطرفة فى عمق الجنينة بينها وترعة خلاف قطع من الأشجار الكثيفة يؤنسنا فى الليالى المقمرة ويتحول إلى أشباح مخيفة فى الليالى الحالكة وبخاصة ليالى الشتاء الطويلة وبالألرب إذا هطل خلالها المطر لعدة ساعات كما يحدث دائماً. فى حجرتنا هذه مهما أخذنا حريرتنا فى الكلام والدردشة وقول النكت القبيحة نبقى فى اضطراب من فرط التوجس حيث أن حجرة عمى أبو السعود أفندى هى تلك المطلة على الجنينة وهو لا ينام قبل أن يتمطر على المصطبة تحت شباكها يدخل بشرارة ويستمتع إلى آخر الأبناء فى محطة صوت العرب. أثناء الدراسة نذاكر كلنا فى هذه الحجرة الواسعة جداً حيث يوجد أربعة مصابيح غازية فى أركانها الأربعة على رفوف خشبية. وكلها مصابيح نمره عشرة يعنى لدينا ضوء أربعين شمعة ، فإن أصاب الإعياء أحدا قام وخفض شريط المصباح المتأخم له فيغمض الضوء عينية فيأخذه الوسن. ما أجمل أن نساعد بعضنا بعضاً عند اللزوم؛ يطو لعمى أبو السعود أفندى - ولو فى عز الليل - أن يكح بصوت عال دونما لزوم للكحة إلا أن يشعرنا بأنه صاح لنا يرقبنا من تحت لتحت ، وفى نفس الوقت يغرينا باللجوء إليه إذا ما كنا واقعين فى مسألة حسابية أو جبرية أو هندسية معقدة ، أو مختلفين على شرح بيت شعرى عويص لأبى العلاء المعرى. كان كثيراً ما يميز علينا فى الليل زمن الإمتحانات عارضاً خدماته : عاملين إليه؟

ثم يجلس على طرف واحدة من الكنب البلدى المتعدد تحت الحيطان وفي
الوسط أو يتربع فوق الأرض على حصير متكئاً على مسند قطنى. وجوده
عندئذ فيه أنس ومنفعة، كل كلمة يقولها حتى وإن كانت طرفة مازحة لا بد
وأن نستفيد منها معلومة أو فكرة أو معنى. منذ قيام ثورة يوليو وهو مفعم
بمشاعر متفجرة بالحب تجاه عيال الدار وعيال البلدة كلها، لا يترك فرصة
سائحة إلا ويهنيء العيال بحلول عصرهم الباسم المشرق بالأمال العراض،
فأن يتنازل فاروق عن عرشه بهذه البساطة، ويرحل الإحتلال الإنجليزي،
ويتوارى أقطاب الفساد السياسى فمعنى هذا يا أولاد أن مناكنا نسميه قبلاً
بالمستحيل قد مات؛ وإذ يصبح جمال عبدالناصر ابن البوسطجى رئيساً
للبلاد فهذا معناه أن واحداً منكم فى القريب العاجل يا أولاد يمكن أن يصير
رئيساً مثله للبلاد؛ نصيحتى لكم يا أولاد أن يجتهد كل واحد منكم وأضعاً
فى اعتباره أنه قد يقع عليه الاختيار الشعبى ليكون رئيساً للجمهورية أو
للوزراء أو لأية مؤسسة وطنية فى بلادكم.

(٦) ليمونة فى بلد قرفانة

بيعتنى عمى أبو السعود إلى دكان محمد حسين المكوجى الوحيد فى بلدتنا ، دكانه أشبه بكوخ واطىء على جزء ضئيل من مساحة اقتطعت من الشارع فى زمن قديم وفاتت على الجميع بما أن الشارع لولبى بطبيعته وبصورة مدوخة، باب الدكان فى مواجهة باب بيته الهايط عن أرض الشارع بدرجة جعلت البوابة تبدو كأنها غائصة فى الأرض، المهم أن محمد حسين - وهو نصف أفندى بقميص أفرنجى وبنطال - فى استطاعته وهو محنى على ترابيزة الكى أن يسرب عينيه اللوزيتين الواسعتين إلى قلب داره عبر البوابة المفتوحة فيرى كل مايدور فيها بل ويمكنه التفاهم بالعينين مع من تلتقيه العينان فى وسط الدار على كل مايطلب ويريد بغير كلمة واحدة، فإن هى إلا دقائق ويأتيه من يحمل براد الشاى أو ملابس كانت منشورة فى الحوش، وقد توارب البوابة عقب نظرة من نظراته إذا كان فى الدكان شاب فارغ العينين نجس الذيل.

يحملنى إحدى بدلاته الثلاث لأخطف رجلى بها إلى المكوة لتكون جاهزة للبس مساء غد الجمعة تبيت مكوية فى الدولاب لصباح السبت. يُرَبُّتُ على كتفى بحنان غامر ويقول:

«العقبى لك أن تروح للمكوجى بيدلتك لما تكبر!.. إن شاء الله تكون بدلة تفصيل معتبرة!»

لعمى أبو السعود أفندى فلسفة حكيمة فى الملبوسات بوجه عام : هدمه واحدة تفصيل من قماش أصيل محترم أبرك من مائة هدمه سوقية رخيصة..

لكن ما كان يحز فى نفسى ولم استطع ابتلاع وضعه المؤلم هو أن يكون عمى أبو السعود أفندى بجلالة قدره لم يكن يملك إلا ثلاث بدل لا يصلح للاستخدام منها سوى اثنتين فحسب منهما واحدة يزداد منظرها كالأحلام عاماً بعد عام.

العجيب حقاً أن أهم بدلة فى هذه البديل الثلاثة هى تلك البدلة التاريخية المشهورة ربما فى منطقة كفر الشيخ بأكملها. عمرها آنذاك يتجاوز ربع قرن من الزمان؛ من حسن حظها أن نظام الدواليب كان مستحدثاً أيام زواج عمى أبو السعود؛ ذلك أن شوار العروس فى الريف كان قبل ذلك يعتمد على السرير ذى العمدان والناموسية ومرتبة ولحاف ومخدتين وبوريه عبارة عن عدة طوابق من أدراج عرضية وعلى سطحه رخامة ومراة بعرضه إن كان مستوى العروسين ميسوراً، وعلى المرتبة فحسب مع اللحاف والمخدتين فوق حصير مع صندوق بغطاء جملون مقوس على الشكل الفرعونى . وعند زواج عمى أبو السعود أفندى فى الشهر الأخير من العقد الثالث من القرن العشرين كان نظام الدواليب قد بدأ ينتشر لدى طبقة الأفندية وأبناء الطبقة المتوسطة الزراعية بوجه عام باعتباره الأنسب لتعليق البدل والفساتين محتفظة برونقها لا تلحقها التجاعيد ولا البهذلة . كانت حجرة نوم عمى أبو السعود أفندى مكونة من سرير نحاس بعمدان مضلعة وناموسية ومع المخدتين خدأديات صغيرة وملاءات وبياضات، وبوريه بمراة عريضة ،

ودولاب للملابس ، وترابيزة مائدة برخامة بيضاوية مع ستة كراسى خيزران،
وكرسى عباس لصينية القل، وثلاث كنبات بلدى منجدة، وطشت كبير لغسيل
الهدوم ومجموعة من الطل من النحاس . الدولاب كان مرتفع القامة، مدهون
بالأؤيمة ذات اللون البنى اللامع، مكون من جانبيين ووسط، الجانبان الأيمن
والأيسر كل منهما بدرفتين كل منهما مبطنة بمرآة ، كل جانب بداخله
عارضة كالعصا لتعليق الشماعات ومن فوقها زف للملابس الداخلية، أما
الجانب الأوسط فمجموعة طوابق من الأدراج حتى منتصف القامة أما
بقيتها فمرآة أمامها فراغ سطح الأدراج توضع فوقه لعب وبرابيز أنتيكات؛
قد أخذ عمى أبو السعود الجانب الأيمن . أخذت خالتي تفيدة زوجه الجانب
الأيسر . البدل الثلاث معلقة، كل بدلة تلبسها بياضة كنبياضة المخدات
والكنب ؛ صنعت خصيصاً لها من ثياب مهجورة كى تحميها من الغبار
والعنكبوت والعتة..

فى العادة كان عمى أبو السعود ينادينى قائلاً :

«خذ البدلة الرصاصى وديها للمكوجى عشان

تلحق تروح تجيبها منه بكره!».

أو تلبسها فى البيت

«خذ البدلة البنى وديها للمعلم فرحات الخياط

يقرط على الزراير ويصلح العراوى المتاكلة!».

تلكما هما البدلتان اللتان ضجتا من حرارة جسده ولسع المكواة طوال

سنوات وسنوات ، يتم غسلهما مرة كل عامين بمعرفة محمد حسين المكوجى

العتيق الذى تعلم أصول الصنعة فى دسوق ثم عاد ليمارسها فى بلدته فكان

— كما يقول المأثور الشعبى — مثل ليمونة فى بلد قرفانة . يقوم بتسريح

الچاكييت بالإبرة الطويلة وخيط السراجة الواهن ، فى غرز واسعة، وذلك

لتثبيت حشو الصدر والكتفين والبطانة ، ثم يطرحها فوق تمثال خشبي لجسد فوق حامل معدني موضوع في قلب طشت الغسيل، يغمرها بالماء النظيف يرغى فوقها الصابون النابلسي بغزارة كثيفة؛ بالفريشة الخشبية الناشفة يروح يكحت الرغوة هابطاً بها بخرفنة ومعلمة، تنزل كتل الصابون كطين الشوارع بعد هطول المطر ، مرة ومرتين وربما أربعة وخمسة إلى أن تنزل المياه نقية صافية . أما البنطلون فيطرحه فوق طاولة مديبة يلبسها في رجل البنطلون، والطشت من تحتها يتلقى سيولة الوسخ المتدفقة . على يمينه - فوق كرسي - جردل أو حلة ملأته بالماء يغترف منها بالكوز النحاس ذي الخصر الرفيع واليد المخروطة.

توضع الجاكت بحاملها في حوش داره تحت وهج الشمس؛ البنطلون يطوى متدلياً بالمشيك في حبل ممدود بعرض الحوش. بعد عدة ساعات تجف تماماً . كثيراً ما كنت أذهب إليه مساء الجمعة لاسترداد البدلة التي سيرتديها عمى صباح الغد فأجده لا يزال يكافح في فردها تحت الفودرة الشائطة والعرق يتصبب من جبينه ويديه فيطشطن فوق الفودرة والمكواة فتبدو قطرة العرق هنا أو ها هنا كحشرة حية توحوح إذ يعجنها اللهب. كان يفرحني أن رأيت رجلاً يعمل بذمة وضمير وحب للمهنة وللهدمة التي يكويها فلا يسمح لها بالخروج من بين يديه إلا وهي كالعروس المجلوة ليلة عرسها، يضعها في شماغها، يلبسها بياضتها التي تكون قد غسلت هي الأخرى بيد خالتي تقيدة قبل أن أتى بها معي درءاً لغبار الطريق ووحله. بجديدة وبلهجة خطيرة من صوت عريض رنان مسيطر يروح يوصيني بأن أجعل بالي من الطريق وأمشي محترماً لا أعاكس الكلاب ولا أمازح العيال حتى تصل البدلة إلى صاحبها نظيفة آمنة . أعرف أنه يعرف - بل ويكاد يعتقد عن ذلك - أن الطريق إلى دكانه شائك فيه الكثير من الوعورة يعني لا مفر أمامي من

دخول سرداب لولبى تنام فيه الكلاب فى زُفْم الحوادية كالخديعة فأدوس فوقها دون أن أدرى قتهب فى وجهى باحتجاج أو تعوى بألم، إذ إنها تعرف أنني متوذك بالكلاب ولا أنزعج ولا أجرى فتتأكد هى أنني سيد ولست مطازداً جبناً؛ إلا أنني-أنعى هم الخرابة العتيقة التى لا بد أن أخرج من قلبها على الدكان مباشرة ، كلابها بلطجية قطاع طرق يتصيدون الفئران والشعابين والعقارب وكل من يصدقهم ويجرى منهم، يلهمنى الله دائماً أن أبصق فى وجوههم فيتراجعون فى الحال أذانهم وذيلهم مدلاة.

فى السنوات الأخيرة كنت أدخل على عمى أبو السعود فى باكورة الصباح كى أصب له الماء بالإبريق ليتوضأ ثم أصلى الصبح وراءه. أراه عندما يشرع فى اللبس، يفتح الدولاب فى سأم، تنطلق رائحة النفطالين المخزونة مع رائحة العرق القديم فى أنسجة الثياب . يقف حائراً وهو ينقل البصر فى اشمئزاز واضح بين البدلتين، يتجسد الحزن والألم على وجهه إذ يترك هذه ويمسك تلك، ثم يتركها ويمسك بالأخرى. قد يمسك بالبدلة العتيقة يكشف عنها البياضة ناظراً فى قماشتها التى تفتح بالأصالة وتتبعث منها رائحة الصوف كأنها جديدة بلونها الأزرق الداكن المهييب، يحركها يميناً ويساراً كأنه يجرب قياسها على جسده المتضخم فى مرآة الوسط؛ وإذ تبدو بالبدهاة صغيرة على جسده الحالى بكرشه القابب يعيدها إلى مكانها وقد التوت ملامحه كأنه يعانى من مغص حاد؛ يبدو عليه القهر الشديد وهو يسحب إحدى البدلتين بحركة تكاد تنطق بـ : أمرى إلى الله. يلبس القميص المطروح فوق الجاكيت، ثم البنطلون الذى يصعد حزامه إلى ما يقرب من منتصف كرشه، تتجسد المنطقة السفلية بصورة بارزة يشوبها ظل من القبح يمد ذراعيه إلى الخلف لأساعده فى ارتداء الجاكيت، يضبط ربطة العنق التى لا علاقة لها بموديلات الأربطة التى نراها فى صور الجرايد والمجلات؛

لكن منظره ينصلح فى الحال يصير إلى كثير من الإتساق. يعيد النظر إلى نفسه فى المرآة، تأتلق صفائح الدم فى بشرة وجهه الدائرى الكبير ذى الصدغين المكتنزين حيث الخدين مقتنعين كحبتى البطاطس بنفس اللون، يهبط ظلها بحداء أنف طويل أقطس منخاراه باركان فوق حنك واسع مفوه، تحت الخدين غمازتان مربوطتان بأعلى الخدين بخيطين رفيعين ، إذا ضحك يفوصان فى الصدغين . الاشمئزاز على وجهه وعلى شفثيه يقول إنه مستاء من هذه البدلة العجوز المتهالكة الجريانة وثنية الياقة خلف الرقبة مقروحة بشريط من الوسخ المسود كئنه ضمن نسيجها كما أن العروة فوق الصدر تأكلت خيوطها؛ كذلك البنطلون بات وارماً عند الركبتين كما أنه شالح من الخلف قليلاً..هى مع ذلك ليست أسوأ من زميلتها، كلتاهما لاتليق بناظر مدرسة ابتدائية تأكدت ترقيته إلى مفتش فى العام الدراسى القادم.

أرى ذلك وأكابده فى سنى المبكرة تلك، أحزن لحزن عمى وشعوره الواضح بالقهر والاستياء والألم من فرط إحساسه برثاثة ملبسه.. فأعجب كيف وهو عميد هذه العائلة الكبيرة، رب هذه الدار وسيدها وكافى جميع أفرادها بالكسوات الجديدة المحترمة ثم يتأخر كل هذه السنين فى تفصيل بدلة جديدة تليق بشخصه ومركزه وعمادته لعائلته؟! يبدو أنه كان يشعر بما أفكر فيه، يبتسم لى فى المرآة وهو يحاول تعديل رباط العنق قائلاً فى لطف:

«تعرف تربط الكرافطة يابو على؟ لابد أن تتعلم

ربطها!.. أم أنك لست تنوى أن تكون أفندياً معتبراً؟!»

ثم يعطينى إشارة بإطلاق سراحى، أسرع بارتداء ثياب المدرسة ريثما يتناول لقمة سريعة مع كوب الشاى بالحليب.

(٧) سقوط هيئة اللقب

بعد قيام الثورة كثر عدد الأفندية في بلدتنا ، كل من يلبس طربوشاً على جلباب يطلق عليه الناس لقب الأفندى .

ومن يحب إقناع الناس بأنه أفندى عن جدارة واستحقاق فإنه يلبس الجاكيت فوق الجلباب أو فوق المنامة المسماة بالبيجامة .

كان ذلك يغیظ أبى ، يعتبره نوعاً من السرقة يجب أن يعاقب عليها القانون سيما وأن الثورة المباركة ألغت الألقاب ، فإن يجىء هلفوت لا أصل له ولا فصل يشتري من سوق الكانتو جاكيت وطربوشاً ليسرق لقب الأفندى ، فتلك فى نظرة فوضى مابعدھا فوضى ، لكننى كنت ألح وراء غضبه غيرة على العائلة التى نالت اللقب عن جدارة ، أى أن هذه الفوضى تنتقص من حق عمى أبوالسعود أفندى .

إذ تجيء السيرة فى قعدة العائلة بعد صلاة العشاء فى المنذرة يقول عمى جبریل واضعاً المسند تحت مرفقيه هاتفاً فى دهشة :

— «يا أخى الثورة منعت الألقاب فإذا بها تنتشر على ألسنة الناس

كاللبانة! أشد مما لو كانت مباحة!» .

يشوَّح أبى عبدالعال فى نبرة عراق حقيقى كأنه يدافع عن شيء من

ممتلكات العائلة :

- «الناس ماصدقت ! .. الألقاب كانت كأنها محبوسة فى قمقم لا يصل إليه ولا يفك سحره إلا من كان القلب مكتوباً له فى اللوح المحفوظ ! لكنها اليوم زالمت ! .. أصبح العدد فى الليمون كل عشرة أفندية بقرش تعريفة أو يكوز ذرة ! لكن ثلاثة بالله العظيم أنا لا أنطقها أبداً إلا لمن كان أفندياً بالفعل قبل الثورة ! بلاش مسخرة وقلة حيا» .

.. البسمة الرهيفة المراوغة ترعش الشفاه تريد أن تصير ضحكة مسموعة لكن شيئاً من الحياء العائلى المجامل يوقفها عند حدها ، ذلك أن جميع أهل دارنا يفهمون مغزى هذه الغضبية ، يعرفون أن أبى مقروف فى الأصل من صهرنا محمد أفندى عمرو الذى دأب منذ صغره على مطاولة عمى أبوالسعود أفندى يزيد أن يكون رأسه برأسه أفندياً مثله على ألسنة الناس حتى وإن كان بالكذب والتلفيق ، الإكادة - فى نظر أبيه - أنه قد تحقق شيء مما أراد ، قد كان كاتباً للانفجار فى الوسية فى عز مجدها قبل الثورة ، الفضل يعود لجدى حسن الذى علمه القراءة والكتابة والحساب وفشل فى تعليمه القرآن كاملاً ليكون هو النقطة السوداء الوحيدة فى ثوب جدى حسن الأبيض الناصع طوال تاريخه ، وكان جدى حسن يصاب بتوتر نفسى كلما رآه ، وحتى بعد أن بات رجلاً ملء هدمه يلبس الجلباب الصوف والطربوش كان جدى حسن كثيراً ما يرفع العصا ويهم بضربه بها على أم رأسه الدائرى الكبير المنيعج الجوانب مثل قدرة القول المدمس الفخارية السوداء ، ويقى محمد أفندى مرعوباً من فرزعتة تلك لوقت طويل إذ هو على قناعة بأن جدى حسن يمكن أن يفعلها بكل بساطة بل إنه ياما فعلها فى دار القرآن بسبب تخانة مخه وإغلاقه نون القرآن الكريم مع أنه مواظب على الصلاة ! ..

بعد قيام الثورة وانفضاض الوسايا وبطلان المعيات كان محمد أفندي عمرو قد أصبح معروفاً في دائرة الموظفين في محافظة كفر الشيخ ، ذات يوم استقبل مرشح الدائرة في داره ومشى معه يسانده في الدعاية هاتفياً بشعار ألفه فلقى استحساناً كبيراً :

«فوقى يا دايرتنا فوقى وانتخبى ابن البرقوقى» ، فلما نجح النائب مغازى البرقوقى عينه مساعد مساح في مصلحة المساحة ، ومنذ أن ليس الجلباب الصوف ومن فوقه المعطف الجبردين وعلى رأسه الطريوش وامتنى ركوبة خاصة أصبح يستمرى لقب الأفندى حينما ناداه به العامة الجهلاء ممن لم يدركوا بعد أن ثورة قامت في البلاد وطردت الملك والإنجليز ومنعت الألقاب ، ثم شاع اللقب ورخصت قيمته لدرجة أن من كان أفندياً رسمياً بحكم منصبه أصبح لا يستسيغه إذا نودي به مثل عمى أبوالسعود الذى كان يفضل أن ينادى بالأستاذ .

(٨) ذاكرة الجودة

يلوح لى أن العلاقة بين أعمامى وأصهارنا العماروة تعاني من قروح قديمة يبدو أنها كانت فى الأصل جروحاً عابرة تركت للزمان بدون علاج فالتأمت القشرة السطحية وتماسكت لكنها بقيت مشوية ببقع ذات لون داكن هو على الأغلب لون الصديد المختبئ تحتها ، باتت تسبب وجعاً فى القلوب إذا لامسها حديث أو عتاب أو سوء فهم لكلمة أو سلوك من أحد الطرفين .

لعل المذهل بالنسبة لى أن الغضب من أى من الطرفين مايكاد يصل إلى ذروة معلنة على الملأ حتى يؤوب إلى سكون مفاجىء ، كأن ثمة رادعاً مجهولاً يمسك بيده بخاخة خفية ترش على الوجوه ستارة من حياء مخملى ، تنطفىء الشرارة الشريرة فى العيون المهيضة ، تتقطم إيقاعات المفردات القاسية تؤوب إلى استعاذة بالله من الشيطان الرجيم .
قد يدركهم أذان العصر أو المغرب أو العشاء لحظتئذ ، فتلهج الألسنة تلقائياً على الفور بهتاف :

الله أعظم والعزة لله ، فى الحال يتقدم واحد من أعمامى ، فى الغالب يكون عمى زكريا ، يؤم الصلاة ، عند التسليم يمينا ويسارا تمتد الأكف لتصافح بعضها بعضا .

إن هى إلا برهة وجيزة تدخل بعدها جدتى معزوزة - (الخناقات تبدأ دائماً فى الخارج ولا يتم تصفيتها إلا فى دارنا) - أو من ينوب عنها

من بنات الدار ، حيداً لو كانت ممن يتعلمن فى المدارس ، حاملة عدة الشاى ومعداته على صينية نحاسية ، فيشمر عمى موسى ذراعيه ساحباً وابور الجاز البريموس ، يفلق محبسه ثم يعطيه نفساً بالكباس ، ثم يتلقى الصينية فيضعها فوق مسند نائم ، ما أن يشعل الوابور حتى تستنشق الأنوف رائحة الجاز المحترق ممزوجة برائحة الشاى المطبوخ ، من فرط حميميتها يسمونها فى بلدتنا : زردة شاى ..

من عجب أننا لانستمتع بالاستماع إلى حكايات حميمة من تاريخ العائلتين إلا فى مثل هذه اللحظات التى تعقب هبات الغضب ، لكان نوة الغضب تنشط رياحها الهوج بقوة فتتسف ما فوق يؤر الذكريات من ركام وأتربة ويقايا هديم من أبنية العهود والأيام المخوخة ..

أنشط الذاكرات ذاكرة عمى زكريا ، ربما لأنه ولوع بالتاريخ والأنساب وذكر أيام العرب، يكاد يعرف كل شىء عن عائلات بلدتنا وبلاد الناحية كلها، بل العجيب حقاً أنه يعرف ماقد يجهله البعض من أبناء عائلات عن أصهار لهم وأقرباء فى المنطقة الفلانية .

كثيراً مايفاجيء أحد المتحدثين عند اندماجه فى سكة ستقود حتماً إلى الغلط والتبليخ ، يلحقه قبل أن تقع الكارثة ، يقول على سبيل التذكرة اللطيفة:

- «على فكرة يافلان ! فلان الفلانى هذا هو خال فلان الفلانى !.. ابن عمه علان الترتانى !.. أبوه متزوج من بنت فلان !.. إلخ !» .

ذاكرة عمى زكريا ، المولود بعين واحدة سليمة والأخرى مجرد بؤرة مغطاة بجفنين ذابلين ، صاحبة فضل كبير جداً فى وأد معارك فى مهدها لجرد أنه قد نبه الأطراف المتعاركة إلى شخصيات محترمة سوف تصيبها الطرطشة بحكم صلة القرابة أو النسب ، سيما وأن جميع أهالى بلدتنا يقيمون لهذه الصلات اعتبارات كبيرة ذات وزن ثقيل فى موازين الأصول المرعبة .

(٩) فضلات الجوارح

شارع داير الناحية يلف حول البلدة بشكل شبه دائري ، تطل عليه حارات وشوارع فرعية وسرايب وجخانيق ممتدة في أحشاء البلدة ، كلها موصلة إلى المدرسة الإلزامية القديمة في المدخل الجنوبي للبلدة ، مدرسوها كلهم من المشايخ لابسى القفاطين والعمامة أو الجلباب والطربوش أو برأس عارية كما شاع بعد الثورة .

أما المدرسة التي لاتزال توصف بالجديدة رغم قدمها النسبي ، مدرسة محمد فريد الابتدائية بنين وبنات ، فمن دواعي فخرنا وزهونا أنها قريبة من دارنا في الجهة البحرية ، حيث تبدو والحدائق التي لاتزال تسمى بحدائق الخاصة - یعنی الخاصة الخديوية - الممتدة على مشارف الأفق البعيد ، والمحاطة بأسوار عالية جداً مبنية بالطوب اللين بارتفاع قامة رجل عملاق وأسطحها مرشوقة بشطافات من زجاج ومسامير وبتنوعات جارحة وزبما ذابحة لكل من تسول له نفسه القفز إلى الداخل ، كأنها طبقات كثيفة من سحب خضراء داكنة ، وتبدو السماء بالنسبة لها مجرد ملاءة رثة مجمدة مليئة بالبقع الرمادية المغبرة مطروحة فوقها كيفما اتفق .

يفضل هذه الحدائق الشاسعة باتت بلدتنا مضيقة مفتوحة لأسراب لا حصر لها من مختلف أنواع العصافير الطرورية المشجية لأسماعنا ،

والجوارح الكاسرة التي قضت على الفران والديدان الخبيثة ، نظفت الأرض والأشجار وأبراج الحمام من كل زاحف في الشقوق ، كما أنها تقدم خدمات جليلة للأطفال وللفقراء والسابلة حيث تُبعثر ثمار الحقائق على مساحات واسعة خارج السور أثناء هبوطها على الشجر ثم طيرانها ورفرفة أجنحتها القوية .

يستطيع أى مار بحذاء السور من أى جهة أن يملأ حجره بالبلح بالجوافة بالخوخ بالبرتقال باليوسفى مما نبعثته هزات الطيور للأفرع العالية الوارفة ، بل إن هناك دائماً من يفرش على أية ناصية بقفص من الفواكه التي يسميها الناس بـ«السقط» للبيع بأى مقابل تافه .

هذه الحقائق كانت ذات يوم تحت حراسة سليم الفرغانى الشهير بتراتيرو، الذى تزوج عمى أبوالسعود من ابنته ، خالتي تقيدة ، وذلك أيام كان جدى الأكبر الذى يحمل عمى اسمه ناظراً على الوسية كلها ، حتى بعد أن أهديت الحقائق للأميرة بنت محمد على التي تزوجت من أحد النبلاء من نفس العائلة وأصبح ريع الحقائق يحول إلى جيبه ، ظلت الحقائق تحت نظارة جدى ذاك فاستطاع أن يشكم تراتيرو ويحد من سرقاته للمحصل ، ولم يكن كلاهما يدرى أن الفرغانى الكهل سينجب طفلة فى أواخر أيامه تكون زوجاً لحفيد جدى .

أما الآن فقد آلت ملكية الحقائق إلى وزارة الزراعة ، وبعد أن كان مجرد وجود الحقائق فى بلدتنا يصيب أهلها بالقناعة ليقينهم بأن أطيب الفاكهة ستصل إلى بيوتهم لا محالة بثمن بخس من أحد صبيان الفرغانى تراتيرو أو على سبيل الهدية منه إن كان أهل الدار من الناس المهمين ، أصبحت

البلدة اليوم تشتهى الفاكهة وهى بين ظهرانيهم منذورة للجوارح من الطير
ومن بنى الإنسان القابض على ثروة لم يكن يملكها فلما وضع يده عليها
حرمها على من كانوا وراء زرعها وريها وتشذيبها وتلقيحها وإزهارها طوال
عشرات من السنين .. مما جعل الناس يترحمون بصدق على تراتيرو الكبير
على الرغم مما كانوا يرمونه به من شائعات وأوصاف تتال منه ..
لأبى عبدالعال عقل قول ماثور فى صهرنا سليم الفرغانى الشهير
بتراتيرو، يقول :

..... - «اللبن بخيره .. شفته تراتيرو!» لكنه يقوله بلهجة ملفوفة ليمنع الحرج
عن زوج أخيه خالتي تقيدة وهى ابنة سليم تراتيرو شخصياً ، يقوله فى
سياق يشبه المدح ، يعنى أن الرجل شاف خيراً وعزاً كبيراً ، مع أن خالتي
تقيدة صبرها أوسع من جرن العقالوة وكم سمعت عن أبيها ذاك من أقوال
يشيب من هولها الطفل حتى بات أبوها فى نظرها أسطورة عامة يحق لكل
إنسان أن يخترع عنها مايشاء ، إنها كثيراً بل كثيراً جداً ماتتخرط فى
ضحك عميق من نكتة رسمت لأبيها صورة هزلية ، إنها تكاد تكون مفصولة
عنه عاطفياً لأنها فى الواقع لم تره ، لقد خان مستقبلها ، ضربها مقلباً طلع
من نافوخها إذ إنه مات بعد ولادتها بسنتين اثنتين يعنى أنها ليست تذكر
ملامحه على الإطلاق ويقول لها من شافوها إن أخاها فرج سليم تراتيرو
الذى يكبرها بثلاثة أعوام هو الآن صورة طبق الأصل منه فى كل شىء من
الطول إلى النحافة إلى الماضى إلى الاندفاع فى الغلط باستثناء شىء واحد
لم يكن فى أبيه ذاك هو مرض السل الذى ياكل فى صدر فرج منذ سنوات
طويلة حتى أحاله إلى زعزوعة قصب ..

جدتى معزوزة شرحت لى ذات يوم معنى كلمة أبى التى أصبح الناس
يستعيرونها للتعبير عن مواقف متعددة ينطبق عليها نفس التعبير :

اللبن بخيره شفته تراتيرو ، الواقع أننى كنت أريد أن أفهم معنى كلمة تراتيرو هذه .

قالت جدتى معزوزة إن سليم الفرغانى من شدة فراغة عينيه وطمعه كان إذا اشترى قمحاً أو شعيراً أو تمرأ طلب من الكيال أن يملأ القدح إلى طرايطيره ، يعنى يملؤه حتى يعلو الملاء يصير كالظطور ، ويتصيح فى البائعين فى الأسواق إنه لا يأخذ الكيل إلا مطرطراً ، حتى إن طلب كوب ماء قال لامراته : إمليه لحد طرايطيره .

ثم إن حرف الطاء تخفف على ألسنة الناس إلى التاء فأصبح اللفظ تراتيرو ..

تخشى جدتى معزوزة أن تستاء زوجة أبنا خالتى تقيدة مما قالتة عن أيبها تراتيرو ، فتستدرك قائلة إن ثلاث عائلات قد أصبحت عائلة واحدة ، فسليم تراتيرو كان خولى جنانين الأمير ، وجدى كان ناظرها ، وعمرو وعمرو كان شيخ خفراء الوسية ، ثم تضيف بعد هنيهة :

- «يشاء السميع العليم أن يمد حبل الوصال ! فابن الناظر ! .. جدكم حسن يعنى .. تزوجنى ! .. وعمرو عمرو تزوج من أختى الحاجة زهرة ! .. وتزوج أخوه أمين من الحاجة ست عمرة ! .. لكنه مات وهى فى عز شبابها مع أنها خلفت منه ولدين هما الآن فى الإسكندرية ! .. من حسن حظنا .. طمع سليم تراتيرو فى جمال ست عمرة فكتب عليها على سنة الله ورسوله ليخلف منها فرج والسنيرة تقيدة ! ويشاء السميع العليم أن تكون السنيرة تقيدة من نصيب عمكم أبوالسعود ! .. الطيبات للطيبين» .

عندئذ ترمقها خالتى تقيدة وقد انبسطت ملامحها على بساط من الحب المتألق فى عينها ، تستطرد جدتى معزوزة :

- «ريكم هو المدير ! .. يشاء السميع العليم أن أختي الحاجة زهرة تخلف من زوجها عمرو عمرو زربة عيال ! خد عندك : عبدالرحمن وكان مزيناً ! عرفات الأعمى وحاله مايل كما تعرفون ! وسنة التي كانت من نصيب ولدى عبدالعال ! البكري ! كانت وش السعد عليه وعلينا ! وخلفت توحيدة التي سترها الله وتزوجت في بلدة العجوزين !» .

تعرف أمي «سنة» أن ذاكرة حماتها كثيراً ما تقوت وتخلط الأزمنة ببعضها وتتسى أشياء مهمة ، لكنها من فرط حبتها لخالتها تصرُّ على أن تداعبها :

- «إنما أنت يا أمي نسيت محمد أفندي عمرو ! .. ألم تخلفه ست عمره من ابن عمها أمين ؟» .

- «يوه ! قطع ولا كان ! النبي أشرف خليفة الله إنه يستاهل أن الواحد ينساه !» .

أمي تعرف أن حماتها خالتها تعمدت النسيان في هذا الأمر بالذات ، تعرف أن حماتها تكره كره العمى كل من يتناول على ابنها أبو السعود ويعمل رأسه برأسه ، ولأنها لاتملك الغاءه من الوجود فإنها تشطبه من ذاكرتها كأن لم يكن . هاهي ذى توجه لأمي نظرة لوم حنونة مع ذلك :

- «لماذا لم تتذكرى شيئاً عدلاً؟! أعوذ بالله من .. من .. قومي يابت غوري من وشي !» .

تغور من وشها بالفعل وهي تضحك بصوت مجلجل .

(١٠) الحاجة زهرة خالة العقالوة

منذ أن تزوجت خالتي توحيدة ، ومات خالي عبدالرحمن عمرو الذى كان أشهر حلاق فى بلدتنا ، والحاجة زهرة - خالة العقالوة - تَقْتَعِدُ رصيف الدُّكان ليل نهار ، لا يشقر عليها بين ساعة وأخرى إلا أحد عيال ابنها عرفات الذى اقتطع جزءاً من هذه الدار من خلف الدكان وعمله داراً خاصة به يفتح بابها على السرداب المجاور ، لكن الحاجة ست عمره صاحبة الدار الملاصقة لدارها ، وباب دارها ملاصق لباب دكان ابنها المرحوم عبدالرحمن، تقضى معظم وقتها مقعياً فى فتحة باب دارها مريحة كوعها على رصيف الدكان ، فهى الرفيقة الدائمة لسلفتها وقد باتا معاً فى مرحلة حرجة من العمر وإن كانت ست عمره أقوى بدنياً وصوتياً وأصغر سناً بقليل ..

الحاجة زهرة ضخمة الجسد ، تشبه فى جلستها فرن الخبيز ، عريضة ، مدكوكة ، سوداء قاحمة .

دماغها الملفوف بالشناش الأسود يبدو كأنه برام أو طاجن أسود مقلوب فوق سطح الفرن الطينى ، إذ هى دائماً منكسة الرأس فى حجرها ، لا أحد ممن يراها يعرف إن كانت مستيقظة أم هى مستغرقة فى سبات عميق وربما أزلى ؟ إنها على هذا الوضع منذ سنوات طويلة ، لدرجة أن

هناك من يقول الواحد منهم إنه طلع على وش الدنيا فرأها على هذا النحو متربعة على رصيف هذا الدكان الذى يحتل أهم وأخطر موقع فى شارع داير الناحية ، دائماً أبدأً هناك قفص كبير أمامها مطروح فوقه لوح خشبى من الألواح المعدة أصلاً لتقريص العجين ، ترتص فوقه أشكال فاكهة من الحلوى كالموز ونبوت الغفير والعسلية وبراغيت السّت واللبان والمصاصات ، ويجوارها مشنة تمتلىء بأى نوع من فاكهة حقيقية من سقط المواسم ..

يظنها الناس نائمة أو ميتة فى حين هى تحملق فى الرائح وفى الغادى من تحت جفونها المسدلة .

لقد طمس الزمان ملامحها ، وجه صحراوى صرف ، داكن اللون كجبال الحجاز تشى بوعورة من نوع ما .

إذا ضحكت ظننتها تبكى ، يصيبك الرعب لأول وهلة ربما لأنك كنت على يقين من أنه وجه صخرى صلد لا يلين فإذا بك تراه قد دبث فيه الحياة فجأة وصار عجينة مليئة بالتكورات والتضاريس وصارت العينان المسبلتان على الدوام فتقن يرشحان بالدمع الغزير فوق شفثيها الغليظتين اللتين بدتا كجلباب ضيق جداً على أسنانها الكبيرة ، سرعان ماتتير الرغبة فى الضحك.

بالنسبة لى كنت حين أتذكرها فى الليل وحدى ينتفض جسدى من عنف الضحك المكتوم لأن شكلها عندئذ كان يتطابق تماماً مع شكل عمى زكريا حين يضحك أو ينفعل ، ومع شكل أبى حين يظهر اشمئزازه من أى شىء .

(١١) نظرية الثور : من أمجاد العائلة

الوداعة المستقرة علي وجه عمى موسى تعكس شقاوة وربما شيطنة إلي حد الجنون المؤجل أو المقموع لكنه مع ذلك لا يؤجل فرضاً من فروض الصلاة عن وجوبه دقيقة واحدة ، مغرم بالجماعية في كل صلاة لا يتأخر عنها مهما حالت دونها ظروف قهرية ، كما أنه - وهو أصغر أعمامى وعماتى - أوسع أفقاً من أبى وعمى زكريا وعمى جبريل..

عمى موسى هو المسئول عن الماشية مع ذلك ، الزربية هي عالمه . تقطنى العائلة ما تقتنيه إلا أنه بارع في تجديد شباب الزربية باستمرار، إذ ماتكاد البقرة أو الجاموسة تشيخ قليلاً حتى يكون قد ربي من عيالها غيرها، فنان هو في شغل البرادع وترميمها وندشنتها بمنسوجات وكور من الحرير . أهم مقتنيات الزربية في نظره هو الثور ، فحل معلوف بعناية ، قوي كالقيل نو مهابة إذا مشى في شوارع البلدة يسحبه عمى موسى بمقوده المتين يُخِيلُ إلى من يراه كأنما الزعماء والأبطال المغاوير يقلدونه في هذه المشية الواثقة الراسخة الهازئة بكل ما على الأرض من مخلوقات ضعيفة، إنها مشية فاتنة تجعل الإنسان ينبذ الضعف ويحتقره ويقرر طرده من جوفه قدر ما يستطيع .

يقوم عمى موسى بتأجير الثور، أو بمعنى أدق تأجير إحليل الثور
لتعشير البهائم مقابل عشرة قروش فى المرة الواحدة ، مبلغ باهظ أى نعم ،
إلا أن عمى موسى ليس يبالي بوقعه على وجه من يسمعه منه، بل يستدرك
فى التو ليكمل نفس العبارة بقوله إن الثور محجوز طوال الأسبوع القادم
والذى يليه، إنه واثق من أن المستأجر سوف يرجوه ويلاطفه لكى يبيديه على
غيره و..

«خذ ما تطلبه يا أبا هارون ! ليس كثيراً على ثوركم !» .

وهذا صحيح، فثورنا مضروب به المثل على الصحة البدنية والحيوية
وبما يسميه عمى موسى بنشاط النطفة .. قيل وما نشاط النطفة هذا يا
موسى ؟ يقول بفصاحة اشتهر بها العقالوة مع ميل إلى استخدام العبارات
القرآنية فى كلامهم بوجه عام :

- «ليست كل نطفة بقادرة على أن يصير منها ولد .. النطفة الخاملة قد
تندلق من صاحبها قبل وصولها الى الرحم فتضيع هدرا.. وقد تصل بعد أن
تكون قد ماتت أثناء سفرها من أصلاب صاحبها الى المخدع الآمن بفعل
التعب !.. أما النطفة النشطة فإنها بصحة جيدة تحتل السفر والانتقال !
ولأنها تعرف طريقها جيداً تظل تخبزن نفسها على نار الشهوة الهادئة إلى أن
ينفتح لها باب القبو فتدخل راكبة مصونة لترمى بنفسها فى الحضن الدافئ
تصير فى الحال كائناً حياً!» ..

ما يؤيد نظرية عمى موسى عن النطفة النشطة أن ثورنا يمتاز
بخصيصة قلما يتمتع بها ثور فى نواحيها ، تلك هى دقة النشان. هى نطفة
واحدة لا نزول عنها إلا بعد تمام المهمة وفى لمح البصر، على عكس ثيران
أخرى تفرهد أصحابها وأصحاب الأنثى ما بين جري وراءه ودفع لمؤخرته فى
صخب واضطراب ينتهى بأن تسقط نطفة الثور على نفسه فيستحيل قيامه

مرة ثانية فى نفس اليوم. وقد يتكرر نفس المشهد عدة أيام فتكون المهمة غاية فى الصعوبة ..

الفضل يرجع لعمى موسى فى تدريبه للثور، يقول إن السر فى نجاح ثوره وحسن سمعته فى الأداء ينحصر فى أن الثور قد بات صديقاً له ، يفهم كل منهما الآخر بالإشارة ، ربما بالنظرة . إن عمى موسى، الذى ولدته جدتى معزوزة فى قلب الزريبة تحت أقدام الجاموسة أثناء حلبها إذ جاءها المخاض وطش الطلق فى التوالحظة، قد أمضى صباح وشبابه فى هذه الزريبة من فرط عشقه للماشية والأنعام التى من الله بها علينا فى قرآنه الكريم كمصدر للخير من ألبان ولحوم وجلود وصوف، بات يجيد لغة التعامل مع الماشية إجادة تامة بل هو دائم التأكيد لنا فى كل مناسبة على أن تفاهمه مع الماشية أفضل من تفاهمه مع البشر، يعرف ماذا تريد بكل دقة فى هذه اللحظة أو تلك فيقدمه لها ..

ما أجمل منظره أصيل كل يوم إذ هو يسحب البهائم كلها فى صف أو صفين تمشي فى تودة كأنها وفود إلى مهمة تمشى فى تودة كأنها من عليه القوم فى طريقها إلى مهمة جليلة. هو يرتدى جلبابه التنظيف ذى اللون الزهري الرائق ، من تحته الصديرى القطنى اللميع ذى الخطوط الطويية السوداء على أرضية فى لون الكهرمان ، من تحته الفانلة ذات الكم الطويل بأسورتين حابكتين . أصابع يمينه المسكة بالمقود المتصل بها جميعاً مزدانه بخاتم فضى كبير بفص بيضاوى الشكل من فيروز نقى، وفى يسراه دبلة الزواج وهى كذلك من الفضة. وفيها المسبحة التلت الآتية له من الحجاز هدية من الحاج عبدالحسيب الشريتلى الفرارجى زوج عمتى خديجة ، عبارة عن ثلاث وثلاثين حبة من الكهرمان الأصلى، فى قدميه الشبشب العمولة صنعة الأسطى خليل عبدالصمد أشبه بنصف حذاء من الجلد ..

هو الآن فى طريقه إلى المسقى، أو ترعة خلاف القريبة من دارنا. ما أن يصل إلى المسقى حتى يفك المقود، وفى الحال تنكب البهائم على الماء باشتياق حار، تندفع نازلة، بكامل هيئتها إلى قلب الترعة، تستكن تحت غمر الماء فى انتشاء. عمى موسى يخلع الجلباب والصديرى والفائلة والسروال حيث يوجد تحته لباس يسميه أبناء البنادر بالمايوه اشتراه له ابن عم إلى طالب بحقوق الإسكندرية خصيصاً لهذا الغرض يلقى بنفسه الى الماء ممسكاً بالفرشاة الخشنة وبروة من صابونه غسيل المواعين، يغسل أجساد بهائمهم برغوة الصابون والفرشاة فى حنو واعتناء كأنهم أبناؤه الأعتزاء عليه، لا يترك البهيمة إلا وقد لمع جلدها فازداد الأشقر شقرة واستضاء الرمادى بانعكاس شمس الأصيل فى العمق السحيق للماء. بهائمهم مؤدبة مثله، ذات كبرياء مثله لعله هو الذى نماه فيها حتى أصبحت تكاد تتفوق عليه فى السلوك الحضارى، ولربما زمقه الثور بنظرة عتاب إذا شتمه بغير مبرر، وقد يحرن الحمار ويزور بعيداً منكساً رأسه فى زعل واضح لأنه زغده فى جنبه بقسوة، لكنه إذا قال للثور قف هاهنا ينفذ الثور أمره فى الحال، وإن قال للحمار تعال هنا يجيء على الفور. تقف البهائم دون مقود فى انتظاره حتى يجفف جسمه بلفح الهواء، ثم يلبس الفائلة، ثم الصديرى فوقها، ثم الجلباب، ومن فتحتى الجلباب يمد يديه يخلع ذلك المسمى بالمايوه، يتركه ينزل إلى قدميه فيخلصه ثم يرتدى السروال دون أن يكشف عورته حتى للبهائم ..

فى كثير من العصريات الرائقة يطيب له أن يختلى بالبهائم ليراقبها ويتأملها كيف تأكل كيف تتعامل مع بعضها البعض كيف تنام وكيف تصحو .. أصبح لديه تفسير بكل ما تأتبه أو تؤتبه من حركات وإيماءات باعتبارها جمل حواريه - ناهيك عن أصوات النعير والنهيق

والصهيل والمأمة .. يتعين عليه الرد عليها بفعل يفعله لصالحها ، يستخلص من كل ذلك العبرة والحكمة والموعظة من بديع صنعة الله المتجلية في كائناته التي تجل عن الوصف ..

يا يوم التعشير . يالك من يوم منتظر ليس يفقد إثارته على طول الزمان ، لا يستطيع أى مخلوق ، مهما كان محترماً وقوراً أن يفوت عليه دون أن يتوقف أو على الأقل يتلأأ حتى يراه بالتفصيل . إنه لمهرجان من أعراس الطبيعة يطرب له جميع البشر فى بلدتنا من صغيرهم لكبيرهم ... ولسوف يتفرجون عليه بنفس الشغف والحميمية حتى وإن تكرر مئات المرات فى كل دقيقة فما بالك إذا كان نادر الحدوث مرتبطاً بمواسم الخصوبة عند الحيوان ؟ ..

صباحئذ تجيء البقرة المراد تعشيرها فى وفد من أهلها ، يقفون بها فى وسط الجرن على مسافة تبعد قليلاً عن دارنا لأن الثور يجب أن يعطى مساحة واسعة يتحرك فيها على راحته .

من ممر جانبي تابع لدارنا لا يحق للجيران فتح أبواب أو نوافذ عليه ، وعليه تفتح زربيتنا ، يخرج الثور من هذا الممر الطولى ماشياً يتبختر وراء مقود عمى موسى . من يراه يدرك فى الحال من سمت التأهب والحيوية والغندرة أنه زاهب إلى مهمة رسمية جليلة القدر، تلك حالة يستكشفها الأطفال بالغريزة فيمشون وراء الثور وهم يجزون على أنيابهم لكتم الضحكات الجزلة النشوانة مقدماً بما سوف يحدث بعد قليل ، حتى الرجال لولا الحياء لغيروا اتجاه طرقاتهم والعودة وراء الثور بأى عذر مصطنع ، كل ذلك وعمى موسى غير عابىء بأحد ، مركزاً كل انتباهه على تدليل الثور وتديلك أعصابه وتربيع نفسيته بكل وسيلة ممكنة ، مانعاً ، بقوة وحسم ، كل الأطفال من الاقتراب الحثيث أو الإتيان بأية حركة تتوتر منها أعصاب الثور ..

أهل طالبة العشار يحيطون بها من الجنين ومن أمام ومن خلف في وضع استعداد لإحكام السيطرة عليها إلى أن ينهى الثور مهمته بنجاح وبدون فريدة .. مؤخرة البقرة هي البارزة بكل وضوح كالرفأ الدافئ.. وإذا بدأت تشم رائحة الثور من على بعد دبت الرعشة في كفلها ، انفرج ساقها وانعقص ذيلها، صار الصعود إلى القبة المأهولة مفتوحاً يطلب الحلال ..

بخبرة عمى موسى يبطيء في الحركة عن عمد حتى يتيح لخياشيمه أن تمتلئ حتى النخاع برائحة الأنثى ولعينيه أن تتمكن من نقطة الاقتحام والتسديد . يا ربى ما أن يظهر شيخ الثور زاحفاً من بعيد في اتجاه الميناء الراقع قوس النصر ترحيباً وتفاؤلاً بنجاح المهمة حتى يشمل الكون كله سكون مترقب مترع بالحميمية الإنسانية أشد إثارة للشغف من ذلك السكون الذى يسبق العاصفة ..

لكن الكون كله واقف على قدم وساق، حابساً الأنفاس فى انتظار قيام هذا الفعل الإلهى العبقري، ذلك الذى يبدو فى كل مرة كأنه اكتشاف جديد .. النسوة فوق الأسطح يعمنها حلوانة فى سلوانة بذريعة النداء على عيالهن.. الصبايا يختلسن النظرات إلى شيء حرم عليهن الكلام فيه أو النظر إليه أو ممارسته إلا يعقود ومواثيق وفى جنح الظلام ، ها هن يخترقن حجب الخجل فى جفول مصطنع .. الصبيان يلهثون وقد يتحسسون أعضاءهم الجنسية فى تلقائية.. الرجال المسكون بالبقرة فى حال من الترقب والخفقان يقرأون عدية يس والفاحة وريما بعض التعزيمات والتعاويذ .. بضعة الأمتار المتبقية يكاد عضو الثور - الذى امتد نافراً كتنصل السكين أو كالسيف - أن يطاولها .. هب .. هى نطة واحدة.. يندك بها النصل فى غمده دفعة واحدة، وأيدى بعض الرجال تدفع مؤخرة الثور برفق حتى يفرغ آخر قطرة من نطقته الثمنية، حتى إذا ما هبط الثور منتشياً مدّ الرجال

أيديهم إلى فرج البقرة وأزاحوا بداخله ما تتأثر حول الشفرين من مني الثور، إذ إنهم يعتقدون أن البركة كلها ربما تكون في هذه النقاط المهذرة ، وأن إدراكها عن المهدر فآل حسن ..

لست أهزل على الإطلاق بل أقرر حقيقة إذ أؤكد لها هنا على أن ثورنا ذاك ، كان مما يضاف إلي العائلة من أمجاد، لدرجة أن صيته لف البلاد ، سمعته الطيبة طوت المسافات والآفاق طائرة إلى وسايا فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح باشا حسن وحافظ باشا حسن وباشوات آل عاشور ، وكلهم بعثوا إلى عمى أبوالسعود مراسيل تطلب عاجلاً من سلالته لتحسين سلالة أبقارهم ، فأحالهم على عمى موسى، فتبغدد عليهم إلى أن وافقوا على الإتيان بأبقارهم لحد عنده بأي شكل كان.

(١٢) مفاتيح العم جبريل

أسعد الناس قاطبة بفحولة ثورنا وعلو صيته كان عمى جبريل لكأنه منح حقاً إلهياً فى الاستهزاء بكل غبى أو متخاذل أو عريس مربوط أو سىء السمعة جنسياً، إذا جاءت سيرة واحد من هؤلاء أمامه سارع بالسخرية منه، لا يتورع عن السخرية من الشخص المدموغ بهذه الشائعة أو تلك، فى وجهه، فى حضوره أمام الجميع ولكن بخفة ظل ولباقة يضحك الجميع منها بمرح كبير، مع أنه لم يقل شيئاً أكثر من أنه أتى بسيرة ثورنا على أى نحو من الأنحاء فيفهم الحضور أنه بذكره لرمز الفحولة يندد بمن أصبحوا رمزاً للفسولة، حتى إذا ما شاع المرح لكز المسخور منه فى كتفه بعشم وأخوة هاتفاً :

.. «يا أخى الناس لبعضها ! تعال خذك فترة تدريب فى زريبتنا على

يد الثور !» .

ذلك أن عمى جبريل مهزاز كبير جداً برغم ما يرتسم على وجهه وهيأته من سمات الجدية المفرطة، بل قد يظن من يراه أول مرة أنه كئيب مزمن فى الكآبة، قد يظل على هذا الظن وقتاً طويلاً حتى وإن رآه كل يوم . إن عمى جبريل قليل الكلام إلى حد الندرة، اللهم إلا لحظات قليلة يروق فيها مزاجه

ساعة العصارى بعد ما تكون حبة جوزة بوزة الطيب التى سف طحينها منذ ساعتين وراح يوالها بالشاى والسجائر قد اشتغلت ، يهيب بأحد الولدان بأن يكنس أمام المخزن ويرش جردلين من الماء يخدم بها التراب والعفرار، يفرش الحصير على المصطبة الخارجية المحاذية للباب ، يتكىء على المسند ، يروح يقلى جريدة الاهرام فإن لم يجد بها ما يستحق التغليفية رماها على طول ذراعه متهماً عمى أبو السعود بأنه التهم ماكان فيها من أخبار مهمة تغيب المفارقة الضاحكة عن فطنة البعض لكنها تصوير واقعاً مثيراً لدهشة الجميع حينما يتصادف مجيء عمى أبو السعود ليجلس معهم قليلاً من الوقت علي سبيل المجاملة والمضايقة، فيذكر أن شيئاً خطيراً قد وقع اليوم فى فلسطين أو كويا أو جنوب أفريقيا أو الهند ، ويحكى الواقعة بالتفصيل فإذا هى بالفعل شيء بالغ الخطورة عندئذ يصيح عمى جبريل كاتماً غيظة من فرط شعوره بالغفلة :

«الله إنت جيت الخبر ده منين يا أبو السعود أفندى؟» .

«من الجرنال!» ..

«عجائب! .. أنا فليت الجرنال كلمة كلمة!» ..

«يخيل إليك!» ..

«جرنان اليوم؟» ..

«جرنان اليوم : هاته وأنا أريك إياه!» ..

ولكن ما أصعب استرداد الجرنال ، بمجرد أن يرميه عمى جبريل ، وهو الوحيد المعنى بتصفحه بعد عمى أبو السعود ، يكون الجرنال قد سرح، تخاطفته عشرات الأيدي لتعييره بعضها بعضاً، ويبقى عمى جبريل علي غيظه حتى عصر اليوم التالى ، ويبدو أنه بالفعل .. كما يقول عمى أبو السعود -

غير ملم بخريطة توزيع الاخبار علي الصفحات ، إنه يقرأ وحسب ، تشده المانشات الكبيرة فالصغيرة فالأصغر سرعان ما تنتهي من الصفحة ليقلبها، أما عمى أبو السعود فإنه بعد التصفح العام يتوقف بهدوء وروية عند المحليات والشئون العربية والشئون الدولية وصفحة الوفيات قبل أن يفرغ لقراءة العوايد ومقالات الرأي التي يعرف أماكنها من الصفحات ومواعيدها من أيام الاسبوع ..

قبل أن يهلل الصحاب على مصطبة عمى جبريل المطللة على قناة تنطلق منها شجرة صفصاف وارفة واصله إلى المصطبة ، فيما بين صلاة العصر وأذان المغرب ، ينتهز الفرصة ليقراً في كتابه الأثير لديه على النوم : «السيرة الهلالية» . وإذ يتوافد الصحاب عليه واحداً بعد الآخر عقب خروجهم من صلاة العصر الذي صلاه فوق المصطبة وحده يكون في عز اندماجه في القراءة لا يترك الكتاب إلا أن ينتهي الفصل كله ..

مخزن الحبوب .. جزء من الدار من الجهة البحرية الموصولة بجرن واسع متصل بشارع داير الناحية . المخزن عبارة عن حجرتين متصلتين ببياب داخلي موارب دائماً لأنه مفتوح على حوش-الدار من داخل الداخل ، الحجرة الداخلية هي الخزنة أما الحجرة الخارجية فإنها دكان البيع والشراء والمصطبة لصق فتحة الباب من الناحيتين ، مساحته متران عرضاً في ثلاثة أمتار طولاً . في هذا الدكان تتجمع المحاصيل عند الحصاد حتى يتم تشوينها في أمتار أو مطامر داخلية، لا يتبقى فيه إلا بضع كيلات من هذا المحصول أو ذاك في كومات ركنية، بجوارها الكيلة المصنوعة من خشب ميطن بالزنك وخشبها مطعم برعوس معدنية تتيج لمن يمسك بالكيلة ليعبىء أو يهز أو يدلق أن يحكم السيطرة عليها فلا تنزفلط من بين يديه .. بجوارها

بعض أقداح للعيار من نصف كيله فأقل . وفى ركن قضى ترتكن سببية
الميزان القبانى لوزن الأكياس الملائة بأحمال ثقيلة توزن بالقناطير ..
لا تنشط الحركة ها هنا إلا يوم سوق البلد حيث ما يكاد الدكان يمتلىء
إلا ويفرغ ليمتلىء من جديد ، محفظة عمى جبريل الكبيرة تخرج من جيبيه
وتعود إليه عشرات المرات كل دقيقتين ، إذ يفردا ويدب ساعده فى جوفها
يهزها لتمتلىء كفه بالقروش وأنصاف الفرنكات والشلنات والبرايز الفضية ،
أو يعبث بفلوس ورقية مطوية فى الجيوب الصغيرة المقفولة بالأسنة مطوية
فوقها بكبسولتين تطرقتان بشدة طرؤية عند الاغلاق وعند الفتح، ويبدو عمى
جبريل حينئذ شاحب اللون ، إلى لون الباكستانيين أقرب، حتى تجاعيد
وجهه المخدده بما يربو على خمسة وأربعين عاماً من عمره تخدع من يراه
فيظنه على مشارف السبعين ، ذلك من أثر إدمانه لمكيفات سرية تقوى
الباه وتعطل المزاج ، سيما وأنه كائن جنسى، يستحم صباح كل يوم فى
صقيع شهر طويه ، أنفه الطويل السرح يغلظ قليلاً عند المنخرين فتبدوان
كأنهما ثقلتا على حنكه الواسع الشهوانى المفوه بشفتين مكتنزتين دائمتى
الممصصة والمزمزة عمال على يपाल ، تضىفى على الحنك تعبير الأشمئزاز
أو القرف أو عدم الرغبة فى أى انشراح ، مع أنه يكون لحظتئذ على وجه
التحديد فى قمة الانشراح ولكن مع نفسه ، لكن الانشراح ينط من عينيه إذا
ما دخلت عليه امرأة مربية تببع أو تشتري ، يأخذ ويعطى معها فى الكلام
فصلاً ومراوغة ومناهدة .. كل ذلك فى حدود الاحترام الشديد، إنما
مجرد جريان هذا المشهد الأثير يثقب مزاج عمى جبريل فيفيض منه
الانشراح على كل شىء حوله ، يصير بهجة معلنة بقدم كل رفيق جديد
حتى وإن لم يكن من ورائه منفعه ، فما بالك إذا كان الرفقاء رجالاً نوى

حميمية خاصة يجالسونه على هذه المصطبة الخارجية الممتدة بطول الدكان على جانبي الباب..؟ آخر نكته تتوالد ، تصير مائة نكته .. شائعات النميمة المثيرة للخيال عن علاقة جمال عبدالناصر بصديق عمره عبدالحكيم عامر وعلاقة عبدالحكيم بالممثلة الفاتنة زوجته الثانية على أم العيال ، أه ثم أه على برلنتي ، هكذا يزأر عمى جبريل كحيوان جنسي مفترس عضه الإحباط في مآلم ، يلتمس الراحة في زفرة حارة يصيح في إثرها ..

«إنشالله تطفحها !»

لا بأس من أن يضيف على وجعه الشخصي صيغة سياسية، يستدرك معلقاً في جدية مفاجئة ..

«بالله عليكم كيف يتزوج قائد الجيش من ممثلة فاتنة كهذه؟! والبلد مسئوليتها في رقبته ! .. هل يسهر على حراسة البلد أم على طلوع جبل الشوق الشاهق الارتفاع؟! ..»

من أطرف نوادر عمى جبريل نادرة ليس يعرفها أحد على الإطلاق سواي، حتى هو نفسه لم يعرف مطلقاً أنني كشفته بمحض الصدفة. يومها أذهلتني المفاجأة ، روعتني . ظللت مضطرباً لوقت طويل شاعراً بأنني قد حملت على صدري واحداً من أخطر وأدق أسرار عمى جبريل. كنت أشك في قدرتي علي الاحتفاظ به لكن الله ألهمني النسيان فأغلق فمي نهائياً عن ذكره وإلا كان عمى جبريل قد تعرض للهزء والزراية من كل من أبي وعمى أبو السعود وعمى زكريا بوجه خاص ..

الحكاية أن عمى جبريل كما نعرف مغرم بقراءة السير الشعبية وبخاصة تغريبة بني هلال . وقد اعتاد صحابه أن يحترموا اندماجه في القراءة وهم جلوس معه، واعتاد هو أن يفقد الاحساس بوجودهم لوقت طويل أحياناً،

ويما أنه يحفظ هذه السيرة بالذات عن ظهر قلب فإنه لحظة أن ينتبه إلى وجودهم ويليق به الحرج ، يطوي الكتاب فوق أصابعه مؤقتاً حتى لا تتوه الصفحة ثم وكأنه يلتمس العذر منهم على انشغاله إلى هذا الحد، يروح يردد تمهيداً لعودته الى القراءة :

«يخرب نبيك يا زنتاي يا ابن خليفه والله لو كنت من أبو زيد ما كنت صبرت عليك ! كنت قطعك حتت ورميتك للكلاب ! » ..

ثم ينصرف الى القراءة مكتفياً بما أذاعه من بيان اعتر فيه عن عدم قدرته على الخروج من هذه الموقعة الدرامية الصعبة. لكنه يكون واثقاً أنهم لن يلبثوا حتى يهملوه فيما هو فيه ثم يشتبكون في منازعات كلامية حول أخبار الناس والزمان والحياة ..

هذا الاندماج العميق إلى حد النوبان فيما يقرأ هو الذي أثار فضولي وشغفي ، حفزني على محاولة اكتشاف القراءة علي هذا النحو المثير . لفت نظري أن عمى جبريل حينما يضطر إلى قطع القراءة لسبب قهري فإنه يطوي الصفحة من طرفها ويدس الكتاب تحت المسند الذي يريح فخذه عليه، قد يتركه ليندخل المخزن لبيع أو شراء، أو يدخل تقفيصة الكنيف يفك حصرة البول ويتوضأ بالمرة ، في لحظة من هذه اللحظات انتهزت الفرصة، جلست مكانه علي المصطبة، سحبت الكتاب، قرأت عنوانه على الغلاف : (تغريبة بني هلال) ، رفعت الغلاف ، غلاف، داخل على نفس العنوان ، تصفحت بشكل عشوائي، إذا بعيني تقعان على ألفاظ أرعشت ببني بعنف وراح قلبي يدق كالطبل البلدي : ألفاظ تسمى الأعضاء التناسلية بأسمائها الصريحة ثم تتحدث عن .. عن .. يا للعهر الفظيع ، رحت أقلب بشكل محموم وقد اعتراني الشك في أن تكون هذه تغريبة بني هلال ، بعد الغلاف الداخلي بحوالي ملزمة فوجئت بالعنوان الأصلي للكتاب :

رجوع الشيخ إلى صباه .. طويت الكتاب بسرعة ، دسسته تحت
المسند كما كان ، ابتعدت نهائياً عن المكان ، لكننى لم أبتعد قط عن عمى
جبريل ، قام فى نفسى جاسوس فضولى عنيد ، لكننى اكتشفت عالماً سرياً
ممنوعاً علي الصغار مباحاً للكبار الذين يمنعونه عنهم بكل قوة ..
ما يدهشنى أن شخصية عمى جبريل لم تتشوه فى نظرى وإن اهتزت
قليلاً لبعض الوقت. الأدهش من ذلك أننى ازددت قريباً منه، صرت أشعر
كما لو كنا صديقين حميمين ، الواقع أن شيئاً كهذا قد حدث طوال
فترتي الصبا والشباب، كان عمى جبريل هو العم الوحيد الذى امتلك
مفاتيحه السحريه، أبوح له بكل ما يعتورنى من مشاعر وأحزان، أوسطه فى
حل جميع مشاكلى ، أقترض منه ما يستحيل علي رده .. لقد أحببته جداً
لاتساقه مع نفسه، سيما وأنه كان يشذ عن جميع أعمامى وعماتى فى
علاقتهم بأولاد خالتهم الحاجة زهرة وابن سلفتها ست عمره. محمد أفندى
عمرو، حيث كان يعامل الجميع علي الدوام بقدر كبير من الصفاء والأريحية
وكبر الدماغ ..

(١٣) زعابيب ست عمره

قرب أذان العصر يتحول رصيف دكان الحاجة زهرة إلى شبه مؤتمر نسائي بتعبير عمى أبو السعود الذي اعتاد أن يمر من أمام الدكان عدة مرات كل يوم في طريقه إلى المسجد، كما اعتاد أن يسرع في خطوه بمجرد اقترابه منه، معوماً بصره في فضاء الشارع، يتجنب النظر إليهن لفرط شعوره بالحرج.

زعيمتا هذا المؤتمر النسائي اليومي هما خالته الحاجة زهرة، وحماته ست عمره. المنظر ليس يعجبه على الإطلاق؛ إنهن طائفة من نساء عجوزات جريئات سليطات اللسان يتحدثن بصوت عال، ويغوغائية تشبه الردح والعراك بأخشن الألفاظ وأقبحها في معظم الأحيان، مع أن من يصبر قليلاً ليستمتع سيكتشف أنها - وبالعجب - محض مسامرة ودية من هتماوات خفيفات الظل أصغرهن سنأً فوق السبعين من عمرها. حين يعلو صوت اللفظ مصحوباً بتشويح من الأذرع وحركات دفع وجذب، فمعنى ذلك أنهم قد أحطن بإحدى الدلالات اللائى يبعن الأغراض النسائية من أقمشة وطُرح وملسات وكحل ومناديل رأس وخرز وتترتير وبيكرات صوف ملون لشغل المناديل بأوية، وصايون معطر، وكيزان الليف الخشن للاستحمام.. إلخ. النساء يشترين هذه الأغراض يخرنها لبناتهن اللائى سيصبحن عرائس

بعد حين. هن يوسطن كلاً من الحاجة زهرة والحاجة ست عمره والحاجة تجفة فى مهمة الشراء لما يتمتع به ثلاثتهن من خبرة ونفس طويل فى الفصال والمساومة، والدلالة تتشدد فى أسعارها لأن البيع سيتم بالتقسيط حيث تمر هى عليهن كل جمعة أو جمعتين حسب شروط الاتفاق لتجد أن كل مشتريه منهن قد باعت بيض الفراخ وادخرت لها القسط مربوطاً فى عقدة فى طرف طرحتها. على أن الفصال كثيراً ما يتطور إلى عراق حقيقى تتناطح فيه الشتائم والسباب بأقذع الألفاظ، يتحول شارع داير الناحية فى هذه المنطقة إلى سامر؛ يصير عمى أبوالسعود فى نصف هدومه إذ هو جالس بين الرجال على مصطبة بسطويسى عقب خروجه من صلاة العصر، يتصبب عرقاً إذ اقتحمته الدلالة الصفيقة هاتفة:

— «حوش عنى خالك وحمايك يا أبو السعود أفندى!»—

ينتفض واقفاً، العفاريت تتنطط على وجهه؛ يمشى فى تؤدة، خطوة والثانية يصير فى شارع داير الناحية على مرمى حجر من دكان خالته وحماته. ما عليه إلا أن يريهما شبحة فحسب؛ يقف فى مهب نظراتهما، ينظر إليهما فى تحد وغضب، يبقى هكذا برهة وجيزة، تتكتم الأصوات على رصيف الدكان؛ يرتد عائداً إلى مصطبة بسطويسى، يجلس مطرقاً إلى الأرض ليخفى شبح ابتسامه تتذبذب على شفثيه فيما بين السخرية والأسف.

فى كعبه أنا وباستمرار تحت عينيه. إن تلفت حواليه أعرف أنه يبحث عنى؛ أنط من حيث كنت أصير فى متناول يديه. يشير لى بيده أن أعطيه أذنى؛ يهمس فيها بأن أذهب إلى كل من جدتى زهرة وجدتى ست عمره لأقول لأى منهما أو لكليهما معاً:

- «فضوها سيرة يقول لكم عمي».

إذ أفعل في الحال ما أمرني به أشعر بمتعة كبيرة إذ أرى حماته ست عمره، القوية الجبارة التي لا يقدر عليها أحد، قد ضعفت فجأة بإرادتها ومزاجها. هكذا هي بارعة في التمثيل. يجيئني إحساس بأنها تريد أن تعطيني درساً في كيفية الامتثال لأمر كبير العائلة دونما لاجاة لكي أعرف أن هذا هو دستور العائلة الذي يتعين على أن ألتزم به من الآن مقتدياً بها وهي الكبيرة؛ وفي نفس الوقت - بنفس القدرة على التمثيل - تبرهن للآخرين - مع أنهم جميعاً يعرفون البئر وغطاءه - عن مدى احترام عائلتها - وعائلتنا - للتقاليد!! وبأنها - هي ست عمره بجلالة قدرها والتي هي في مقام الأم بالنسبة لأبو السعود أفندي - تحترم أمر زوج ابنتها كبير عائلته المحترمة!.. المضحك - والجميع يدرك بادية ذي بدء - أنها أول من سيخرق هذا الدستور عند أول بادرة للغضب. صحيح أن غضبتها الحقيقية دائماً مؤجلة، ونفسها طويل في الخصام وفي الزعل، وكذلك - ربما بنفس القدر - في التردد عند الفرح - إلا أنها إذا غضبت فقل ياسايل الستر على كل من أمامها؛ تعصف بكبيرياء من تتوهم أنه قد داس لها على طرف أو حاول إهانتها. في مثل هذه الحالة باتت مؤخراً لا تجد أمامها من تعصف به، بات الجميع يعرفون طبعها الحاد؛ فمثلما تشعر القبط والكلاب والعرس والشعابين بقرب حدوث الزلزال الأرضي قبل حدوثه بثوان فيركبها الهياج وترحل بحثاً عن رقعة في الأرض آمنة فكذاك جميع جيران ست عمره وأقاربها وأصحابها باتوا يستشعرون قرب وقوع زلزالها فيختفون تماماً من أمامها يفلقون أبواب دورهم عليهم وعبالهم، حتى الحاجة زهرة رفيقة عمرها تزحزح نفسها داخل الدكان لتختفي حتى تهدأ العاصفة.. يتكونها مقعية على طرف رصيف الدكان الملاصق لباب دارها، تروح تهدر بشنائم غامضة

مبهمة تعلو فوق جميع القامات العالية في البلد لتناول قامات مجهولة
تفضحها تستنزل عليها اللعنات، بعبارات مسكوكة مسجوعة كخطباء
المساجد وينفس الانفعال المتعفرت بغير موجب مرئى، نفس اللباقة فى نطق
المفردات الفصيحة بل العتيقة فى فصاحتها، من قبيل: تنحط حطيط وينقطع
لك نيط، والنيط هو مفرد نياط القلب يعنى الشرايين التاجية، تنتزل الشتائم
من عل شيئاً فشيئاً لتنهال على الذباب والأطيار والكلاب والأبقار الفاتئة
وساحبيها الذين تركوها تتحكك فى جدار دارها.

المؤسف أن مثل هذه الانفجارات المدوية المعبأة بالكأبة والزعايب وزخات
الوحل المتطائر تلوث الأبرياء، تحدث دائماً أبداً فى تلك الحصاة التى يكون
فيها عمى أبوالسعود، وأحياناً أبى وعمى زكريا، جالسين على مصطبة
بسطويسى فى انتظار أذان العصر أو عقب الصلاة حيث تحلو القعدة
هاهنا فى مثل هذه الحصاة تحت ملقف الهواء الطلق يستمعون إلى راديو
رضوان البقال المواجه للمصطبة مباشرة ومن أجلهم يضع الراديو الفليبس
ذا البطارية السائلة على رف خارج باب الدكان رافعاً صوته قدر الإمكان
ليسمع الجميع. يأمرنى عمى بأن أخطف رجلى إلى دكان الأسطى فرحات
الخياط لكى أبلغه رجاء عمى بأن يرفع هو الآخر صوت الراديو، يا حبذا لو
كانت التمثيلية المسلسلة شغالة، عندئذ يصير صوت المسلسل هو المسيطر
يملاً فضاء شارع داير الناحية، يضيع صوت ست عمره، يتوه، يصير
تعيساً، مهزولاً، ثم يضمحل تماماً؛ تخلد هى إلى قعدتها الأبدية لصق
رصيف الدكان، نصفها داخل باب دارها، نصفها الآخر ملتحق بالرصيف،
تحلق فى المارة كأنها تبحث بينهم عن شىء ثمين مجهول كانت تملكه ذات
يوم ثم اختفى.

(١٤) حمادة الخريجي

كثيراً ما يخيل إلى أن الحظ يعاين عمى أبوالسعود أفندي كأنه يريد أن يهدم كبرياه بتعريضه لمواقف سخيقة متكررة ومتلاحقة وراء بعضها أحياناً. أشعر أن مرارته تكاد تنفقع إذا تصادف أن فات أمامهم - إذ هم جلوس على مصطبة بسطويسى فى انتظار المسلسل الإذاعى الذى يفقد متعته إذا استمع إليه الإنسان بمفرده - حمادة الخريجي. مجرد مرور حمادة الخريجي فى لحظة كهذه يسبب الامتعاض الشديد، ليس لعمى أبوالسعود وحده بل لجميع العقالوة .. فما بالكم لو كان حمادة الخريجي لحظة ذاك فى حالة عمل؟..

حمادة الخريجي له شغلتان، واحدة أصلية وإن كانت متقطعة، والأخرى دائمة. شغلته الأولى هى كسح الكنائف، أو المراحيض كما يسميها عمى أبوالسعود، أو محلات الأدب كما يطلق عليها الناس المهذبون من أهل بلدتنا. نفسه حلوة كما يقولون عنه فى نبرة احترام إلا عند بعض السفهاء يشوبها ظلٌ من السخرية الفجة. الواقع أنهم جميعاً يتفقونه بهذا الوصف: نفسه حلوة، يضحكون به عليه حتى لا يضيق بمهنته القذرة وهم فى أشد الاحتياج إليها وإليه، وإلا فمن سيقوم عنهم بمثل هذه المهمة التى لا بد من القيام بها؟..

أنت أو غيرك تتفق معه على كسح الكنيف الخاص بدارك، أو مراحيض المسجد بعد امتلاء أبارها بشكل طافح، الخاص بالدار يكلفك نصف فرنك، تلك القطعة المعدنية الفضية المضلعة من فئة قرشين يعنى عشرين مليماً ويسميتها العامة: واحد بأربعة، إضافة إلى صابونة نابلسي يغتسل بها بعد الفراغ من مهمته؛ ودائماً أبداً تكون هذه الصابونة موضع نزاع ولهذا فإن حمادة الخريجي يضعها فى مقدمة الاتفاق على الأجر باعتبارها الأساس فى عمله، يقول لك:

- «الصابونة النابلسي قبل أى كلام فى الأجرة»!

ومهما طال الفصل إلى نزاع يقود إلى عركة أحياناً فإنك فى النهاية سوف ترضخ لطلبه، ولو كنت على شىء من الأريحية وراجعت نفسك سنتقتنع بأنه يستحق أضعاف ما طلبه من أجرة..

يخلع كل ملابسه فيما عدا اللباس أبودكة، يرفع غطاء المجرور بعد أن يفتح بالفأس ما تراكم فوقه وحوله من رديم تزلط من فرط ما شربه من ماء. أدواته فى الكسح نير وجردلان ، فأما النير فعبارة عن شومة كالنبوت، يتدلى من طرفيها جردلان مربوطان بحبال موثقة مع إمكانية خلع الجردل من خيته وإعادة شبكه فيها بسهولة لا يقدر عليها سواه. يملأ الجردلين بالغائط واحداً بعد الآخر، يقعى بينهما، يثبت عصا النير فوق قفاه، يقف، يخرج إلى الشارع فى دربة ورشاقة ولياقة بدنية غريبة على من كان مثله فى حوالى الستين من عمره، يتجنب الاحتكاك بأى حائط بأى أحد، يمشى إلى أرض خلاء بعيدة عن الدور، حبذا لو كانت من الأرض البور، سيجد من أصحابها ترحيباً بهذا السباح الذى يسميه عمى أبوالسعود بالسماذ العضوى الحيوى كغائط الماشية والأغنام يخصب الأرض الزراعية. يظل هكذا رائحاً جائياً إلى أن ينتهى من كسح الطرنش وتنظيفه، يثبت فوقه

الغطاء الأسمنتي، يهيل فوقه الزديم صانعاً منه أرضاً مستوية. يأخذ الصابونة النابلسي وعدته فيتوجه من فوره إلى المسجد حيث يدخل أحد مراحيضه، يفتح الصنبور على الحوض، يدعك جسده بالصابونة يستحم، يغسل الجردلين، هو الوحيد الذي من حقه أن يستهلك ما يشاء من الماء دون أن يعترض عليه أحد؛ له كذلك أن يتلكأ داخل المراض إلى أن يوافيه ابنة الكبير سيد الخريجي بثيابه النظيفة فيرتديها، يعطى لسيد عدته: النير والجرديلين، ونصف الفرنك ليعطيه لأمه؛ يعطى نفسه إجازة بقية اليوم يمارس فيها حياته كرجل كبقية الرجال يجلس في مجالسهم ويشارك بخمسة مليمات في زردة شاي. تلك هي شغلته الأصلية: خريجي. أما شغلته اليومية التي يشاركه فيها ابناه سيد وبرهوم فإنها مسح الأحذية؛ لكل واحد منهم صندوق يسرح به طول النهار؛ حمادة الأب يقعد على باب المدرسة الابتدائية يمسح أحذية المعلمين؛ سيد الكبير يقعد أمام المدرسة الإلزامية؛ برهوم يقعد أمام الوحدة الصحية في بقعة على الطريق الزراعي ليكون تحت نظر المسافرين إلى محطة السكة الحديد أو العائدين منها فهؤلاء وأولئك يحلو لهم تنفيض الغبار عن أحذيتهم.

كل الناس في بلدتنا يحبون حمادة الخريجي وولديه لخفة ظلهم النادرة، وطيبة قلوبهم، وطريقتهم الغريبة في الكلام. الرجل أصله من الصعيد من مدينة سوهاج، مولود فيها، جدّه من أصل يمني كان جندياً جيء به بين أسرى إبراهيم باشا البطل فلما أطلق سراحه استمرراً العيش في مصر، فاستقر فيها وأنجب وكان حمادة - وهذا هو اسمه في شهادة الميلاد وليس من قبيل الدلع - واحداً من أحفاد ذاك الرجل الذي ذاق أولاده وأحفاده الفقر المدقع فتفرقوا في كل البلاد بحثاً عن عمل يرتزقون منه، أى عمل، وقد لعبت الصدفة دوراً كبيراً في أن يكون حمادة من أهالي بلدة الضبعة، كان

أبوه نقرأ من أنفار الزراعة أتى به مقالو الأنفار لعمل فى وسية محمد على فأعجبتة بلدتنا فاستقر فيها وعمل خفيراً دائماً فى الوسية، والطريف أنه أنجب زرية عيال ماتوا كلهم إلا حمادة السيد صالح، وحين مات أبوه السيد صالح سعى حمادة للعمل خفيراً بدلاً منه فلم يقبلوه لصغر سنه، وكان لابد أن يقبل عيشه بأى شكل، فتخصص فى عمل الكسح، ثم استنظف شغلة مسح الأحذية فامتعتها وعلمها لولديه لكنه استمر فى العملين معاً إذ إن كلا منهما باب رزق لا يليق بالمرء المؤمن حقاً أن يقفله بنفسه ، ثم لماذا يقفله أصلاً مادام يؤدى إلى رزق؟ وساخته؟ وهل هناك شغلة لا وساخة فيها؟ بل هل هناك أوسخ من البنى آدم نفسه؟ أليست هذه هى فضلاته التى هو معمول منها؟.. إلى آخر هذه الآراء الحكيمة التى جعلت الناس يقدرونه ويزوجونه من إحدى بناتهم دونما تردد أو كما قال والد العروس وقوله مأثور ضمن أدبيات بلدتنا، قال والد العروس: إنى أزوج ابنتى من عريس مثله وأنا مطمئن أكثر مما لو زوجتها من رجل وجيه من الأعيان لأننى أضمن أن ابنتى لن تجوع ولن تهان طالما أنها زوجة رجل لا يتكبر على العمل! إ سيفعل كل مافى وسعه وهذا هو الرجل .. وقد أثبتت الأيام عمق هذه المقولة وبعد نظر قائلها، فمعظم الناس فى بلدتنا حتى الذين يتقاضون مرتبات شهرية ثابتة كثيراً ما يتعرضون للعوذ والحاجة فى بعض الأوقات أما حمادة الخريجي فلم يشعر بأى من الأزمات على الإطلاق، القرش دائماً فى يده وإن ضوئت قيمته، كشكار دايم - يعنى الدقيق السن - ولا علامة مقطوعة - يعنى الدقيق القمح الفاخر - ومادام المدد موصولاً فليوفق هو أوضاعه تبعاً لقيمة المدد. من هنا فنفسية حمادة الخريجي وكذلك ولديه فى صفاء مطلق، يتقبلون سخرية بعض الناس بمرح يمتص سموم السخرية يجعل الساخرين يبادرون بالتلطف والاعتذار، ذلك أن لهجتهم فى الكلام

ترغم العيال على تقليدها بشكل يفجر الضحكات فى صدور الناس، هى لهجة صعيدية على يمينه على فلاحية مخلوطة فى بعضها، إضافة إلى أنهم يتكلمون بسرعة فائقة فكأنهم لا يتكلمون بل يلوكون أصواتاً متلوّبة متلوّبة متكورة، إلا أن الناس يفهمونها بالويم، ومن طول العشرة ربطوا بين الأصوات ومدلولاتها؛ وإذ أصبح مباحاً لكل مخلوق تافه أن يسخر منهم لله فى الله، فإن الساخر منهم مهما تفه شأنه لا يقابل من ثلاثهم إلا بابتسامة طيبة متسامحة، يشوبها قدر كبير من البلاهة وعدم الاكتراث..

فليكن حمادة الخريجي ما يكون فهذا شأنه والله فى خلقه شئون؛ لكن النيبة الكبرى أن حمادة الخريجي هذا ابن خالة العقالوة، ابن خالة أبى وعمى زكريا وعمى أبوالسعود وعمى جبريل وعمى موسى وبالضرورة عماتى الثالث؛ يعنى أن أم حمادة الخريجي هى شقيقة كل من جدتى معزوزة وجدتى الحاجة زهرة. غير أن عمى أبوالسعود أفندى الذى لا تخفى عنى مرارته كلما رأى حمادة الخريجي ابن خالته - أو أحد ولديه - حاملاً النير على كتفيه بجرديلين مملوئين بالغايط الأزرق الداكن فى لون السم الزعاف، هو الذى أشاع بين الناس الاحترام لهذه المهنة، مستشهداً بالحديث النبوى الشريف: خيركم خولكم، يعنى بالبلدى: أفضلكم هو خادمكم المخول بتنظيف مخادعكم ومسح قاذوراتكم؛ من ثم فإن عمل حمادة الخريجي عمل شريف يجب أن نقدره ونحترمه ونسخو عليه فى دفع الأجرة قدر ما نستطيع. هذا ماكان على مستوى عموم الناس، أما بالنسبة لأعمامى الذين أصبح لهم عيال فى الجامعة أفندية وهوانم فقد كان الأمر صعباً يكاد يشكل عقدة نفسية اجتماعية فى الأعمام وفى عيالهم؛ لكن عمى أبوالسعود تكفل - يجهد جهيد وتركيز - بغسل نفسيات العائلة كلها من الشعور بالإشمئزاز من ابن خالتهم حمادة الخريجي.. كيف كان ذلك؟.. لقد بالغ فى احترامه والعطف

عليه كأنه أحد زملائه المعلمين الكبار بل ربما باعتزاز إضافي. كان يقف في استقباله، يضافحه بحرارة، يخاطبه بلقب: أبوسيد؛ بل كثيراً ما كان يتحدى الناس وهم جلوس على مصطبة بسطويسى حينما يرى حمادة الخريجي مقبلاً نحوه، إذ يزيح من بجواره في لطف ليوسع لحمادة مكاناً يجلس فيه لصفه؛ يكلمه بود وحميمية، لا يأنف من أن يقول له أمامهم: يا حمادة يا ابن خالتي الموضوع وما فيه.. مثلاً مثلاً..

معظم الجلابيب النظيفة التي أصبح جسد حمادة مزدناً بها هي جلابيب أعمامى أصبحوا عن قناعة وطيب خاطر يتركونها في منتصف عمرها أو ربما نصف جديدة أو جديدة تماماً لكنها لم تدخل مزاج صاحبها، يرسلونها في سلة تحوى قدرأ من اللبن والجبنة والأرز الأبيض والملوخية والبامية وفواكه من جنيئة الدار، تحملها بدر اليمن الملية إلى دار ابن خالتهم حمادة الخريجي هدية من معزوزة لأختها الصغيرة مسعدة. هذا غير الهبات غير العلنية التي أعرف منذ وقت مبكر أن جدتي معزوزة ترسلها سراً مع بدر اليمن إبان دخول المحاصيل الزراعية، وأعرف أن جدتي معزوزة تحمل هم أختها الصغرى مسعدة لأنها يا قلب أختها مريضة بشلل الأطفال في زراعها الأيسر الذي توقف عن النمو قبل أن تخطو على الأرض فبات أشبه بزعنفة سمكة كبيرة، وكثيراً ما كنت أضبط جدتي معزوزة وهي منحنية على السللة المغطاة بهدمة ودموعها تفرط قبل أن تعاون بدر اليمن على رفعها إلى رأسها، وإذ ترى أنني رأيت بكاءها تقول كأنها تكلم الحظ أو القدر: مسكينة طول عمرها صاحبة مرض وسيئة الحظ أيضاً! ألم يكفها مرضها؟ لا! يفنقر أبوها لأجل بختها الأسود!..

لن أرى ما حييت صبراً كصبر عمى أبوالسعود وطولة باله وهو يعلم ابن خالته حمادة الخريجي فك الخط، في بحر أشهر قليلة أصبح مزاجاً عند

حمادة الخريجي أن يلتقى أبا حواس كل يوم فى طلب الجرنان مثل عليه القوم حتى وإن كان جرنان الأمس بنصف أجر. ولداه سيد وبرهوم سيقا إلى المدرسة الإلزامية بقوة الخفراء النظاميين بأمر الحكومة بأن يكون التعليم إلزامياً لا يقلت منه أى طفل له شهادة ميلاد مسجلة فى دقاتها. وكان حمادة يمتعض لوقف حاله فيرد عليه عمى أبوالسعود بلطف وحسم:

- «ياحمادة يا ابن خالتي التعليم أصبح كالماء والهواء من حق جميع الناس!»!

- «أهلا بيه! ياتلتميت مرحبا! بس ياأبو السعود أفندى .. أنا باسترزق من ورا الولدين!»!

يلكزه عمى بيده الثقيلة:

- «عيب عليك هذا الكلام لا تحمل للدنيا همأ! كل أمور حياتك ستكون على مايرام بإذن الله!»!

بالفعل ترك الولدين ست سنوات حتى صار بإمكانهما القراءة والكتابة والحساب بل أصبحا يفهمان ما يسمعانه فى الراديو من كلام فى السياسة.

(١٥) ناز الجلة تاكل العاشقين

إنما الذى كان مجلبة للعار حقاً ابن خالة آخر هو عرفات عمرو الذى أُلصق به لقب الشيخ من باب العمى، فيما أن معظم العميان فى بلدتنا شيوخ بشكل أو بآخر على مستوى أو آخر، ربما لأن القرآن الكريم هو المشترك الأعظم بينهم إذ إنهم يحترفون قراءة القرآن للتكسب من ورائه بحسنات يدفعها الناس إكرامية للقرآن فحسب بصرف النظر عن يقرأ وعن رداءة صوته وسوء قراءته. ولعل الشيخ عرفات عمرو قد حفظ القرآن بالفعل على يدي جدي حسن فى كتاب العقالوة ، ولعله كان يحلم بأن يكون شيخاً جليلاً محترماً لولا أنه تركيبة إنسانية مفكوكة الصواميل كما وصفته أمه ؛ جدتى الحاجة زهرة. إنه إبنها الثانى بعد عبدالرحمن الحلاق الذى توفي منذ وقت قصير دون أن يدخل الدنيا، كان حاد الطبع أكثر من بنت عمه الحاجة ست عمره، وموس الحلاقة بين أطراف أصابعه يصيبها الإضطراب فيعجز عن التحكم فيها إلا بعد أن ينفذ ما تراكم فوق رئتيه بالأمس من بلغم سميك نتيجة تحشيش متواصل من بعد صلاة العشاء حتى مطلع الفجر فى غرفة معزولة فوق سطح دارهم، سهراته الليلية تضم أشكالا وألواناً من البشر يجلبهم مختار الشربتلى من معارفه الذين لا حصر لهم، معظمهم تجار حشيش وأفيون من أجاويد بلدة مجاورة لبلدتنا تمتاز بأنها مدفونة فى

سهل سحيق تحيطنها برك ومستنقعات من جميع الجهات تعجز حملات الشرطة عن اقتحامها فتلجأ إلى قطع الطريق فى أكمة ليلية شهرية حيث تفتش من تشته بهم من الداخلين والخارجين على السواء فلا تتمكن من ضبط أى شىء بالطبع لأنه ما أسهل التفاهم مع ممثلى الحكومة فى طريق زراعى بعد منتصف الليل. فى الغالب كان عبدالرحمن عمرو يجمع صفوة الحشاشين فى هذه الغرفة السرية التى تأخذ من الخارج شكل أحمال قش وخطب، فيبيع لهم التجار حشيشاً وأفيوناً طازجين بأوزان مستريحة وأثمان قليلة، يدفعون لعبدالرحمن عمولة، قد يأخذ حقه ناشفاً يعنى حشيشاً وأفيوناً وقد يأخذه قروشاً إضافة إلى أنه شاف مزاجه وحشش وأفين وانفصل عن الأرض تماماً. رحمه الله كان ذيله نجساً، يتواعد مع البنت سبيلة الصباغ المشهورة بالسلك البطل، يزنقها فى الغرفة بعد انصراف الرجال، يراها البعض متسللة من باب الدار الخلفى خارجة تهرول فى السرداب فيما الصبح يرفع آخر طرحة سوداء عن وجهه الصبوح، كانت كما يقال مصابة بمرض «السودا» حيث المصابة به تبقى هائجة على طول الخط لا تشبع ولا ترتوى، ولم تكن تطلب من عبدالرحمن إلا عافيته إذ إنه من طراز الفيلة، هو كذلك لم يكن يبخل بها على الإطلاق، قيل إنها لجمالها وشهوانيتها أشعلت حميته فصار يفعل كل شىء فى سبيل إشباعها والتمتع بمنظرها لحظة الإشباع؛ مختار الشربتلى علمه ككة الحشيش، قطعة حشيش مقدارها نصف قرش أى فى حجم نصف قالب سكر، تفرك فى ككة القهوة، يضاف إليها نصف قالب سكر، ونصف فنجان من الماء، توضع الككة فوق نار السبرتاية مع مواصلة التقليب بالملعقة، بعد غلوة أو غلوتين ترفع عن النار وتدلق فى فنجان وتترك حتى تبرد وتجف، تتحول إلى قطعة شيكولاتة، كل حسب قوة جسمه، هناك من يأكلها على عدة أيام إذ أن أقل شىء منها

يحقق سطله عميقة مكثفة تطيل عمر الجماع وتمنح الذكر قوة حديدية خارقة؛ عبدالرحمن طماع فى كل ما يقال إنه يخدم الجماع ويحسنه، لم يكفه ما أكله من أفيون طوال النهار، ولا ما شربه من حشيش فى مدخل الليل، أكل الفنجان كله ولحسه ثم صار يقربع الشاى الساخن إلى أن تهاوى على صدر سبيله الصباغ كحيوان مفترس فاقد الوعى ، استخفه الطرب للعنف صارت البنت فى يده كالكرة، من فرط الهبد والرزع واصطدام الأذرع والأرجل والسيقان لا يعى أيهما بما حدث، فى غيبوبة النشوة لم يدركا أن منقذ النار قد وقع، وسرحت النار فيما حولها من قش وحطب وأقراص جله، سرحت على مهلها إلا أن الريح فوق السطح خطبت ودها فتأبطتها، لحظئذ كان الدهول قد سكن عيني سبيلة العادية تماماً، ذلك أن عبدالرحمن قد انزلق من فوقها جثة هامدة محمقة العينين لا نبض لا تنفس، لقد مات. حارت التعيسة كيف تخرج من مأزقها، بل من جهنم الحمراء التى ارتفعت ألسنتها بالفعل وأحاطت بهما من كل الاتجاهات. إنها لا تقوى حتى على الصوت، رائحة احتراق ملابسهما واحتراق قطن المساند والشلت والمخدرات أدخلتها فى غيبوبة. سبحان الله، لم ينقذها سوى غريمتها ست عمرة التى دأبت على مراقبتهم كل ليلة وتدبر لكيفية قطع رجلها وأرجل هؤلاء جميعاً عن دار ابن عمها، كانت ست عمره أول من صوت بعد أذان الفجر بقليل ، النار شبطت فى سطح دارها، فزع المصلون فى المسجد بل فى جميع المساجد سيما وأن بعض المؤذنين قد رأى من فوق المئذنة ألسنة اللهب فى أول قيامها قبل أن تمتلىء السماء بسحب كثيفة من الدخان.

تلك كانت أخبث وأوسخ حريقة شبت فى بلدتنا، فى وقت من أعمق فترات نوم النائمين، وما لم تكن نسوان البلدة كلهن فى حالة يقظة فالعوض على الله؛ إنهن الجيش الحقيقى فى إطفاء الحرائق، يصرن كأسراب النمل رائحات جائيات بالبلاليص من الترعة إلى بيت الحريق ومنه إلى الترعة،

يلتقين بعضهم بعضاً في منتصف الطريق يسلمن الملآن ويتسلمن الفارغ
يعدن به جرياً إلى الترفة، فيما يقف الرجال فوق الأسطح يتلقفون البلايص
لدلقها فوق ألسنة اللهب، وآخرون يخلصون الأشياء والمفروشات والأطفال
من النار المشتبكة، يخلصون الشبابيك والأبواب إذا لزم الأمر بالدخول لإنقاذ
من احتجزته النار في مزق..

من حسن الحظ ليلتها أن جميع نسوان الرجال المحترمين ينتهزن وقت
دغيشة الفجر للتسلل إلى حنفية المكرر على تخوم جرن العقالوة للماء
البلايص والبستيلات، إلى أن يطلع النهار تكون الواحدة منهن قد أنجزت
عدة أدوار ملأت دارها وأزيارها بماء الشرب النقي. هاتيك النسوة هن
اللائى رأين الدخان متصاعداً قبل صوات الحاجة ست عمره فقوى الشك في
نفوسهن فتحفرن، فما أن طلع عليهن صوات ست عمره حتى كن قد اقتحمن
دارها بالبلايص وصعدن السلم الطينى ورحن يدلغن الماء من على بعد
بحذر، إلى أن أدركهن الرجال عقب الصلاة قادمين من جميع أسطح الدور
المجاورة خالعين ثيابهم؛ مجرد تواجدهم بهذه الكثافة كتم أنفاس النار
وأخمدتها وإن هدم سقف الدار في جزئها الخلفى؛ لكنهم أنقذوا سبيلة التي
لم تعد تصلح بعد ذلك لأى شىء على الإطلاق إلا لفائدة واحدة استشفها
عمى زكريا: أن تكون تشخيصاً ماثلاً للخطيئة يتعظ منه الخلق إن كانوا
مؤمنين؛ أما عبدالرحمن فقد أثبت الطبيب الشرعى أن عجينة الحشيش
بالسكر مع الأفيون فتكت بشرابين القلب وسدت الرئة فى أن واحد رغم أن
صحته كانت أقوى من صحة الفيل لدرجة أن الطبيب لم يستطع منع نفسه
من أن يحسده على جثته الهرقلية.. تلك أيضاً كانت الموعظة الثانية التي
التقطها عمى زكريا كوسيلة إيضاح مدرسية يطبق عليها شرحه لعدالة
العقاب الإلهى على كل من يفترى على نفسه على صحته على دينه على ما
يغضب الله ، إننا نعوذ به من شر كل شيطان رجييم..

كان موت عبدالرحمن عمرو على هذا النحو أسطورة من أشهر حوادث بلدتنا فى أواخر أربعينيات القرن العشرين؛ والعجيب أنها كانت من النوع الحميم لدي الناس ؛ يحبون إعادة حكيها باستمرار، ربما لأنها لا تزال موجودة فى الواقع بناس آخرين على أشكال متعددة حتى أصبحت قصة موت عبدالرحمن سبة فى جبين كل من يسلك سلوكاً معوجاً وكل من تلعب بذيلها من البنات والنسوان: إياها والمشى فى سكة أبو جلة!.. ذلك أن عبدالرحمن عمرو وسييلة الصباغ أضيف إليهما لقب: الجلة، لأن وقودها هو الذى أصاب النار بالفتونة..

الشيء الوحيد الذى عجز عمى زكريا عن استشفاف الحكمة الإلهية من ورائه هو ما ترتب على موت ابن خالته عبدالرحمن عمرو من أوضاع لصالح أخيه عرفات الذى لا يستحق فى نظر الناس كلها وليس عمى زكريا وحده ما سيرته - وقد ورثه بالفعل - من دار كبيرة جداً تطل على شارع داير الناحية بديكان وياب وسط ممتد إلى مدخل السرداب وتطل على شارع خلفى يتفرع إلى أحشاء البلدة فهى إذن دار تليق بالعمدة أو بأكبر عائلة فى البلاد كلها حتى بعد اقتسامها مع ست عمره، لم يكلف عرفات نفسه أكثر من بناء جدار فاصل بينه وبين أمه وأخته توحيدة التى تزوجت، استقل بميراثه تاركاً ميراث أمه وأمى سنه وخالتي توحيدة مخلوطاً يتصرفن فيه بمعرفتهن بعيداً عنه، وفتح لداره باباً على السرداب؛ أصبح كل من يراه يدخلها أو يخرج منها يصفق كفاً على كف مردداً: حكم! حظوظ! دار يجرى فيها الحصان بها فرن وزريبة وإسطبل ومندرة وعديد من الحجرات مبنية فى زمن الرخص حيث الأرض بتراب الفلوس وعمال الوسية جاهزون للعمل فى البناء بغدوة أو بكثر خيرك يا فلان نخدمك فى الأفراح، وفى النهاية يسكنها رجل أعمى العين لا يحتاج منها أكثر من مصطبة تلمه.. جاتك مصيبة تلمك.. هكذا لا بد أن يرميه الحاقنون عليه من الفلاحين المزنوقين فى أحنان وعشش بعيال كتار.

(١٦) بغل .. وفرسة سائبة

الشيخ عرفات عمرو - قطع ولا كان - ضرير ، مغلّق العينين تماماً كأنهما مجرد شرخين في بؤرتين عميقتين تحت جبهة عريضة ممتدة كجرف صخرى أملس، أصلع الرأس من قرع مزمن ملاً فروة رأسه ببقع مية شكلها ملتهب داكن اللون معاً كزغيف خبز لسعته العرصة فأحرقته وبقعته باللهب، يضع على رأسه طربوشاً مغربياً شكل غطاء الحلة ، حال لونه الأحمر إلى لون الدم المتجلط المسود. ضخّم الجسد، عريض كالبوابة، لباسه سروال بحجر ودكة بشراشيب لكنه مفتوق الخياطة في منطقة الحجر كلها، فوق اللباس قميص قصير إلى ما تحت الركبتين بقليل، بطوق دائري وكمين أضيّق قليلاً من كُمّي الجلاب ، من قماش اسمه البيسة لم يكن مسموحاً لفقراء الفلاحين بغيره من الأقمشة، أزرق كالح كقمصان السجن ولعله من نفس القماشة بنفس التفصيلة وهو نفس القميص الذي قرأت عنه مقالة تاريخية في مجلة لعلها مجلة الهلال التي يواظب عمى أبو السعود على شرائها كل شهر، من أن هذا هو القميص الذي قرره الرومان للفلاحين المصريين تمييزاً لهم عن النبلاء والطبقة الحاكمة أو شيء من هذا القبيل لكنى بعد أن دخلت قسم التاريخ في كلية الآداب بإذن الله سأتعلم كيف أبحث في مثل هذا الموضوع : قميص الفلاحين المصريين أصله وقصه .

لا أحد في بلدتنا يعرف لماذا ميز الناس الشيخ عرفات، دون غيره من العميان، بأنه الأعمى. لم أسمع في حياتي من يقول: عرفات عمرو، فلا أحد يعرفه إلا باسم: عرفات الأعمى، مع أن في البلدة عدد هائل من العميان! أما لقب الشيخ فمربوط بالعميان تلقائياً. إلا أن الشيخ عرفات الأعمى قد شذ عن كافة العميان في بلدتنا، أصبح هو الأعمى الوحيد الذي يحمل لقب الشيخ ولا يتكسب بالقرآن بل قد لا يقرأه حتى عند الصلاة، ولا أظن أن أحداً في بلدتنا يصدق صلاته وهو رجل هزأة بمعنى الكلمة لحياء لا أدب لا خلق لا حسن معاملة، ليس يخضع لأي شروط فيرغم الناس على قبوله كما هو، كشخص نسيج وحده، طرفه من طرائف الحياة، بلوى من بلاوي الزمن التي لا مفر من وقوعها ولا إعفاء من احتمالها ..

يشتغل منادياً، له في النداء حضور قوى ناتج عن قدرة كبيرة على الابتكار في الصيغ بشكل يلفت الأنظار ويوصل نداءه إلى أبعد الأذان وأشدها صمماً. الميت إذا لم يعلن خبر موته بصوت الشيخ عرفات الأعمى لا يعتبر ميتاً، يكون مشهد جنازة هزياً، والمعزى خاوياً. بارع هو في جعل صوته يقتحم الناس بحيث لا يكون نذير شؤم ينقبض منه الناس، سيما وأنه ينادى على كل شيء، عيال تائهة، بضائع مسروقة، سلع رخيصة تباع في مكان ما من البلدة، فلا بد إذن أن يكون صوته محبوباً عند عموم الناس لكي يرحبون بالاستماع إليه بتركيز حتى النهاية. بقوته يخترق القاعات الجوانية البعيدة، ببحة التي باتت حميمية، ففي الحال يكفون عن الحركة، يصيح نفر منهم:

« اسمعوا .. الشيخ عرفات ينادي! »

يصيخون السمع بإمعان. يقترب صوته الجمهوري العريض المالىء الحلق

والحنجرة:

- « لا إله إلا الله .. سيدنا محمد رسول الله ..
أنعم الله اليوم على فلان الفلاني ابن عم فلان
وفلان وخال فلان وفلان ونسيب العائلة
الفلانية .. اختاره الله للصعود إلى جوار ربه
قلبي النداء عليه رحمة الله .. الدفنة بعد
صلاة العصر .. الملك والدوام لله »

تسحبه طفلة صغيرة لعلها حفيدته ؛ فإن لم تكن متوفرة عند احتياجه لها
يتكفل واحد من أهل الميت أصحاب السلعة بسحبه . كل بضعة أمتار يقف ؛
يطلق عقيرته بالصياح :

- « بستة صاغ يا سمك عند مخلوف الطنباري
في الرحبة القبلية ! »
يصيح :

- « يا أنفار يا شغيلة .. بشري للعاطلين القاعدين
جنب النسوان لا شغلة ولا مشغلة ولا حتى
قادرين على المسألة .. فيه شغل بكره في الوسية
اليومية سبعة صاغ ! .. وإللى راغب يقوم دلوقت
حالا يروح للمقاول على منصور ! »
يصيح

- « يا أهالي بلدة الضبعة الكرام وغير الكرام أيضاً !
كل فرد فيكم يروح يقيد اسمه واسم عياله في
دفتر محمد أفندي إبراهيم في دوار العمدة لزوم
التعداد السكاني ! إلى مش حيروح هو الجاني
على نفسه ! سوف لا يكون مثبتواً في أي دفتر من

دفاتر الحكومة يعنى لا تعترف بوجوده ولا بموته ولا بأولاده ولا بموارثه كل هذا يضيع عليه فى الكازوزة ! حكم القوى على الضعيف إلا يا خلق ، ومادام القوى حكم يبقى ما على الضعيف إلا التنفيذ والسمع والطاعة .. أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم !» .

وجوده حيوي فى حياة بلدتنا ، حضوره أيضاً قوى ، ويقوى أحياناً إلى حد يستوجب الضرب بالرصاص للخلاص منه ومن وجع دماغه خاصة أنه بات غير قادر على تخفيض طبقة صوته التى يستعملها فى النداء ، انصبت حنجرته فيها وتصلبت فاستحال عليه الكلام بغيرها فى الحديث الودى العادى فى المناقشة وحتى فى الفراش إن طرأت عليه ملاحظة على زوجه أثناء الجماع اليومي قالها كأنه ينادى على وضع من الأوضاع .

هو متزوج من امرأة اسمها رباح ، مع أنها أتعتس خلق الله قاطبة . طويلة كعرق الخشب، نحيفة ، صدئة الوجه والقدمين رثة الثياب إلا فى حالات نادرة . مقطوعة من شجرة ، لا أب ، لا أم ، لا عائلة من أساسه . تمت ولادتها بعد رحيل أبيها بشهرين اثنين، أمها وأبوها نفران من الغرابوة الذين يجلبهم مقاول الأنفجار للعمل فى حدائق سمو الأمير على طول المواسم؛ ولأن بلدة الغرابوة دائماً هى مكان رزقهم حيثما حلوا، وهو بالضرورة مدفنهم حينما توافيهم المنية، فقد كان طبيعياً أن تدفن الأم زوجها فى مدافن الصدقة وما أكثرها فى بلدتنا ، وأن تقضى بقية عمرها قرب جثمانه تؤنس وحشته من حين لحين بزيارته وقراءة القرآن على قبره . استمرت تشتغل باليومية، تخدم فى بيوت الأعيان، إلى أن ربت ابنتها رباح ، وكانت تأوى وإياها فى عشة مبنية بالبوص الجدول بخشب وأجولة قديمة ، سمح لها صاحب ماكينة الطحين بإقامتها خلف جدار المطحنة إذ أنها عصر كل يوم

تفرش أمام الماكينة بقصعة الترمس والحلبة المزرعة تباع لزبونات الماكينة لقاء حفنة من دقيق أو من الأرز الأبيض . قيل إن رباح كانت دميمة لكنها كانت جدعة ، وفيها أنوثة . أيامذاك كان الشيخ عرفات يقرب عيشه بقراءة آخر ما تبقى في ذاكرته من قصار السور على أرواح الموتى في المقابر أيام الخميس من كل أسبوع وأيام الأعياد؛ أما بقية أيام الأسبوع فيقضيها على فيض الكريم في انتظار من يطلبه النداء .. في المقابر التقى رباحاً وأمها ، تطوعت رباح بتوصيله إلى الدار عدة مرات، قامت بينهما مناقشات، اشتتهه فعلمته تلقائياً كيف يشتهيها ، لكنها نفسها أطول من نفسه ، استدرجته حتى تزوجها على سنة الله ورسوله، تشهد الأجيال السابقة على جيلنا أن الخناقات بدأت عقب الزفاف مباشرة وبشكل مجهول الأسباب ، فجأة تدب نار الخناقة من أعلى نقطة، نقطة الاشتعال ، ما أسرع ما يرتفع الصوت ، يفتح الباب المطل على السرداب، وهو يجري وراءها؛ العجيب أنه دائماً يفلح في الإمساك بها من طرف جلبابها، تقع على الأرض صارخة في قلب شارع داير الناحية يترك فوقها بكل ثقله ينزل فيها تلطيشاً باللكمية حتى يكاد يكتم أنفاسها لولا أن يفلح الرجال في رفعه عنها بالقوة وإعطائها الفرصة للهروب فيبقى هو مقعياً على رصيف الدكان الشاذ يشتم ويسب متفئناً في ابتكار صيغ طريفة للشتم والسب ، لا يهمد ولا تنقطع حبال صوته ربما طوال عصرية بأكملها، إنه لأسخم وأضل سبيلاً من عمته ست عمره ..

قعدة الإقعاء جزء لا يتجزأ من شخصيتي : قارئ القرآن على المقابر، وماسح الأحذية، فإذا أقعى الشيخ عرفات على الأرض أو على رصيف الدكان ينشلق القميص والسروال عن فخذه ، لا ينتبه هو ، أو لعله في الغالب لا يبالي، إلى أن عضوه الطويل التخين في طول المسطرة قد انحسر

عنه اللباس المفتوق الخياطة فى حجره، كقط أسود متكور يتلمظ يتأهب لاصطياد فأر ، يصير مضحكة صاخبة .

العيال الأشقياء، وأحياناً بعض الكبار الخبيثاء يختبئون فى دروة، بخفئات من الحصى أو زبل المعيز أو البلح الرامخ، ينشنون على دماغ العضو بإحكام شديد .. ينتفض الشيخ عرفات انتفاضة رمزية، موحواً، صائحاً :

- « مالك وماله يا ابن الرفضى؟! غايظك فى إيه ده؟! يا أخى إن كنت

تعوزه خذه حلال عليك بالهناء والشفاء مطرح ما يسرى يمرى ! و ..»
تعاجله تنشينة أشد قسوة تنفضه نفضة حقيقية هذه المرة! يصعر خذه نحو مصدر الضرية :

- « يا ابن اللبوة إن كنت شففتنى فى سرير أمك
ذات يوم فما ذنبه هو ؟ .. لاتكن جاحداً يا هذا !»
تعاجله الضرية من جهة أخرى ، لايتورع هذه المرة عن مد ذراعه تحت حجر السروال فيطبطب ويملس على عضوه فى حنو بمزاج رائق كما يفعل بعضنا مع القطة الأليفة :

- « لا عليك لا عليك ! ربنا خلقك تليق بحصان!

كان المفروض أن تولف على فرسة لا على سفرونة

تحريك على المعاش ناقص عمر!»

تجيئه ضربة موجعة، يجعر بانفعال مسرحى، فشكل وجهه عند الغضب مثل شكله عند المرح، نفس التقاطيع المتهدلة فى امتلاء بيبك منه الدم توحى بأنها فى حالة إنصات كأن تركيزها على استلاب كل ما حولها من صوتيات لايعطيها الفرصة لفرز واستيعاب ما تسمع فلا يبدو عليها أى انفعال جديد، قد لايستوعب الشتمة أو القرص بالسباب إلا بعد حين، إذ لاشيء مما

يسمعه يضيع مطلقاً ، إنما يتم تحزينه فى جوانباته، ولقد يعاتبك اليوم على غلطة فى حقه غلطتها من سنين مضت، بأمانة كذا وكذا، وأنت يستحيل أن تتذكر ، أما هو فالمسموعات المتعلقة بشخصه تنحرف جواه فلا يمكن طمسها؛ فإن رأيت ذات لحظة يتخانق مع أحد، أو يدب خناقة مع شخص لم يلمسه على الإطلاق فاعلم أنه يتعارك ثأراً لجرح حدث سنة كذا .

التنشين على عضوه بالخصى يتم وزوجه رباح جالسة القرفصاء جوار مدخل السرداب تسمع وتشاهد وتشارك المشاهدين الضحك إلا أنها تضحك فى عيها حتى لا يسمعها . لقد سئمت كل شىء فى حياتها معه وأقنت عمرها فى خدمته؛ أنجبت له ولداً وبنتين : عبدالعزيز وسعدية وأنيسة ؛ أما عبدالعزيز فقد ضاق بالعيشة فى البلد، وفى يوم دخلت البلدة سيارة بضائع بصندوق كبير يركبها مع السائق مندوب يلف على محلات البقالة يعرض عليها بضائع من خردوات وعبوات شاي وزهرة وسجاير؛ الولد وُلف على المندوب والسائق فى لمح البصر فاستطفاه فمشى معهما يرشدهما إلى دكاكين البلد، فلما انتهت مهمتهما طلب أن يأخذهما فى طريقهما إلى حيث يذهبان . كانا مسافرين إلى مقر الشركة فى دمنهور ، فسافر معهما، اشتغل فى الشركة فى تعبئة الشاي والتبغ والحلوى لمدة شهرين، ادخر أجرة السفر إلى الاسكندرية ليلحق بولدي ابن عمه ، ابني ست عمره، استطاع الوصول إليهما بالفعل، وأن يشتغل معهما، فاستقر فيها وطلق البلدة بالثلاثة على رأى أبيه. أما البنت الكبيرة سعدية فتزوجت من فلاح على قد حاله، وكانت عاقلة مياله إلى الاستقرار فابتعدت بزوجها وعيالها إلى مكان بعيد قرب المدرسة الإلزامية. أما أنيسة - المهرة السائبة - فقد تزوجت هى الأخرى ولكنها لم تبتعد، إنها تعشق هذه المنطقة من شارع داير الناحية،

تبرطع فى الشارع كيفما اتفق، ورثت عن أبيها لامبالاته وبلادته وورثت أيضاً فحولته الجنسية ، فبرغم طولها القارع كانت جسداً أنتويماً لعله أجمل جسد فى تاريخ بلدتنا، لابد أن يخز أمام سطوته أعتى الرجال ، سيما وأنها مهملة فى ملبسها لايغنيها فى شىء أن يكون نصف صدرها العلوى عارياً، أو أن ينحسر طرف الجلباب عن فخذها السمهرى القرطاسى الشكل ببشرته الخمرية اللون تلمع بالشبق والجازبية المسكرة كأنها الحجر الكريم لا يخفى الغبار والوسخ لمعانه وأصالته، أما حين تمشى فى الشارع فإنها تصوير مهرجاناً للإثارة يموت فيه الناس عشقاً حتى النساء يتأملنها فى دهشه وغبطة ، لعلهن يغبطنها على هذه المؤخرة الدائرية المشقوقة شقاً ينبثق الجلباب مهما اتسع، المحمولة على ساقين سامقتين تتمنى كل واحدة منهن أن يهبها الله شيئاً من اتساقهما ، يغبطنها على الخصر الرفيع المتناول كأن ما بين المؤخرة والسرة رقبة أخرى كرقبتها الطويلة ذات النحر المفروش على الكتفين بعروق وشرايين بارزة كجذر الشجرة، يعلوها وجه مستطيل قمحى اللون تحت بشرته بقاع ضوء أحمر يتسع فى الخدين يفصل بينهما أنف واقف طويل ناعم الطرف عند المنخرين أكثر نعومة وتواضعاً عند نقطة التحامة بالعينين الواسعتين كعيني البقر الوحشى، فوقها جبهة مستوية السطح تشبه مسن الحلاق، الحاجبان الثقيلان الطويلان ومنابت شعرها فوق الجبين تكمل صورة المسن مؤطراً بجرايه الجلدى؛ أما الشغز فلا بد أن يكون شعر جنية نداهة، حزم من ليل أسود حالك تتطرح على ظهرها فى ضفيرتين هايطتين إلى ما تحت المؤخرة .. كثيراً ما يطق دماغها فتخرج إلى الشارع من غير تضيفير، فكأنها غطت ظهرها كله بالمس الأسود، تصنير فرجة، وإذ هى على وعي تام بما تفعله ويفعله جسدها من بث الهياج

والسخط فإنها أثناء مشيها فى تؤذة متبخترة تنظر إلى من ينظر إليها مسيلة جفنيها قليلاً بما يعنى أنها تقصد الإثارة والتحدى، ربما لأنها على ثقة من أن أحداً لن يستطيع أن يقول فى شرفها : تلت الثلاثة كام ؛ وهذا صحيح؛ فبصرف النظر عن كونها تمت إلى عائلتى بصلة قريى فإن الواقع فى بلدتنا ليس سائياً وإن طغت على سطحه بعض الظواهر الفاقعة ، فالمرأة التى تقع فى الغواية لابد وحتماً أن ينكشف سرها فى زمن قياسى ، ومن تحبل فى مكة يأتى بأخبارها المجاورون ، وأنيسه بنت عرفات الأعمى وإن أثارَت البلدة كلها وهيجتها عن بكرة أبيها إلا أن أحداً لم يطالها على الإطلاق؛ ليس لعفتها فحسب وإنما لأن جسدها نفسه - سبحان الله - على قدر ما هو جنسى صرف كان مخيفاً وطارداً ؛ ولعل هذا هو سرها العجيب؛ فلقد حكى الكثيرون من الشبان الأشقياء أن ظروفها خاصة وطارئة جمعت بينها والبعض منهم فى حالة انفراد أمنة بشكل أو بآخر دونما أى ترتيب من جانب أى من الطرفين، وأن من كان يظن نفسه حصاناً أو ثوراً فغياً هائجاً ويظنها بقرة شرقانة فوجيء بأنه لوح من الثلج لا يستطيع حراكاً فيما هى كذلك بلا ربود فعل كأن شيئاً لم يحدث إنما هى قد سلطت فيه نظرتها فخيّل إليه أن عينيها جورتا نار سوف تبتلعه حالاً، فغادر المكان مضطرباً . مثل هذه الحكاية شائعة بين الشباب والرجال بأشكال مختلفة وتفاصيل متعددة لعل أكثرها شهرة حكاية ذلك الذى دخل دارها ينادى أباه ففوجيء بها عارية تماماً فى قلب الطشت تستحم فى ركن من حوش دارهم الواسعة، فراح يقترب منها واجف القلب يريد اشباع عينيه من كل تفصيله فى جسدها ففتنته تحت الثوب فكيف بها بدونه ؟ قال إنها بقيت على حالها مقعية فوق ما يسمى بكرسى الحمام ، وهو كرسى من الخشب لا يزيد ارتفاعه عن

خمسة سنتمترات وطوله ثلاثين فى عشرين عرضاً ، ظلت مقعياً فوقه سائدة
ذقنها فوق ركبتيها المثبتين على الفخدين والشعر من ورائها عباءة من
الجوخ تلف ظهرها، تركته يقترب حتى ظن أن المزاج موافق فى ترحيب
ودعوة، فما أن صار محاذياً للطشت حتى فوجيء بأن الدنيا قد أظلمت فى
عينيه فراحت الأرض تدور به ، كل ما فعلته أنيسة - وبمنتهى الهدوء أنها
طست وجهه بحفنة ماء دخلت طراطيشه فى عينيه، من فرط خوفه من
الفضيحة ارتد يتخبط فى حوش الدار فإذا بحظّه النكد يوقعه فى قبضة
الشيخ عرفات الأعمى وكان لحظتها آتيا من المسجد ، كلاهما لحظتذاك
أعمى ولكن عماء الشيخ عرفات كان مبصراً وحده كان يقظاً دائماً تجاه
حركة أى لص يقتحم داره التى يعرف أن الجميع يحسدونه عليها وأنها نظراً
لاتساعها قد تغرى بالسطو عليها - عفق الشيخ عرفات رقبة صاحبنا ذاك
من طوق جلبابه ولم يتركه إلا فى دوار العمدة . عند العمدة أراد أن يكفلها
فأعماها ، قال إنه دخل ينادى على الشيخ عرفات .. فكيف دخلت إذن مادام
أصحاب الدار لم يردوا عليك ويأذنون لك ؟! .. ثم قال إنه يطلب تحويله الآن
إلى الطبيب الشرعى لأن ابنته أنيسة التى كانت تستحم فى ركن الحوش
رشته بشيء كماء النار حجب الضوء عن عينيه وأشعل فيهما النار .. ودخلت
على الحريم وهى تستحم؟! أنت إذن سافل وسىء القصد والنية ولا بد من
تحويلك إلى المركز - لم تكن نقطة الشرطة قد أنشئت بعد فى بلدتنا - حتى
يرتدع أمثالك من الأشقياء السفلة، مالكم ومال أنيسة يا غجر يا أوياش ؛
هكذا راح الشيخ عرفات الأعمى يكيل له السباب . الولد التعيس راح المركز
بالفعل ، بل وراح المحكمة وتلطم شهوراً وسنوات فيها إلى أن حكمت عليه
بالسجن ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ ؛ لكنه كان قد فقد البصر ، ذلك أن

المياه التي قذفته بها أنيسة لم تكن ماء النار، إنما كانت مياه الطمث ، كانت أنيسة تتطهر من الحيض، وكان «الحفاض» المصبوغ بالدم الأسود المتصلب ساقطاً منها تحتها فصبغ المياه في قعر الطشت بلون البلبلة ، لون السم الزعاف محمر مسود مزرق داكن ، ولم تكن أنيسة قد شرعت بعد في الاستحمام، بالكاد خلعت ثيابها ، ودلقت كوزين من الماء الساخن من تحتها؛ لم تكن كذلك تعرف أن باب الدار غير مسنكر من الداخل بالترباس، فأبوها حين خرج لصلاة العصر اكتفى بإغلاقه صورياً على أساس أن المسجد على بعد خطوات من الدار وسوف يخطف الأربع الركعات ويرجع لينام .. هكذا قال وقالت أنيسة في تحقيقات الشرطة والنيابة وكانا من وجهة نظر القانون على حق تماماً ..

تلك الحكاية الشهيرة جداً في بلدتنا ، الموثقة بوجود بطلها على قيد الحياة قعيد الدار من فرط شعوره بالكسوف والعار ، فرغت إعجاب الرجال بجسد أنيسة من كل طموح جنسى شخصى ، يجبون رؤيته والفرجة عليه بشغف عظيم ولكن .. فحسب وحتى الذين يحبون الدخول إلى البيوت من أبوابها الشرعية على سنة الله ورسوله قد أحجموا وتنازلوا عن فكرة الزواج من أنيسة ، ليس فحسب للشعور العام الشائع عنها كالعقيدة القائلة بأن جسدها ذلك يحتاج لفارس عفى كعنتره ابن شداد مثلاً ليقوى على إشباعها وإلا استغفلته وراحت لمن يشبعها ؛ وإنما لسبب آخر أشد وأقوى ، هو شعور عام آخر كالعقيدة أيضاً بأن السيطرة على شخصيتها وإخضاعها لنظام الزوجية والعائلية وما إلى ذلك أمر مستحيل تماماً ، إنها كائن وحشى ضد الأنظمة بجميع أصعدتها، ولولا بقية من عقل وحياء لتمردت على

أنظمة الملابس والاستحمام، وكل ما يتطلب نظاماً معيناً بشكل ما، وليس يوجد في بلدتنا ولا في أى بلدة من حوالينا عائلة - أياً كان وضعها الاجتماعى والاقتصادى - تقبل بأن تنضم إليها أنيسة على وجه التحديد بأى شكل من أشكال العلاقات.

أما الذين كانوا مستعدين لبيع عائلاتهم وبيع الدنيا كلها فى سبيل الاستحواذ على أنيسة بعقد شرعى، وما أكثرهم فى بلدتنا برغم اشتهاها بأنها بلد محافظ أو متحفظ لكثرة عدد المتعلمين فيه، فإن عدداً كبيراً من هؤلاء تقدموا لخطبتها تسبقهم القرابين، ولكنها - وهذا مما أدهشنا جميعاً - كانت تتصيد كل من يتقدم لخطبتها على انفراد ثم تريه ما لا يمكن قبوله من زوجة ولا خطيبة بل ولا امرأة على الإطلاق، كأن ترفع إلتيتها وتضطر بصوت عال مزعج مذهب فوق قبحة وبتنته، ثم لا تعتذر، بل لا يبدو عليها أنها فعلت شيئاً ممجوباً، فيخرج الخطيب ولايعود مطلقاً..

الوحيد الذى رضيت به وأحبته وشجعته بنفسها على التقدم للزواج منها كان الولد فرهود حواس، ولد قصير القامة إذا وقف بجوار أنيسة تكون منهما رقم عشرة، هى الواحد وهو الصفر، يسمونه بالولد لأنه من النوع الذى لا يبدو عليه التقدم فى السن أبداً، كان على مشارف الأربعين من عمره ولكنه يبدو أصغر بعشر سنوات على الأقل، إذ إنه لا يحمل للدنيا همماً على الإطلاق، لا شىء فى الحياة يؤرقه أو يقض مضجعه بل ليس ثمة من مضجع من الأساس، أبوه كان طريياً يعيش على ما يجمعه خميس كل أسبوع مما يوزعه الناس فى المقابر من أرغفة وأقراص وتمور وقروش أحياناً، رحمة ونوراً على موتاهم، قيل إنه كان صعيدياً لجأ إلى بلدتنا منذ خمسين عاماً هارباً من ثأر، وكشأن الغرباء الصعابدة احتمل المبيت فى أى مكان إلى أن تواتيه قوته بانفراج، وجد فى مدخل البلدة الشرقى مستنقعاً يبدو عريقاً فى

هذا المكان، وقد صدق حدسه بأن ماء النيل عند الفيضان يغرق هذه المساحات الشاسعة شهوراً طويلاً ثم ما تلبث الشمس حتى تجففها، والفلاحون يلقون بالأتربة فيها فتعلو بقع منها لا يطالها الماء، فحط حواس على واحدة من هذه البقاع المرتفعة وأقام فوقها عشة من الطين مسقوفة بالبوص، والتقى في بلدتنا من يرضيها أن تكون رفيقته في الحياة، فتزوجها، راحت تكافح معه في تطليع الزرائب وشغل البنائين وضرب الطوب وحراسة المحاصيل في الأجران وفي كل ما يصادفهما من عمل إلى أن تقدم بهما العمر معاً وياتا غير قادرين على مواصلة الشقاء بما يقتضيه من صحة وعافية، ولم يكن الله قد رزقهما من خلفه سوى فرهود، هما غير مرحبين أصلاً بالخلفة لأن المرأة شقيانة طوال النهار والليل أكثر من زوجها، فلما أعطاهما الله فرهوداً تركاه يرعى نفسه بنفسه في الشارع كيفما اتفق، يأكل أو لا يأكل لا يجعله الله يأكل، يلبس يتعري يغور في كشحة، ينام يتشرد هو حر، من قال له يأتي؟ هكذا كانت تقول له أمه إذا طالها بشيء، هو أيضاً ألغى وجودهما من حياته، وكان يجد من يعطيه كسرة خبز، وجلباباً قديماً، ومن يكسوه في العيد أحياناً، ومن يغمزه بمليم، حادث واحد مرير في حياته، كان ذلك يوم عيد، وسويقة العيد تلتف حول ربوة المقابر، المراجيح وباعة الهريسنة والخروب والعرقسوس والشربات والطراوير والصفافير والشخاليل، كأي طفل راح فرهود ليركب المرجيحة، من فرحته بالجلباب الجديد والمليم العيدية اندفع نحو المرجيحة في البرهة التي كانت فيها الأرجوحة قد ارتفعت في الفضاء وشرعت في الارتداد بنفس القوة، والأرجوحة لوح من الخشب موثوق بالجنائز يقف فوقه العيال والشبان ممسكين بالجنائز ولوح الخشب يعلو بهم ذات اليمين ويرتد عائداً يعلو بهم ذات اليسار، في ارتداده ذاك اندك بوز لوح الخشب في عين فرهود فرمى به على امتداد ما يقرب من مائة متر غارقاً في دمه، مات، لكنهم نقلوه إلى مستشفى المركز فوجدوه حياً غائباً عن الوعي، مكث في المستشفى أكثر من

شهرين وعاد إلى البلدة بعين واحدة وجبهة مشقوقة من الجنب الأيسر ولكن ملامح وجهه الطفولية لم تتغير، وبقيت لا تتغير متشبثة بطفولة غاربة، بات يساعد أباه في حرفته الجديدة، الشحاذاة على روح الموتى، بعد قليل مات أبوه، ثم ماتت أمه، وبقي هو في العشة نفسها، إلا أنه كان قد تعرف على الشيخ عرفات الأعمى في سرحاته في المقابر، استلطفه عرفات فصار يدعوهُ للسهر عنده في داره واثقاً في أمانته وطيبة قلبه، عاصر سعدية وأنيسة وهي في مرحلة الصبا، ولم يكن يدور بخلده أن أنيسة بالذات يمكن أن تشجعه على الزواج منها، من شدة فرحته قرر أن يبحث لنفسه عن شغلة محترمة، والطريف أنه جاء يستشير عمى أبوالسعود لعله يشير عليه بما يفيدهُ أو تتوسط له في أى شغلة ولتكن فراشاً في المدرسة مثلاً، الأكثر طرافة أن عمى أبوالسعود قد أحس أن فرهود حواس يكلمه بروح معنوية مرتفعة على اعتبار أنه وعمى أصبحا نسايب، أليس سيتزوج من بنت ابن خالته لزم؟ وعمى أبوالسعود يفهم ذلك ويقدره تماماً ويتعمد أن يُشعر فرهوداً بذلك بل لا يتورع عن أن يقول له:

- «شف يا أبا نسب!».

هكذا بكل وضوح جعل فرهوداً يضحك في بلاهة بصوت جهورى فاشخاً حنكه عن آخره، يضيف عمى أبوالسعود:

- «سأعطيك فكرة بمليون جنيه! أنت تصحو كل يوم عقب صلاة الفجر مباشرة! تطلع على محطة السكة الحديد! تركب محطة واحدة لتقابل متعهد الجرائن فله مكتب في المحطة التالية على محطتنا مباشرة! تتفق معه على مائة جرنان كل يوم! أو خمسين نسخة من كل جرنان: أهرام! أخبار! جمهورية! مع بعض نسخ من مجلات روز اليوسف وآخر ساعة والمصور!.. يبعثها لك في القطار كل يوم وأنت تستلمها من محطة بلدتنا! تدفع حساب الأمس وتأخذ جزائد اليوم! وتلف على المدرستين والوحدة الصحية وفي الشوارع! يوماً بعد يوم ستبيع أكثر وتقلب عيشك!».

تردد فرهود أبوحواس في أول الأمر، لكن عمى أبوالسعود كان منذ وقت طويل يفكر في حل لمشكلة الجرائد التي لادتخل البلدة إلا مع من كان مسافراً، فما صدق أن انتبه لأبى حواس، أخذته من يده وسافر معه إلى محطة نشرت، ضمنه عند المتعهد، فبات يبعث له ربيعة خاصة باسمه في القطار إلى محطة بلدتنا، ويوم الخميس من كل أسبوع يذهب أبوحواس بنفسه إلى المتعهد ليحاسبه بالورقة والقلم يخضم المرتجع الذي يتركه صباح كل يوم لدى خفير المزلقان، ثم يدفع حساب الأسبوع ويعود إلى البلدة بجرائد الخميس، وكان يجنح إلى التكاثر يوم الجمعة لكن عمى أبوالسعود قاد حملة من زملائه ضغطوا عليه بضرورة الإتيان بأهرام الجمعة على الأقل لقراءة مقال بصراحة لمحمد حسنين هيكل، حيث يقيسون اتجاهات الريح السياسية بناء على ما يفهمونه من بين سطورها..

صلحت حال أبوحواس واستطاع أن يسكن بالإيجار في بيت محترم، وأين؟ لصق مصطبة بسطويسى مباشرة، عبارة عن باب ضيق يفضى إلى مايشبه الكهف مكون من حجرتين متقابلتين ومن خلفهما حوش لإبأس به مفتوح على السماء، وكان لابد لأنيسة أن تساعد زوجها على المعاش، فاختارت مدخل السرداب المطل على شارع دابر الناحية خاصة أن دار أبيها على رأسه، أسندت على جدار دارهم عدة أقفاص بشكل استعراضى، وراحت تبيع الخضروات والفاكهة، غير عابئة ولا مبالية بأن الجدار المقابل لجدار دارهم ويشكل رأس السرداب من الناحية المقابلة هو جدار دكان مطل على شارع دابر الناحية متخصص في بيع الخضروات والفاكهة وإن كان الفرق بين بضاعتها وبضاعته يوازي فرق السماء عن الأرض، فبضاعتها من سقط الفواكه وخضرواتها من نفاية الخضروات أما بضاعة الدكان فكانت بحكم الاحتراف المهني من الدرجة الأولى، ومع ذلك فلكل من هذه وتلك زيون يتقصدها عند الشراء.

١٧. مهرجان المزل

كان غريب الشكل حقاً، مجرد بناء قائم بذاته، أربع جدران من الطوب اللبن مسقوفة بعروق وألواح من الخشب، له باب بدرفتين وبدرفيل، واقف وحده في العراء ليحيطه الفراغ من جميع الجهات وإن كانت الجهة اليمنى مجرد شريحة من الفراغ تفصل بينه والدار المجاورة، يقوم فوق مصطبة طينية ترتفع عن الأرض ما يقرب من متر ونصف المتر، في منتصفها درجتان للصعود إلى بابه، وقد امتد طول المصطبة فجار على الشريحة الفراغية الفاصلة فسدها من شارع داير الناحية، هذا الدكان يستأجره فكهاني خضرجي محترف ومحبوب من الدنيا.. كلها هو المعلم مختار الشريتلي، بضاعته طازجة باستمرار، يتسوقها من الجنان ومن الحقول رأساً وأحياناً من الأسواق يوماً بعد يوم، تاركاً لزوجته خضرة مهمة البيع في الدكان..

لا يمر يوم واحد بدون عراقك تصل ضوضاؤه إلى تخوم حدائق الأمير، يشارك فيها كل من هب وذب، بالتعاقب الساخر، بصب الزيت على النار، بتحريض الأطراف كلما خمدت نار المعركة، ذلك أن هذه المنطقة من شارع داير الناحية طول عمرها مصدر حركة وتجمع بحكم متاخمتها لحدائق الأمير وتفتيش الوسية، اليوم فيها دكان الحاجة زهرة الذي كان للحلاقة في حياة ابنها عبدالرحمن، ودكان الحاج علي الوزان القمامشي الحافل بلفات

الأقمشة من الأرض للسقف من جميع الأنواع والألوان من قماش الجلابيب والفساتين والألبسة إلى كسوات المراتب والمخدات والألحفة يعنى هو وحده سويقة لا تنفض، ثم دكان رضوان البقال، ودكان المعلم فرحات التريزي البلدى على بعد خطوات، وعلى يسار مصطبة بسطويسى يوجد المسجد المسمى باسم عائلة الشراينة الذين بنوه منذ عصر الخديوى إسماعيل، أمامه باحة عريضة تتسع لانتشار المصلين واستيعاب فيضانهم فى صلاة الجمعة والعيدى، على جنبها كتاب الشيخ جمعة، بجواره دكان محمود الجمال الحلاق، وعلى يسارها دكان فتحى الحلاق أيضاً، وفى مواجهة هذه الباحة على شارع داير الناحية دكان الأسطى خليل العتقى مرتق الأجدية وصانع النعال الكاوتشوك وهو دكان مظلم رطب فلا يطيب للأسطى خليل شغل إلا أمامه حيث ينقل السندان وقصاصات الجلد وينكب خرزاً وتخييطاً ومسمرة من صبيحة ربنا إلى ما بعد منتصف الليل تحت ضوء لمبة الجاز نمره عشرة، وعلى مقربة منه على الصف نفسه، يعنى فى مواجهة دكان مختار الشربتلى، تعريشة زنوبية عمراية، تحتل مساحة من الشارع، يسهر عندها الرجال والشبان يمضون القصب الذى يجلسون فوق لبشاته المتراكمة، أو يقرقزون الفول السودانى الذى تقيه على الصفيحة فينشر فى البلدة نكهة شهية يسيل لها اللعاب لدرجة، أن جميع من يأتى لمص القصب يبدأ سهرته بقرقزة حفتين ثلاثة من العول السودانى المقرمش ثم يستروى بمص القصب.

أسباب العراك تبدأ دائماً من عند ناصية السرداب، إنها أنيسة.. دائماً أبدأ منكادة من حركة البيع والرواج عند خضرة زوج مختار الشربتلى فيما هى تنش الذباب طول النهار عن بضاعتها العفنة، لا أحد، حتى القرييين

منهما أثناء ذاك يعرف كيف نمت التفاصيل وأدت إلى الانفجار، إنما هي كالنار تشب دفعة واحدة، فجأة يرتفع فاصل من الرشح، بالصوت الحياني المتبادل بينهما، قد نفهم منه بالوهم أن خضرة تحتج على أنيسة التي تهش نبابها على بضاعتها النظيفة وأن هذه الحرياء - أنيسة - تحسدها على رزقها وتسمم لقمة عيشها، لكننا نفهم بكل وضوح أن أنيسة تشخر - نعم تشخر كالإسكندرية - ساخرة من البضاعة، إن سر هذا الرواج ليس فى جودة البضاعة يا عوومر، وأنها - أنيسة - لو اشتغلت فى المياصة شوية فسوف تحرمها من كافة الزبائن حتى النساء، عندئذ تبكى خضرة، تشهد الناس عليها، ثم تلزم السكات، الكارثة عندما يجيء مختار الشربتلى، سيفرج على أنيسة أمة لا إله إلا الله، ولكن يظرف ولباقة وخفة ظل نادرة المثال، كل شتمة وجهتها أنيسة إلى زوجه يردها عليها بنكتة حراقة، مؤلة وقارصة إلى حد إسالة الدم أحيانا دون أن يمسك عليه الناس غلظة واحدة..

هو الوحيد القادر على إسكات أنيسة فى ظرف دقائق تعد على أصابع اليد الواحدة، تقفل حنكها بالضبة والمفتاح قبل أن يفتق لها الجديد والقديم مما سيزعم - بخياله الشرير - أنه يعرفه من خباياها السرية، وأى خبايا يزعمها أى أحد عن أنيسة، هى قيل غيرها على يقين من أن الناس سيصدقونها فى الحال، لأنهم إن لم يسمعوها خلقوها من خيالهم، هى شافت ذلك بعينها قبل أن تتزوج من أبى حواس، ولهذا سرعان ما تلزم السكات ولكن إلى حين..

ماتكاد عركة أنيسة وآل الشربتلى تسكت حتى تهب مقدم الأصيل خناقة الشيخ عرفات الأعمى وزوجه رياح، هى خناقة من حيث الشكل فحسب أما

من حيث الموضوع فلا موضوع سوى الهزل الماسخ الذى دأب عليه وأدمنه الشيخ عرفات، انتقلت عدواه إلى زوجه رباح، بطول العشرة أصبحت تشتري دماغها وتبادلها هزلاً بهزل، وطالما أن وجهه مكشوف ولسانه طويل يعوصه الخراء، فليكن وجهها كالشازع ولسانها كالفرقلة، فى الهزل كل الأساليب مباحة، وهنا مكنم الخطورة، فاستمرار الإباحة فى الهزل فتح فى شبكة الشر لا محالة من دخولها شاء الهازل أم أبى، ستر الله أن رباح أكثر تعقلاً فى النهاية تعرف كيف تظل ممسكة بميزان الهزل إلى حد لا بد أن تتوقف عنده، تختفى من المنطقة تاركة إياه يضرب فى سنك الشر نفسه بنفسه..

أصل النسب أنه فى السنوات الأخيرة - الرجل عقله خف - أمسى يتهمها على ملأ من الناس على قارعة الطريق بأنها أحالت عضوه إلى المعاش على غير أوان، لا يخلو له فتح هذه السيرة إلا حين تؤكد له أذنه اليسرى أن شلة نسوان يجلسن مع زوجه رباح تحت جدار دارهم فى مدخل السرداب، بعد إنصات طويل إلى ودودة يتقطعها الضحك المكتوم العايب، يحسد أنهن يتهامسن حول عضوه الذى لم يعد يخجله أن يبرز من فتق اللباس بل لعله يريد ذلك ويتعمده، ميز بين أصواتهن صوت محروسة امرأة عبدالله أبوزعير أسطى ماكينة الطحين، هى جارية سوداء من أصل سودانى وإن كانت مولودة فى بلدنا لأب وأم كانا من محاسيب عائلة خلاف إحدى أكبر العائلات تحتكر العمودية طوال مايقرب من مائة عام، وكانت محروسة برغم بشرتها السوداء جميلة رشيقة جداً وعالية الجاذبية إلا أنها كائن هزلى بالسليقة خفيفة الظل، هى الوحيدة بين نساء بلدنا يحق لها ممارسة أعتى الرجال وأشدهم هيبه، مزاحاً مفتوحاً، لا تتحرج من الحديث عن كل ما يتعلق

بالجنس، تذكر الأعضاء التناسلية بأسمائها الصريحة وتتحدث عن الموافقات الجنسية التي ترى آثارها فى الصباح على وجوه النساء وحركة الرجال الذين يجرجرون ركبهم فى إعياء والنهار لم يطلع بعد، كأن الحياة عبارة عن هذا الأمر وحده وكل ما عداه لا لزوم له، حضورها القوي يحفز النساء على تقليدها فى شىء مهم جداً، النظافة الدائمة، الهدوم الشرحة المشرقة بالألوان سخنة زاهية، فى غير ذلك يمسكن بل يعجزن عن تقليدها، فلو أن واحدة منهن تلفظت بمفردة واحدة مما يجرى على لسان محروسة طول النهار للقيت مصرعها فى الحال ضرباً بالسكين من أخيها أو بالنبوت من أبيها، أما محروسة فالناس يتقبلون منها كل شىء دونما حرج أو استنكار أو تحفظ، لأنها هكذا خلقت، ولأنها برغم كل هزلها امرأة محترمة شريفة العرض استطاعت أن تكسر تابوت الحرملك وأن تتحدث بجرأة مطلقة فيما لا يجرؤ الناس على التحدث فيه رغم أنه جوهرى فى حياتهم، ويبدو أن رجال بلدتنا استشعروا سلامة قلبها وصفاء نفسها ومسلكتها القويم فأحبوها ولم يجرؤ واحد منهم على إهانتها أو تجريحها بأى قول أو فعل.. ثم إنها أكبر ند للشيخ عرفات الأعمى، فى علو الصوت، فى الاستهبال، فى قاموس المفردات المكشوفة، بل تتفوق عليه فى كل هذا، يضاف إلى ذلك خفة ظلها الخارقة للمألوف من النساء المرحات، على أرضية من حب الناس لها ومساندتها بالتشجيع عندما يحمى وطيس المعركة وتتبادل مع الشيخ عرفات الأعمى قذائف النيران الهزلية.

طرقة أذنه اليسرى، الشبيهة بالنفير، التقطت عبارة قالتها محروسة امرأة الأسطى عبدالله أبو زعير:

- «قومى يارباح إمسكى هذا الأرنب وييتيه!».

وسمع صوت رباح يشوح قائلة:

- «خليه يبرطع فى الهواء! كفاه نوماً طول الليل!».

إنها نفس الصورة المتكررة يومياً، يسمعها الشيخ عرفات ويدرك أن الأرنب المقصود هو عضوه وليس الأرنب الذى تربيته زوجته ضمن ما تربيته من أرانب ودجاج.. ودائماً يرد الرد نفسه بالهتاف نفسه كأنه ليس جالساً على قارعة الطريق:

- «اتق الله فى... فى... أقول فى إيه؟! طب طلاق ثلاثة منها يامحروسة..

هذه التى تقول كفاه نوماً طول الليل.. جعلتها فجر اليوم تصرخ لله ما يغيثها.. إنما هى التى نشفت خلاص.. كالأرض الشراقى!».

تستجيب رباح لغمزة محروسة وتحريضها المؤيد بإيماءات ممن يجلسون على لبشات القصب وعند الأسطى خليل العتقى وعلى مصطبة فرحات الخياط ورصيف دكان الحاجة زهرة.. تقول رباح مشوحة بذراعيها فى حركة مسرحية تقلد بها نسوان البندر الرداحات:

- «ماهواش شرط يا عنية! حد عارف أنا باصرخ من إيه؟ من ضربك فى

طبعاً!».

- «صح! مضبوط يامرة! بس يا ضربك فى أنهو حته بالظبط؟ ماهو ضرب

عن ضرب يفرق ولا إيه يامحروسة سد سهه؟!».

- «روح اتجوز لك بنت صغيرة!».

- «إنتى بتقولى فيها؟ طلاق ثلاثة منك مسيرها تحصل!.. عن قريب إن

شاء الله!».

لا ينفذ السامر إلا بمجىء مختار الشربتلى من رحلة التسوق اليومية، دائماً معه أكثر من ركوبة بعضها مستأجر لحمل البضائع، ما إن

يقترّب من الدكان حتى ينط بجسده الرشيق من فوق الأقفاص المتدلية بحبال من تحته؛ هدمه غرقانة بمياه العرق. يتوقع الناس أن ضيق خلقه في هذه الزنقة سيتؤدى الى انفجاره فى الشيخ عرفات الذى يجلس هذه الجلسة الخليفة على رصيف دكانه وبخذاء زوجه خضرة الطيبة المنهمكة فى العناية بالسبوية . من نظرة الفيظ فى عين مختار يتوقع الجميع أنه سيضربه هذه المرة؛ لكن مختار يفاجئ الجميع بنوع آخر من الضرب أشد إيلاماً وهواناً؛ بكل هدوء يسحب العصا من جوار الشيخ عرفات دون أن يشعر به ؛ يدها نحو رقبتة، يحيط عنقفته بعوجاية العصا ؛ يشدها بقوة وقسوة يجعر عرفات مأخوذاً بالمفاجأة رغم تكرارها عشرات المرات، يتشبث بيديه فى العصا يصبح محتجاً على هذا المزاح الثقيل لكن قوة مختار الفتية تنجح فى جرجرته ثم إلقائه على الأرض فى مدخل السرداب، منطرحاً على بوزه كالبهيمة الفطسى..

- «خذ عصاك!»

ويرزعاها فى مؤخرته بعنف :

- «ماينفع معك إلا هذا يا بغل يا أعمى العين! هذا محل أكل عيش ! وفيه امرأة بتبيع سبوية ! تجى أنت وتتلقح بجوارها كقرد قطع ! وقلة أدبك وسفالتك فوق البيعة؟! ألا تعلم أن شكلك يقطع الرزق يانجس ؟ يا أخى هات لك لباس ! ما معك فلوس ؟ أنت أغنى واحد فينا ولكنك نتن !

- «احفظ لسانك يا ابن الشريتلى !»

- «احفظ بتاعك أنت وإلا طلاق ثلاثة إن ما قمت من هنا الآن لقطعته لك

بالفأس !»

ذلك أن الثياب انشلت كلها وبانّت عورة الشيخ فرحات كاملة بشكلها القبيح المنقر ، ومحروسة امرأة عبدالله أبوزغير تصيح فى رباح مولولة :

- «لى النعمة يارباح ! بوسيتها وحطيتها جنب الحيط !»

ولكن رباح تدارى وجهها بيديها فى ولولة هازلة . مختار يغمز بعينيه
وشفتيه للعيال ، يجرى كل منهم ليقذف عضو الشيخ عرفت بحفنات من
التراب والبصاق والخصى . تمد محروسه يدها السوداء العفوية الى ذراع
الشيخ عرفت، ترفعه واقفاً على حيله :

- «قم يامفش ! وجعتك العصا !»

- «وبعدها لك يامحروسة ؟ سببى دلوقت !»

تتنحى له عن السكة ، يمضى كالمبصر طريقه الى باب الدار ، يدفعه
بالعصا ، يدخل، يرزح الباب وراءه .

لا مناص أمام عمى أبو السعود أفندى من أن يشهد هاتيك المساخر
عصر كل يوم طوال أشهر الإجازة الصيفية . كان مثل الجميع يضحك مما
يرى ويسمع كواحد من جمهور المشاهدين؛ فأشعر أنه يغطى بالضحك
شعوراً بالحرج والاشمئزاز ، ألمح فى عينيه المليئتين بحزن كثيف ، وذلك
الشحوب الذى ما أن يكف عن الضحك حتى يزحف على بشرته كأنه
انعكاس لهب من تحتها ، سرعان ما يختفى الشحوب مخلفا اسوداداً
كالحاً كلون الملح، فأدرك أنه رماد الدم الذى احترق ؛ يخيل إليّ حينئذ أن
وجه عمى أبو السعود قد صار أنقاضاً ؛ غير أن الوجه ما يلبث حتى يسترد
حيويته إذ ينفجر ضاحكاً من مفارقة داهمته من مهرجان الهزل ؛ ذلك أن
عمى أبو السعود من المتذوقين للفكاهة بل إنه ملئ بالرغبة فى المرح كما
يلوح لى بغير حدود ، لولا أن مركزه كمعلم تربوى ، وموقعه كعميد لعائلة
كبيرة يفوتان عليه الكثير من فرص المرح ؛ لكنه من أبرع رواة النكتة فى
بلدتنا، ونكته دائماً مركبة وتحتاج الى فطنة وذكاء وسرعة بديهة لتذوقها؛ مما
يعطى لعمى جبريل الحق فى التريقة عليها بشكل مهذب جداً :

- «نكت أخی أبو السعود أفندی مجمدة مثل الفلوس الكبيرة ! .. أصله لا يتعامل مع النكت الفك كالفقراء أمثالنا .. على كل حال أنا أخذ النكتة منه وأفكها لكم عشرين ثلاثين نكتة ! »

ما يكاد عمى أبو السعود يضحك مسترداً حيوية دمه المخروق حتى تصيبه طرطشة عفوية كأنه رشق بماء النار من غير قصد جنائي : امرأة عجوز من محبيه كانت مارة في الطريق من أمام مصطبة بسطويسى - مثلاً - فلمحته فاقتربت منه لتسلم عليه تشكره وتثنى على أفضاله وأفضال أبيه وأخيه في تعليم عيالها ، تلف يدها في طرف الملس وتصافحه ؛ بعفوية وبكل براءة تسأله :

- «هو ابن خالتك الشيخ عرفات ماله طايح في الخلق ؟» وأشياء من هذا القبيل ، يقابلها كلها بالضحك والسخرية ؛ وفي أحيان كثيرة يصم أذنيه ويشرد عينيه منحرفاً مع نفسه في قراءة سور من القرآن الكريم.

١٨ - مزاج العايق

مختار الشربتلى الفكهانى الخضرجى، الذى هو فى أصله فرارجى من عائلة كلها فرارجية وتجار بيض لولا أنه كره هذه المهنة لصعوبة نقل البيض واتجه الى الفاكهة والخضروات؛ ولد عايق ، فنجرى كلام؛ لا يعترف بأية مشاكل على الإطلاق ، يدخل بصدرة المفتوح على أية صفقة أية عركة وهو على باب الله لكنه بشغل الأونطة وخفة الظل ومظهر الجدعنة إن لم يفز بالصفقة كلها استفاد من حواليتها، إن لم ينتصر فى العركة فإنه يخرج منها سالماً بغير جراح . حين وقع بصره على ذلك الدكان الشبيه بالكوخ الطينى على ناصية سرداب الشيخ عرفات الأعمى ، القائم فوق هذه المصطبة العالية التى تحتل جزءاً من شارع داير الناحية وتعطى للدكان شخصية لافتة للنظر كأنه دكان من عصور ما قبل التاريخ، يتماهى فى شنوذه وغرابته وصدئه وراثته منظره مع جميع سكان السرداب فرداً فرداً : عرفات ورياح وأنيسة وأم العز وزينب حكاشية، حتى ققط السرداب وكلايه ومعيظه ويطه وأوزه وأرانبه جميعاً تختلف بشكل أو بآخر عن مثيلاتها من المخلوقات .. جميعها مخلوقات لافتة للنظر كهذا الدكان الكوخ الواقف بمفرده فى أهم مكان فى شارع داير الناحية، من يمر عليه لابد أن يتوقف ويلف حوله يتأمله ؛ فلو أن بضاعة عرضت للبيع فى هذا الدكان ستجد الزبائن على قفا من يشيل .

هكذا فكر مختار الشريتلى ، ولما انتبه إلى أن دكان صديق عمره الصدوق غازى داود فى الصف المقابل على الناصية التالية قال إنى قتيل هذا الدكان ولن أدعه يفلت من يدي . من فوره راح يجمع بيانات عنه ؛ عرف من صديقه غازى داوود - صاحب أقدم الدكاكين فى بلدتنا - أن هذا الدكان الكوخ كان بالفعل مجرد كووخ وأن لمصطبة العالية حكمة وضرورة ؛ ذلك أنه قد بنى هكذا على هذه المصطبة ليقم فيه خفير سراية أبو رحاب التى كانت قائمة مطرح دكان الأسطى خليل وتعريشة زنوية عمراية ؛ حيث كانت عائلة أبو رحاب تقضى عدة أشهر كل عام فى فرنسا واستانبول ، فكان الخفير يقضى الليل بطوله مقعياً على هذه المصطبة العالية فى ضوء أربعة فوانيس تحيط بالسراية يعمرها الخفير بالجاز كلما فرغت ، فكان يستطيع كشف أية حركة تقصد بالسراية شراً؛ فى النهار ينام وتتولى زوجه الحراسة، وكان غازى داوود لديه دفتر يسجل فيه حساب ما يجره الخفير من دكانه من جاز وشاى وسكر ودخان وحبوب الطحين فى حدود معينة متفق عليها ، لكن كبار العائلة ماتوا ، والسراية آلت للسقوط فبيعت أنقاضاً ثم بيعت الأرض إلا قليلاً منها لا يزال مطروحاً للبيع لا يجد من يشتريه فاحتلت زنوية عمراية . قال مختار : فلأحتل الدكان أنا الآخر ؛ فنصحه صديقه بأن يذهب الى ابنة ابن الخفير ، لأن الدكان ملك لجدها الخفير فرحات الخشت الذى مات ومن بعده ابنة فبقيت ابنة الابن المتزوجة فى عزية نصيف ..

- سافر إليها مختار ، استأجر منها الدكان مقابل عشرة قروش فى الشهر، اتفق معها على أن يكون الحساب كل ستة أشهر ، ونفخها إيجار ستة أشهر مقدماً ، وأتى بالفتاح . فرشاة الخضار والفاكهة تحتل جزءاً كبيراً من المصطبة طوال النهار وشطراً كبيراً من الليل، زوجه خضرة خنفاء قليلاً، لكنها نتاية بمعنى الكلمة؛ مهما عمدت إلى إهمال كل ما يتعلق بالزينة تبقى مثيرة إلى حد الفتنة الكامنة فى عينيها الوديعتين كعيني قطة أليفة؛ يتمنى الرجال لو طارحوها الغرام لكنهم كلما نظروا فى عينيها شاهدوا فى عمقها

شخصية مختار القوى الباجس حامل السكين والخنجر يلعب بهما أثناء الرقص فى الأفراح وفى المعارك . إنما هى لطيفة جداً ، جدعة جداً ، مكافحة ، طيبة القلب صافية النفس لا تعرف اللوع ..

تجلس خضرة وراء الفرش ، جزء منها على المصطبة، وبقيتها داخل الدكان ، تعلق على الطبخ و ابور الجاز، تغسل الثياب فى طشت صغير ، تمسح للطفل مخلفاته وتغسله بالمرة ، تؤدب الولد الشقى بعضا الغلية فيطلق صراخا مزعجا . ربما تفعل كل ذلك فى أن واحد وفيه أيضا تبع للزيائن ، تتركهم ينتقون ما يشاؤون من طماطم بطاطس باذنجان خيار جرجير جوافة برتقال غب فرط بلح أسمر ؛ تأخذ كفة الميزان بما عليه من بضاعة منتقاه، ترننها، تدلق الكفة فى الوعاء الذى أتت به الزبونة معها ، بعض الزبونات تتلقى البضاعة فى طرف طرحتها السوداء .

أما مختار العايق فمن حقل إلى سوق، لا يرجع إلا آخر النهار ومعه بضاعة من نوع ما ..

فى آخر الليل يزحزحون الفرش إلى داخل الدكان، يأويان والعيال الأربعة، مساحة الدكان ثلاثة أمتار طولاً فى داخل السرداب، فى مترين ونصف المتر عرضاً . تصير المصطبة عند فراغها فى الهزيع الأخير من الليل مغرية للمتسكعين من خفافيش الليل أو المؤرقين أو الباحثين عن نسمة هواء فى ملقف كهذا أو حتى المنتظرين لأذان الفجر .

يعجب الجميع كيف أن الحياة قد خمدت هكذا داخل الدكان الكوخ بمجرد سحب درفتى الباب إلى الداخل يتساءلون - فى العلن أحياناً - كيف أنجبا عيالهما ومتى فى ظل هذا الخمود الذى لا ينبئ عن أية حركة ؟ هم لا يدركون أن مختار ابن السوق المتودك يستغفلهم ، ينتهز فرصة لغطهم على المصطبة ويرقع الولية - كما يقول بالحرف - فى الكتم الذى هو عنده الذى وأمتع من الصويت الكاذب ، هو الآخر لا يتورع عن امتداح الجماع المكتوم الصوت أمام زوجه فلا تبعاً به بل أقصى ما تفعله أن تلكزه بود ونعومة تهتز لها أبدان الرجال .

١٩ - ساعة نحس

اندلع الصوات عابراً فضاء الجرن مقتحماً علينا دارنا عقب صلاة الجمعة والدار ساعتها تتأهب لتناول وجبة الغداء وذلك أمر لا يحدث إلا في يوم الجمعة من كل أسبوع حيث الرجال كلهم متواجدين في الدار . ثلاث طبليات كبيرات رصت بحذاء بعضها فوق الحصير على أرضية المنذرة لاستيعاب الرجال والشبان والصبيان والأطفال الذكور . هذه الطبليات نفسها سوف تنتقل بما تبقى فوقها إلى حوش الدار حيث يتم تزويدها بطعام جديد يكفى لنسوان الدار وبناتها من جميع الأعمار . كان الغداء ظفراً ، أربع من الأوز المزغط المحمر ، مع أناجر الفتة بالخل والثوم والصلصة مع سلطانيات الشربة الساخنة وأطباق اللفت والسلطة والفجل والجرجير والخس . دائماً أبدأً تكون الأعصاب متوجسة بصورة قد تصل إلى حد التوتر عند إعداد الطعام، ذلك أن ثمة اعتقاداً راسخاً لدى أهل بلدتنا بأن يوم الجمعة فيه ساعة نحس قد تحدث فيها مصائب ومكاره تصيب سيء الحظ إذ يلتقيها أو تلتقيه . نساء بلدتنا أكثر حساسية من الرجال تجاه ساعة النحس هذه وتوقعاً لها : نجد جدتي معروزة دائمة التنبيه على نسوان الدار بالتزام جانب الحذر في شغلهن أمام الفرن والكانون ووابور الجاز واستخدام السكاكين في تخريط أو تقطيع، تجنباً لحدوث مكروه في ساعة النحس هذه التي يطل شبحها عادة من أول اليوم حتى أذان المغرب ، مع أن نسوان

الدار كلهن غير محتاجات للتحذير من أن تتدلق سلطانية الشرية المغلية على أحد من العيال أو الرجال أو النساء ، أو يتعارك أحد من عيالنا مع أحد من أى عائلة أو يطلع من يرمى بلاءه علينا بأية تهمة باطلة ..

تطلقنا الطليبات بربطة المعلم . أقعت جدتى معرزة على قرافيصها بجانب أبى منكفأة على «اللحوقى» الكبير، قد راحت تفسخ الإوز المحمر موحوحة من لسع الدخان المتصاعد، تققطع الأنصبه وتوزعها بالعدل والقسطاس : خذ يا فلان .. اعطى لفلان .. حتى الكبده على ضالة حجمها توزعها على الجميع . وإذ داهمنا الصوات آتياً من مكان قريب تجمدت أصابعنا ، توقف زحف الملاعق رحنا نتبادل النظرات المتوجسة . رغم الشعور بالراحة الذى ظهر فى عيني جدتى معرزة لأن ساعة النحس قد غادرت حدودونا وأخذت الشر معها وراحت ، فإن شيئاً من التوجس سرعان ما احتل عينيها الفرعتين خوفاً من أن تكون ساعة النحس قد أصابت أحداً من أهالينا ..

كانت قعدة عمى أبو السعود فى مواجهتها ؛ أدرك مافى عينيها، أراد تخفيف الأمر عليها وعلينا ريثما تأكل اللقمة، مازحها :

- «تلاقيهم الفجر وولد أختك يا إما الشيخ عرفات عمرو وعياله تلاقيهم نصبوا السيرك بدرى بدرى !»

واندفع ياكل بحماسة ليفتح شهيتنا ، وقد لاح لى أنه يريد الاسراع بالانتهاء من الاكل لينهض من فوره يبحث عن معنى هذا الصوات الذى استمر أكثر مما كنا نتوقع . عندئذ طرق باب المندرة. فكان الطرق نبوت هوى فوق روعسنا على حين غرة فكدنا ننفكى من الخضة فوق أناجر الفتة؛ وضع فى أعيننا جميعاً يقين بأن ساعة النحس قد هبت علينا . بالفعل صدق حدسنا ؛ وورب الباب، ظهر فرج تراتيرو بكامل هيأته مقبلاً نحونا كزعزوعة

القصب تترنح تحت الريح . لم يعبأ بشواظ اللهب الذى صبته فوقه نظراتنا الحانقة ، ولا بالعفاريت التى ركبت جدتى معزوزة فهمت بأن ترفع اللحوقى النحاس لتهشم به رأسه إلا أنها استغفرت واستعانت بالله من الشيطان الرجيم ثم حزمته بنظرة تطفح بالكراهية . انحشر بين ولدين عند آخر طبلية ؛ سحب ملعقة ، راح يأكل الفتة مع اللفت ؛ جمعت جدتى بقايا الأرجل والأجنحة ، قامت باللحوقى ، وضعت اللحوقى جنب تراتيرو :

- «فزقز دول على ما قسم !»

سأله أبى :

- «صوات من هذا الذى كان يا تراتيرو ؟»

قال وهو يممص أحد الأجنحة :

- «توحيدة بنت خالتك !» .

- «مالها !؟»

- «زوجها قتل فى بلدتهم ! هى الآن فى التيابة !

بعثت تطلب ناساً من أهلها للوقوف معها !»

انتفضنا جميعاً واقفين مدعورين . صوتت جدتى معزوزة :

- «وأقول ساعة النحس راحت !! إذا بها جاءت !»

نسوان الدار وبناتها اندلعن جميعاً على باب المندرة وقد شحبت وجوههن

وأخفت منها الدماء . صرخ عمى أبو السعود فى تراتيرو :

- «يابرودك يا أخى ! توحيدة بنت خالك ؟ يعنى لو لم نسألك ما تكلمت !

ماهى جبلتك بالضبط إن كان لك جبلة !» .

شوح تراتيرو باستهانة واستنكار معاً :

- «وماذا أفعل لها ؟ كلنا سنموت ! وهى بعد كم شهر ستتزوج من غيره
فما المشكلة؟»

جدتى معزوزة فقدت السيطرة على أعصابها، شدت اللحوقى من تحت
فخذها ، قلبته فوق دماغه، راحت تنهال به فوقه كالمجنونة فيما هو يضحك
هاثقاً :

- «عيب ياخالتي ! دماغى ! كفى ! !»

تركناه وحده فى المنذرة مع أناجر الفتة والقطط . صرخت به جدتى :

- «يوه يوه يوه .. حوشي يا مقصوفة الرقبة منك لها ! !»

أوقفت تراتيرو من قفاه ، دفعته نحو باب المنذره ، ألقته به فى الخلاء :

- «لا أرى خلقتك هنا أبداً ! أنت معدوم الحس !

ماعندك ريحة البُضمير ! أنت قليل التربية ! أنت عاقد النية على موت

أولادى ! أنت تريد أن تنقل إلينا مرض السُّل ! يا عالم إن كنا لانزال

بصحتنا ! إتفوه ! !»

أغلقت الباب بالترباس ، استدارت فاصطدمت بخالتي تفيده واقفة

وراءها تتابع ماحدث وهى من فرط الذهول اصفر لونها وهطلت الدموع على

خديها . لأول مرة أرى جدتى معزوزة على هذا النحو من الشراسة والعنف

كذئبة تدافع عن مخدع عيالها . صوتها ذاك الشديد الأنتوية فى قديم الزمن

كأنه عورة يجب سترها عن الرجال ، قد أغلظ وانشرح ، صار لذبذباته وقع

كصوت الكرايبيج تنهال على جسد خالتي تفيده :

- «إذا ما كان يعجبك ما قلته الآن فأتركى الدار لو أردت ! خذى زوجك

معك إن طلبت ! واحد يروح بدلاً من أن أفقد الكل ! لأن أخاك بسلامته

مصمم على تسميم عيشتنا ورمي بلائنا علينا ! طول عمرى أخاف على شعور
زوجك وشعورك لكنى فاض بى ! يجب أن تعرفى أن المريض بالسل شرير
بطبعه يتعمد إصابة الجميع بالعدوى ! وأنا فى حياتى لم أر مريضاً بالسل
فى بلادة أخيك ويروده وسواد قلبه !» .

مشت ، تاركة خالتى تفيدة مسمرة فى وقفته .، انعطفت على الدهاليز ،
بعد برهة ظهرت مرتدية اللبس الأسود وتبشنتت بالطرحة السوداء . ما أن
دلفت إلى الجرن حتى راحت تلوح بذراعيها تطلق صواتاً ملتاعاً . كان
أعمامى جميعاً وكبار أبنائهم قد هرولوا إلى دكان جدتى الحاجة زهرة . بعد
قليل خرجت خالتى تفيدة بنفس المشهد ومن ورائها أمى التى جعلت تلطم
خديها ؛ صار مشهد نسوان العقالوة صفاً من أشباح سود تخترق الجرن
فى حداد مروع .

٢٠ - بؤرة الصيد

معظم أهالى الناحية ، وربما البلدة كلها ، يعرفون أن العلاقة بين «ست عمره» والعقولة متوترة طول عمرها بسبب غطرسة ست عمره وتسلطها وغلظة شخصيتها التى لا تطاق . كانت تخطط لانتزاع عمى أبو السعود أفندى من إخوته ليعيش معها فى دارها الواسعة التى أصبحت تصفر عليها وحدها ، فالدار ملكها من ميراث أبيها ؛ أما والداها اللذان يعيشان فى الأسكندرية فلكل منهما مطرح يخصه فى العمق الخلفى للدار ومفصول بين هذه وتلك بجدر سميكة ولكل من المطرحين باب مغلق بمفتاح فى جيب صاحبه مدخر لطوارئ الزمن ؛ وأما ابنها فرج تراتيرو وأخته تفيدة تراتيرو فلهما ميراث فى دار أبيهما سليم الفرغانى الشهير بتراتيرو وهى دار كبيرة يرتع فيها فرج بطوله إذ هو أعزب ، لم يفلح فى أى زيجة من زيجاته الأربع الفاشلة . إما بسبب عقمه أو بسبب مرضه .

فى إغرائها لعمى ابو السعود أثناء فترة خطوبته لخالتى تفيدة كانت تتمسكن حتى تتمكن ، تزعم أنها محتاجة لمن يملأ عليها الدار ، وأنها مستعدة لأن تكتبها باسم ابنتها وباسمه قبل موتها ؛ كثيراً ما قالت له بالمفتشر :

- «داركم كبيرة أى نعم لكنها أكوام لحم فوق بعضه ! .. العيشة فيها تكتم الأنفاس فكيف تطيق أنت وابنتى ؟ وإلى متى تبقى ماهيتك الشهرية

ليست ملكاً لك؟! يارجل فكها على نفسك وعلى البنت وتعال أقعد عندى أريك
نسمة الدنيا!

لم تتورع عن الدس بينه وإخوته بالوقيعه عشرات المرات وعمى
أبو السعود ينهرها المرة بعد المرة؛ ذات مرة بلغ به الضيق من سخريتها من
عائلته فكاد أن يصفعها بعنف لولا أن حماه ربه من التهور فأكتفى بالضغط
بأصابعه على معصم يدها كاد يكسرها . كان واثقاً من شرورها ، من أنها
تريد الإيقاع به فى مصيدة جهنمية إذ أنها تشتاق لوجود ناس تحت إمرتها
تمارس فيهم الأمر والنهي وربما البصق فى الوجوه كما كانت تفعل مع
عيالها . كان فاهماً لجوانب شخصيتها الوعرة ؛ فطن منذ البداية إلى أنها
كانت فى الواقع تكن له كراهية شديدة العمق وتعتبر أنه قد غرر بها وانتزع
البنت من حضنها وطار بها كالغراب . علاقتها بابنتها تفيدة - كما قد
أصبح معروفاً للكافة - كانت أشبه بعلاقة القطة بعيالها إذا استشعرت
خطراً عليهم فقد تأكلهم لتعيدهم إلى جوفها ؛ هكذا كان عمى يفسر علاقة
حماته بزوجه..

ذلك أن «ست عمره» منذ أن خدمتها الظروف بأن تكون مرضعة للأميرة
بنت الأمير ، ركبها شيطان الغرور فتصورت أنها صارت من أمهات الأمراء.
ومنذ أن قامت علاقة الصداقة والمودة بين خالتي تفيدة وأختها فى الرضاعة
الأميرة بنت الأمير ، خططت ست عمرة لحياة ذات أبهة عالية عن طريق
ابنتها تفيدة بأن تزوجها من رجل عليه القيمة تنتقيه على مزاجها وتنتزعه من
أهله ليعيش فى عبا وتحت سيطرتها بحيث تلغى شخصيته كما فعلت من
قبل مع ابنها الكبير محمد أفندى الذى طفش منها ولولا الملامة لأنكر أنها
أمه أو يمت اليه بأية صلة . فلما تقدم عمى أبو السعود أفندى لخطبة خالتي
تفيدة وهو مدرس قد الدنيا وأفندى معتبر لا فرق بين شكله وشكل أفندينا

الخدوي نفسه ، إضافة الى أنه ابن ناس طبيين محترمين مستورين ؛ لست فيه رقة وعذوبة وحلاوة طبع ، فضلاً عن أنه ابن أخت سلفتها ؛ فتعشمت أن يكون على مرامها ؛ بدأت تطرح عليه شباك خطتها وهو فاهم لكن لا يعطيها آخره . وإذ رأت أن الأميرة قد خاوت ابنتها بالفعل طوال فترات وجودها في منتجعها ذاك الشتوي داخل الحدائق ، وجعلت تغدق عليها هداياها المملوكية الثمينة ومصروفات يد سخية استشعر عمي أبو السعود أن الحقد قد راح يأكل قلب ست عمره من هذا الخير الوفير الذي سيفوز هو به في النهاية . فيما هي الأحق بكل ما يصيب ابنتها من خير إذ أنها هي السبب فيه بما أَرْضَعته للأميرة من لبن صدرها . بل أن ست عمره عجزت عن كتمان حقدِها الأسود ، حدثت عمي بالمفتشر فيما هم يستعدون ليوم الزفاف :

- «شوف يا ابن الناس ! .. ابنتي الآن تعتبر أميرة مثل أختها في الرضاعة الأميرة ! .. يعني سيأتى من ورائها خير كثير .. وليس يرضى ربنا أن تأخذ أنت الجمل بما حمل ! تفوز بالغنيمة وحدك مثل الباشا وأنا قاعدة هنا مثل قرد قطع ! » .

- ياسنتي ربنا يغنينى عن أى خير يجىء من وراء ابنتك .. أنا أحب ابنتك لا ما يجىء من ورائها ! أريدها لوحدها ! بطولها ! حتى يهدومها التي عليها!

شخطت فيه دون أن تتمالك نفسها :

- «ولماذا لا تجىء تعيش معى ملكاً متوجاً على دارى وابنتى ! .. إننى أفتح لك باب الجنة ونعيمها وليس يعجبك ؟! هذا بطر ! »
- «ياحماتى العزيزة أنا .. لا بد أن تفهمى أننى لا أستطيع التخلى عن أهلى وقد سلمنى أبى دفة السفينة فصارت أمانة فى رقبتى ! .. أنا لست

حرا فى هذا الأمر بالذات!! والجنة التى تبعدنى عن إخوتى ، وهم رجال
أفخر بهم كما يفخر الناس ، يكون الجحيم عندى أريح منها ! .. من خرج
من داره يقل مقداره ! »

- «يعنى أنت مصمم على أن تخطف البنت وتطير !

تحرمنى منها ومن خيرها !؟» .

- خذى أنت خيرها واتركيها لى .. اتركينا فى حالتنا لعل ربنا يسهل لنا

ولك ! »

- «والله .. لى .. لكل واحد نبى يصلى عليه ! هذا شرطى لكى يتم

الزفاف !» .

- «خلاص ياستى ! .. ابنتك لا تزال عندك ! والمأثون لم يفتح دفتره ! ..

كل واحد يروح لحاله .. ويا دار ما دخلك شر على الإطلاق ! .. أفوتك

بعافية !»

مشى وهو على نية صادقة بأن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ؛ بل وبدأ

ذهنه يستعرض العرائس اللائى حدثته جدتى معزوزة عنهن من قبل . من

حسن الحظ أن الأميرة كانت فى المنتجع منذ أسبوع مضى وهى من عاداتها

أن تبعث فى استدعاء أختها تفيدة لتسليتها . وحينما عادت من عندها مساء

ذلك اليوم وأحاطتها أمها علماً بما حدث ، صوتت ، قفلت الى السراية ،

ارتمت فى حضن الأميرة باكية . وكانت الأميرة قد التقت عمى أبو السعود

عدة مرات عابرات لكنها اقتعنت بشخصيته ، قدرته أيما تقدير ، سيما وأن

عمتها الأميرة التى أنشأت المدرسة الابتدائية كانت تعرفه وتحترمه جداً ،

وقالت الأميرة الصغيرة لأختها تفيدة أنها تحسدها على هذا العريس

وتعتبره هدية لها من الله جزاء طيبة قلبها .

هالها ما سمعت من خبر ، طرحت العباءة فوق كتفها استدعت سائق الكارثة؛ نقلهما الى دار أمها فى الرضاعة ست عمرة ، بمجرد أن قالت لها الأميرة : يمامي ارتخت أعصاب ست عمره كأنها أخذت حماماً دافئاً بماء الورد والعطور، تنازلت فى الحال عن رأيها . صحيح أنها أظهرت الفرح والسرور بل وزغردت فى الزفة إلا أن قلبها الأسود كان يضمم ضغينة سوداء . فبعد الزفاف كانت كلما زارت ابنتها أو زارتها ابنتها تقوم فتنة فى دار العقالوة تظل حامية الوطيس أياماً عدة؛ لا بد لست عمره أن تغلط والسلام ، بكلمة غبية تمن بها على العقالوة وهى فى دارهم ، بتعليق مسموم على شئ رأته ، بكذبة تكذبها أو فرية تدعيها لبث الفرقة بين عمى وأهله.. إلى أن زهقت منها ابنتها فقالت لها بالفم المليان :

- «أرحمىنى لا تخربى على سايقه عليك النبي!

فانقطعت رجلها عن دار العقالوة ، كل شهر تزورها خالتي تفيدة فى دارها فتعود باكية مهانة .. فلما قامت الثورة وانتزع ملك الأمراء وانقض سامرهم بل انقطع دابرهم من البلاد ، كرهت خالتي تفيدة أمها؛ اعتبرتها نذير شؤم على الجميع؛ قللت من زياراتها، ثم آبت العلاقة بينهما إلى قطيعة كاملة؛ سنوات طويلة طويلة طويلة مضت دون أن تلتقى تفيدة أمها ولو فى رؤية عابرة ؛ لا مواسم لا أعياد لامناسبات بينهما .. الوحيد الذى كان يود خالتي تفيدة هو أخوها فرج تراتيرو ذلك المريض بالسل وهو غير مرغوب فيه .

٢١ - جسارة الخالة توحيدة

امتلاً دكان جدتى زهرة عن آخره بنساء معظمهن من نسوان العقالوة النشيطات البارعات فى السنوات وفى جميع طقوس الحزن ؛ براعتهن فى مراسيم الأفراح إلى حد يورث البهجة. أما الشارع فقد تناثرت فيه جموع من الرجال والشبان والصبيان والأطفال، كلهم يتكلمون فى آن واحد فى موضوع واحد : خالتي توحيدة الجسورة الشجاعة التى أمسكت بقاتل زوجها وسلمته للشرطة يداً بيد، وكيف أنها تقف الآن فى سراي النيابة العامة وهى أرجل من الرجال فى انتظار أن يلحقها نفر من أهلها للوقوف بجوارها وعمل اللازم..

فى ظرف دقائق معدودة كانت الركائب العفية ذات البرادع المنجدة بالقטיפه قد انطلقت تهول بالرجال على شاطئ ترعة السلمونية نحو محطة السكة الحديد : أبى وعمى أبو السعود ومحمد أفندى عمرو وغازى داوود ومختار الشربتلى وحمادة الخريجى . ظلت البلدة كلها ساهرة طوال الليل، يتناقل الرجال الحكاية من مصطبة إلى مصطبة إلى جرن الى دكان إلى تعريشة لمص القصب، والحكاية تنمو وتكبر ، تضاف إليها تفاصيل ومعلومات . وكان ثم مجتمع طلابى قد نشأ فى بلدتنا منذ قيام الثورة، فأمست مثل هذه المناسبات فرصة يتلاقى فيها الطلاب من شوارع مختلفة، ينتبذون من الجموع أركاناً قصية يتسامرون فيها على هواهم، يتركون

العنان لأخيلتهم تصول وتجول في هذه الحادثة أو تلك ، حول هذه الفتاة أو تلك ؛ ليلتئذ كنت أشعر بكثير من الزهو والافتخار بخالتي توحيدة التي شغلت بلدتنا بأكملها في الحديث عن جسارتها كما لو كانت قد أضافت إلى تراث عائلتنا مجدداً تليداً طازجاً ..

حتى بزوغ ضوء النهار لم يكن نسوان العقالوة قد عدن إلى الدار بعد؛ ولكن الصبايا كن نشطات في خدمة الدار على النحو الأكمل، فعمى زكريا وعمى جبريل وعمى موسى كل منهم وجد فطوره جاهزا في صينية نحاسية فوق الترابيزة ذات الرخامة البيضاء المجاورة لسريره ، ووجد من يصب عليه ماء الإبريق ليغسل وجهه أو يتوضأ، ومن يطبخ له الشاي البروك بوند ملء براد كامل . كذلك الصبيان تناولوا فطورهم بغير صراخ أو ضجيج؛ ذهب كل إلى حال سبيله . قرب أذان عصر اليوم التالي فوجئت بفريد عمرو، أكبر الولدين المقيمين في الإسكندرية ابني ست عمره يلتقيني عند مصطبة البسطويسى أفندياً بقميص أفرنجي وينظون وسترة من الجلد في غاية من الأناقة، شعره لامع مصفف بعناية ذي سوافل طويلة كثيفة، لسانه معوج بلكنة بندرية لكنها خشنة مستعارة، كان رجلاً فتياً يتضوع بالعطر ويشعل السيجارة من السيجارة من علبة مبططة في جيب الصدر . عانقتي بحرارة، قال أنه قد وصل مساء أمس الأول يعني الأربعاء ومعه خطيبته الإسكندرية وأخوها الصبي ، قد جاء بهما للتعرف على أمه ست عمره .. جعل يندرب حظه ذاك العكر ، إذ ما كاد يصل حتى دهمه خبر ذلك الحادث المشؤم الذي نكد عليه لدرجة أنه من شدة التشاؤم رفض السفر مع الذين سافروا لابنة عمه ، مفضلاً البقاء مع ضيفيه وإلا فإنها تكون قلة نوق ؛ راح يتفجع :

- «أنا لقيت الدنيا كلها بايظة هنا ! تصور أن أختي تفيدة رفضت دخول دارنا على أمها ؟! تصور أن أمى لاتطبق سماع اسم تفيدة ؟! ... تصور أن أختي محمد أفندى عمرو تجاهلنى حتى لا يضطر للسلام على أمه ؟! .. أنا بقيت فى ربع هدومى يا جدد قدام خطيبتى وأخيها ! أيوووه يا جدد أنا عريان ملط ! .. ليتنى ما جئت ! كان يجب أن أتذكر أن من يخرج من دارنا لا يجب أن يعود اليها ثانية ليشتري دماغه ! لكن الفلاح منأ غبى ! ليس سهلاً عليه نسيان جلده !

على كل حال أهى مرة! الواحد لا يتعلم ببلاش !

كلها ساعتين ثلاثة وتتكلم على الله ! أيوووه يا جددعان ! ملعون أبوكى بلاد! .. لا أقصد البلد والله ! .. إنما .. الإنسان أمه بلده وبلده أمه بكل أسف !

مع المساء عاد المسافرون ومعهم خالتي توحيدة ، على صدرها رضيع وفى يدها طفلة تحبو . قويلت بضجة زلزلت الأرض أفزعت الطفلين ، اختلط الصراخ بالصوات بنهيق الحمير بجعير الرجال بأذان العصر . بعد لأي انسلخ الرجال ، بعضهم إلى داره وبعضهم إلى المسجد لصلاة العصر .

كنت تواقاً لمعرفة ما حدث بالتفصيل. ذلك أن خالتي توحيدة كانت تستطفنى وهى فتاة ، تهز معى على المكشوف هزاراً جنسياً نونما حرج برغم فارق السن الكبير بيننا ، أمى شقيقتها تكبرها بعشر سنوات . كنت أحبها جداً كما لو كانت أمى قد باتت صديقتى فى شخصها . عمى جبريل كاد يموت بحسرتها ولولا خشيته من أعمامى لتزوج منها فوق زوجته ، فهى فى نظره جذابة وإنه ليعشق نحافتها ورشاققتها ووجهها البشوش دائماً وروحها المرحاة وثقتها فى نفسها . قد دار عليها الكثيرون من شبان بلدتنا

متجاوزين كونها شقيقة النادي الهزأة الشيخ عرفات الأعمى ؛ إلا أنها تملصت منهم جميعاً لأن أحوالهم المعيشية كانت لا تكاد تزيد فى شئ عن حالتها مع أمها .. إلى أن رآها فى سوق بلدتنا تاجر ماشية غني يملك قطعانا من الأبقار والأغنام والخيول، له فى كل سوق مريبط بارز ؛ كما أنه محسوب بين أشقياء بلدته المسماة بـ «العجوزين» ؛ وإذا كان اسم بلدته غربيا فاسمه هو أعرب ، اسمه : زقله أبوزرية؛ يضع يده على مزرعة مساحتها ثلاثة أفدنة ترتع فيها مواشيه وكلابه . وقع فى غرام توحيدة من أول نظرة بفضل عينيها القويتين الجريئتين الرادعتين الكاشفتين عن شخصية قوية باجسة . كلاهما كان سعيداً بالآخر فنجح الزواج وعاشت خالتي توحيدة فى رغد ، فى دار بالطوب الأحمر بفرائدات فى قلب المزرعة فيها عفش أفرنجى .

ولم يكن لزقلة أبوزرية ثمة من أعداء .

بنفسها حكمت تفاصيل مقتل زوجها: كان قد دأب طول حياته على الصحو مبكراً لكى يذهب الى سوق أو يشحن السبوبة فى قطار البضائع إلى سوق سيقام بعد يومين إذ إنه لا يذهب إلا إلى سوقين اثنين فحسب إضافة إلى سوق بلدته كل أسبوع . وقد عودته توحيدة على البدء بصلاة الفجر فى موعده ثم المواظبة على أداء بقية الفروض فى مواعيدها طوال النهار . بالفعل - تقول حسن صلاحه . لم تكن تدرى أن الغدر يمكن أن يلاحقه فى عقر داره . كان قد لبس الحزام بخريطة الذخيرة ، والمسدس المرخص تحت الجلباب؛ فى جيب الصديرى محفظته المتفخمة ببتاع الناس . بعد أن شرب الشاي خرج مسرعاً ليلحق بقطار البضائع فى محطة شباس الشهداء وكان الصبى الذى سيوصله بالركوبية واقفاً فى انتظاره على باب

الزربية على الطريق الزراعى . كعادتها كل يوم خرجت إلى الشرفة المطلة على باب الشارع لتشاهد زوجها وهو ماض فى طريقه إلى الباب كى تودعه بنظراتها وتقرأ على حساده ومنافسيه آية الكرسي وبعض آيات تجلب الرزق والبركة .. بحدسها شعرت بحركة أشباح مكتومة الصوت تتخفى فى تعريشة السور ذى الأسلاك الشائكة من داخل المزرعة .. يبصرها الحاد حددت الركن الذى ازداد ظله قتامة بما أضيف إليه من ظل الشبح الذى وضع لها أنه متكور على نفسه وما سورة مدفع رشاش تطرح ظلها على الأرض كأنها طرطور فوق رأس الشبح المتكور ؛ جاءها الإلهام بأنها لو اقتربت إلى الشرفة المتصلة بالمطبخ يصير بينها والشبح المتكور نطة واحدة؛ لحظتئذ - لأجل النصيب - تعطل زوجها عند نزوله من شرفة الباب فأنحنى يربط الحذاء ، عندما صارت هى فى شرفة المطبخ كان هو قد اقترب من باب المزرعة ، رأت ظله زاحفاً على أرض المرمر قادماً من الداخل، استدأر ليفتح باب السور ، دوت طلقات الرصاص مخترقة ظهره وجنبه وكتفه .. لم تدر بنفسها إلا وهى طائرة فى الهواء كالحداة ، لتهبط فوق جسد القاتل ، هبطت به إلى الأرض راكبة فوق ظهره تحيط رقبته بيديها ، الرصاصية الأخيرة جرفت الأرض من تحت أنفه وكادت تصيب الصبى الذى جاء يجرى .. راحت هى تشيل رأس القاتل وتهبده فى الأرض بكل قوتها وغلها حتى أغمى عليه ونزف دماً غزيراً وهى لاتنى تصوت والصبى يصرخ حتى التم الناس وحضر العمدة وأمسكوا بالفاعل ويمدفعه ؛ إلى أن جاءت النيابة فى الضحى والقنيل مرمي على الأرض فى مطرحة مغطى بملاءة ، عاينت وأعطى الطبيب تصريحاً بدفن الجثة ثم .. حملتهم عربية الشرطة البوكس فورداً إلى المركز .

(٢٢) الدخول فى سلك وعرة

فى مركز الشرطة وفى مقر النيابة لاحظ أبى أشياء ، ولاحظ عمى أبو السعود أشياء . وكلها أشياء غريبة تثير الבלبلة . فقد لاحظ أبى أن قاتل زقله أبو زربة يبدو شخصية محترمة ولولا أن توحيدة أمسكته متلبساً ويديه المدفع الرشاش ما صدق أحد أن هذا الرجل الوديع يمكن أن يكون قاتلاً ، لكن الملاحظة التي تكاد تفلق رأس أبى نصفين كما يقول هى ماحدث لحظة وقوفهم على باب وكيل النيابة فى انتظار الأستاذ حامد عبدالعزيز المحامى الذي شدوه على عجل ليحضر التحقيق مع خالتي توحيدة . يقول أبى إن الباب انفتح وخرج منه المتهم مقبوضاً عليه لإعادته إلي الحجز ، فإذا بغازى داوود وصديقه مختار الشربتلى يشهقان فى فزع إذ من الواضح الجلي أنهما يعرفانه حق المعرفة بل المؤكد أن ثلاثتهم على صداقة متينة قوية، الدليل على ذلك ، مدار بين أعينهم من حوار صامت رصده أبى باهتمام وتركيز ، ثم إن المتهم وهو مساق الى الحجز لوى رقبتة فى اتجاه غازى داوود وفتح فمه ليقول شيئاً وفي عينيه ضراعة ، إلا أن غازى داوود غمز له غمزة تحذير مفضوحة إذ ضغط بأسنانه على شفثته السفلى بحركة ذات معنى صار واضحاً بوضعه إصبعه السبابة فوق شفثته أمراً إياه بالآ يفتح فمه بأية كلمة، ثم إن غازى داوود تبادل نظرات جانبية مع صديقه مختار الشربتلى ، الذى اعتراه ارتباك مفاجئ ، فمشى وراء المتهم وبصنعة لطافة

أخذ يتكلم همساً مع الشرطى ثم ارتد عائداً بنظرة موجهة إلى غازى دوواد
تعني بوضوح أن الرسالة وصلت ..

حين استمع عمى أبو السعود إلى ملاحظة أبى بكل هدوء وتدقيق
وإمعان ، تفكر لبرهة ثم قال إنها بالفعل ملاحظة جديرة بأن توضع في
الاعتبار ومن واجبه ان يدرسوها على رواقه لعلهم يعرفوا ما نوع هذه
العلاقة التي تربط بين غازى داوود وقاتل زوج بنت خالتهم زقلة أبو زرية ..
إلا أنه - عمى أبو السعود قد لاحظ ما هو أهم من ذلك فى نظره ، فلقد
أطلعته الأستاذ حامد عبد العزيز المحامى على أقوال المتهم الذى لم يجد
أمامه مفرأ من الاعتراف بالجريمة ، فلقد بررقتله لزقله أبو زرية بأنه -
القاتل - قد ترك لدى زقله كنزاً على سبيل الأمانة ليحفظه فى مكان مأمون
إلى أن تجيء الفرصة الملائمة للتصرف فيه بالبيع لمن يفهم قيمته ، إلا أن
زقلة أبو زرية الذى أوهمه بأنه تاب إلى الله عن أمور الشقاوة وقطع الطريق
وسرقة المواشى منذ أن تزوج بامرأة صالحة ، اتضح انه لا يزال ضلالياً
خرب الذممة لأن ذيل الكلب ما ينعدل لو علقوا فيه قالب طوبى، لقد طرمخ زقلة
ابو زرية على الكنز سنوات عدة، وحينما ألح عليه فى طلبه زعم أنه كان قد
دفنه فى ركن خفى فى مزرعته اكتشفه اللصوص فتسللوا اليه فى غيبته
وسرقوه ، القاتل لم يأكل من هذا الكلام، فاللص لا يسرق من اللص مطلقاً ،
لجأ إلى تهديده بإبلاغ الشرطة، لكن لأن زقله أبو زرية يعلم أن إبلاغ
الشرطة مستحيل تماماً فقد قابل التهديد باستخفاف ، فلم يقو القاتل علي
إطفاء النار المشتعلة فى قلبه جراء الخيانة والبلطجة إلا بقتله وإقتحام بيته
للتفتيش عن كنزه، فلم يدر إلا وتوحيدة تسقط من السماء فوق رأسه
وتمسكه متلبساً فغاب عن الوعي لم يفق إلى نفسه ويعلم بأنه قتل زقله
أبو زرية إلا والنيابة تواجهه بالاتهام.. ولما سأله وكيل النيابة عن طبيعة هذا
الكنز تردد وتلجلج طويلاً، لكنه تحت الضغط الثقيل قال إن الكنز عبارة عن
مائتى فص من الأحجار الكريمة النادرة المثال وعدة شرائح من الذهب

البندقى الأحمر تزن حوالى نصف كيلو جرام.. سأله وكيل النيابة : ومن أين لك هذا ؟ قال إن صديقاً له عثر عليه فى متروكات جده الذى كان فى الأصل تاجراً كبيراً متخصصاً فى مثل هذه الجواهر ، ولأن صديقه غشيم وخواف فقد لجأ إليه يستشيريه فى كيفية التربح من هذا الكنز وما إذا كان يعرف أحداً من كبار تجار الجواهر ؟ فقال له : أشوف ، فجاءه صديقه ذاك ذات ليلة وهو بين الحياة والموت ، كان مضروباً برصاصة وقال إن لصاً كان يطارده ليسرق الكنز منه لكنه تمكن من الزوغان وجاءه ، سلمه الكنز لبييعه بمعرفته على راحته وإلا فإن اللصوص لن يكفوا عن مهاجمته فى عقر داره طالما الكنز عنده . قال القاتل إنه ساعد صديقه فى الذهاب إلى مستشفى المركز حيث تركه فيها للعلاج وعاد من فوره إلى صديقه الأقدم زقلة أبو زربة وفاتحه فى أمر هذا الكنز ، فأبدى زقلة استعداداه لتصريفه ولكن بالحكمة والصبر والنفس الطويل ، وكان مقنعاً فى قوله ذاك فسلمه الكنز على بركة الله وقراءة الفاتحة لتوثيق عقد الاتفاق على الذمة والأمانة لكن الكلب كلب وهذا ماكان يجب أن يتأكد منه القاتل وتلك هى غلطته لكن بعد إيه ؟ ..

رفت على شفتى عمى أبو السعود بسمة موتورة شفطت بقايا الدم من خديه المتكورين. اشعل السيجارة التى انطفأت ثم فركها فى الأرض قرفاً من طعمها ثم أشعل السيجارة التى انطفأت ثم فركها فى الأرض قرفاً من طعمها ثم أشعل غيرها طازجة ، ثم اعتدل بحركة مسرحية ، أعلن فى سخرية ان القضية تبدو هزلية كحكايات ألف ليلة وليلة .. تتسلخ من بعضها .. فانبرى عمى جبريل مازحاً :

- «ولماذا لا تكون ألف ليلة وليلة بكل حكاياتها هى التى تشبه حياتنا ؟ .. اسمح لى يا أذى فأنا شخصياً أومن بأن حكايات ألف ليلة وليلة تقليد لما يدور فى حياتنا من حولنا وبعيداً عنا وما هو معبأ فى أمخاخ الفقراء أمثالنا من أحلام خنفسارية !» ..

بعد شرود عميق استمر لبرهة طويلة .. نطق أبي عبد العال :

- «أبو السعود ياخوى .. ! .. ! .. » .

وارتعث صوته رعباً ورهباً كأنه يوشك أن يغلط في حق الذات الإلهية والعياذ بالله ، صارت الكلمات على شفثيه أشبه بأقدام وجلة تلمس الأرض وترتد في الحال خوفاً من الخوض في أرض رخوة موحلة، أخيراً أمسك جيداً بمقود العبارات :

- «هذا الرجل .. معلش بقي ! عدم المؤاخذة يعنى .. سامحنى يارب ! .. سامحنى ياجماعة .. الرجل غازى داوود هذا .. نحن لم نكرهه من قليل .. نحن ياما تبرأنا منه : .. إنه مثلما قال أبوكم يرحمه الله : وصمة عار لازمة لا دين ! لهذا قاطعناه كما تعلمون منذ وقت طويل مضى ! بترناه كما أوصى الشيخ المرحوم لئنجو من طرطشاته ومصائبه ! واليوم .. صدقوني ولا تلووموني .. أصبحت أتمنى أن يقصف الله عمره ! دمي يغلي منه الآن والسبب في نفسي لايزال غامضاً لكنه سوف يتضح عن قريب بإذن الله !! ..

أطرقوا جميعهم إلي الأرض إلا عمى أبو السعود ظل رافعاً رأسه مسلطاً عينيه على حنك أبي على أمل أن يسمع منه جملة جديدة تكون محددة ومفيدة . وإذ ينس من المط في اللجاجة صاح في أبي بنفاد صير ليس ينسى أنه يكلم أخاه الأكبر :

«ماذا تريد قوله بالضبط ؟ قل وخلصنا ! ما معنى أن يوقفك الحياء عن

القول وأنت قد خرقتة بادية ذى بدء ؟ !» .

رفع أبي ذراعه المشعرانى الطويل فى الهواء صائحاً بلهجة تقريرية

حازمة :

«أقطع ذراعى هذا وأرميه للكلاب إن ما كان غازى داوود هو صاحب

الكنز الذي تكلم عنه القاتل فى التحقيق ! » .

صار للصمت رنين جواني مرعب . عيون الجميع كلهم صارت كعيون
برج الحمام في بَيْتِهِ دائرية ، خروم تجمدت فوقها الحمام مذعورة لبرهة
وجيزة ثم ما لبثت حتى تطايرت في نظرات شغوفة فضولية ذات مناقير
وحبوب القمح على شفتي أبي وهي تتدافع نحوهما تنقره ، تود لو تشقب
رأسه ليخز منه الكلام ..

عمى أبو السعود كان أول من اهتز لدى سماعه قسم أبي، صار يردد
كأنما لنفسه ..

«والله يي يي .. ممكن يا عبد العال ! لماذا لا ؟

كل شيء ممكن في الزمن الأعوج ! .. يظهر والله أعلم أن العوج في
أضلاعنا في أصلابنا والعرق دساس كما تعلمون ، فمن نلوم يا ربي!» ..
قال أبي لمزيد من التأكيد :

«غداً أذكركم عندما تبين الحقيقة !.. ما شفته بعيني في النيابة يقول ما
قلته الآن بالصوت العالي : غازي داوود هو صاحب الكنز الذي فضحه
القاتل !» ..

بعد طول صمت وتأنف من انحراف الحديث إلى أرض الأشواك
والذنوب قال أخيراً عمى زكريا :

- كفى يا عبدالعال كفى .. يا أخي ! .. سمتمت خواطر الولاد بما فيه
الكفاية ! .. » ..

وهو يغمز لنا .. نحن المقصودين بالولاد .. علامة على أنه يمازحنا
هتف عمى موسى :

«والأولاد كيف يقعدون مع الرجال أصلاً؟! ..

فيلومروا بالقيام إلى النوم حتي نستطيع أن نتفاهم على راحتنا!» ..

بجدية من لم يلحظ الغمزة قال عمى جبريل :

« لا يوجد أولاد هنا يا موسى .. القاعدون معنا الآن كلهم رجال

محترمون !» ..

قال أبى :

«طبعاً رجال ونصف ومصيرهم يعرفوا ..»

بنظرة استهجان غاضبة فزعة رفع عمى زكريا ذراعه فارداً كفه فى وجه أبى كأنه يقول : عندك إلى هنا والزم حدودك . الواضح أن أبى استوعب خطورة التحذير فاكتفى بالتشويح المهذب معلقاً :

« علي كل حال للزمن قانون وللأيام أحكام ! » ..

علق عمى موسى :

« حيث كده .. يبقى رجال الغد ينورون .. القعدة .. وتلكم براحتنا! » ..

هتف عمى جبريل :

«ويشاركوننا فى الكلام ! من المصلحة أن يكونوا ملمين بكل شيء! » ..

رمقه عمى زكريا بنظرة قامعة :

«لاتكن كالقطار السريع يا جبريل ! هناك شيء اسمه محطات! . أفهم

يا جبريل !» ..

كان عمى أبو السعود يبحث عن علبة السجائر حواليه فى توتر كأن

الأرض انشقت وابتلعتها ، جعل يردد :

«الله يجازيك يا عبد العال يا أخى ! بعترت دماغى ! مخي يودى ويجيب

.. دخل فى سكك وعرة .. على كل حال ليس وقته ! .. أنا مع عمكم زكريا

فى تأجيل الكلام الآن» ..

وعدل المسند وراء ظهره فسقطت علبة السجائر أمامه ، بفرخة كبيرة

أشعل سيجارة ثم شوح فى وجوهنا :

«من وراءه حاجة يقوم لها ! » .

انقضت جلسة المنذرة ، خرج الجميع إلى الخلاء ، خرجت أنا إلى

مصطبة عمى جبريل وفى نيتى أن أستدرجه قدر الإمكان لعلنى أفهم منه لغز

غازى داوود هذا ، ونوع العلاقة التى تربطنا ، أو لا تربطنا به..

(٢٣) حضور الزمن المغدور

جاءت خالتي توحيدة لزيارة أُمي . تحلقته نسوان الدار كضيفة ازدادت معزة بعد أن شرفت بلدتنا بما فعلت . لم تكن القعدة نسائية لنعتزل في دروة ، إنما كانت قعدة مفتوحة حول مصطبة الجنينة إنضم اليها الصبيان والشبان الذين تصادف وجودهم في الدار لحظتذاك. وباعتباري صديقها القديم وابن اختها الكبيرة والمدلل عندها فقد اصطفتني لأجلس لصقها علي المصطبة وتغمرنى بعطفها ودعواتها بالنجاح في كل الشهادات العالية ؛ ثم قالت إنها - عدم المؤاخذة يا أختي - جاعتنا اليوم خصيصاً لتوجيه الشكر والدعوات بطول العمر ودوام الصحة على ابن خالتها أبو السعود أفندي عقل على سن ورمح لأنه قال لها إنه سيكتب التماساً لوزير البوليس يطلب فيه مكافأة لها جزاء شجاعته في القبض على قاتل زوجها وتسليمه للحكام يدأ بيد ، وبالفعل كتب الالتماس مساء أمس وأرسله بالبريد المسجل المستعجل باسم الوزير ودفع من جيبه أجرة البريد وقال لها ياتوحيدة يا بنت خالتي إذا نفع هذا الالتماس وجاء بنتيجة فإنه سيقم لها حفل تكريم في المدرسة الابتدائية استناداً على مكافأة الوزير لكي تكون قدوة للبنات ومثلاً على الشجاعة ..

انسحبت من لساني وسألتها :

«هل كان يوجد كنز ياخالتي ! وزوجك المرحوم دفنه في المزرعة!»

زفرت ، شوحت بيديها في ولولة واستهزاء ووجع :

«كنز ! ما كنز إلا بنى آدم : كنز ماذا وزفت ماذا ؟ .. المجنون ابن

المجنونة مكري على زوجي من ناس كانوا طمعانيين في المزرعة ولم يقدرُوا على

طرده منها لأنه أخذها بالشفعة بحكم المحكمة! .. يقول كنز! .. نعم الكنز هو المزرعة نفسها! أصحابها منكادين منه لأنه حرمهم من فرصة بيعها بالشيء الفلانى . أنا كنت متخوفة وقلبي يحدثنى بأنهم لن يتركوه فى حاله وكنت أقف فى البلكونة أحرسه يعينى وهو خارج صباح كل يوم! .. يقول كنز؟ يجيء الآن ويفرج على خالى وحال عياله .. عائلته حطت يدها على كل شىء فى المزرعة واتضح أنه مديون لطوب الأرض ويعلم الله إن كنا سنلقى اللقمة غداً أو سنعيش على باب الله!» .

بدا كلامها مقنعاً لى ولكل من استمع ، فى المساء أعدت على عمى أبوالسعود ماسمعتة من خالتى توحيدة ، فقذفتنى فى عيني بنظرة تأنيب أرجحتنى على أسنة اللهب وأشعرتنى بالاحتقار وبأننى صغير تافه .

يبدو أنه أشفق على منظرى مما اعترانى من رعب ورعدة ، بأصبعيه أمسك شحمة أذنى وبرز ظفر إبهامه فيها ، كاد يقطعها محذراً إياي بسبابة يمناه إن صرخت سيقطعها بالفعل ، سألنى :

«لماذا سألتها هذا السؤال يا غبى؟ من الذى أذن لك أن تفشى سراً

من أسرار العائلة!؟» .

ثم ضغط غير عابىء بصرخاتى المكتومة ودموعى المنهمرة :

«هذه أول وآخر مرة! إياك أن تفشى كلمة واحدة مما تسمعه فى قعدة

الرجال! سواء من عائلتنا أو من أى عائلة! وإلا فأنت عيل تظل مدى الحياة

صغيراً حقيراً لا يأمن جانبك أحد .. مفهوم يا ولد؟» .

ثم صفعنى بغيظ حقيقى ، وأطلق سراحي ، وظلت نظراته نحوى غير

صافية لعدة أيام .

عقب ذلك بقليل بدأت ألاحظ أن لونه ينخطف باستمرار ، تنفتح سمرة الغائمة تصير في لون الخشب المثقف .

ثم إنه كان يخلد إلى الصمت فترات طويلة يضطجع خلالها فوق مصطبة الجنيينة ممسكاً بطرف خيزرانة ينقر بها فوق أطراف أصابع قدميه في حركة توقيعية عصبية صبيانية ، فيما هو مسبل الجفنين . كان من الواضح أن هماً ثقيل الوطأ يدوس فوق صدره ..

في نفس الوقت كانت خالتي تفيدة هي الأخرى قد شحب لونها وازرقت مآقيها وذبلت جفونها من بكاء طال أمده في الخفاء .

بدأ قلبي ينقبض ثم ينتفض من شك قاتل بدأ يساورني في أن تكون عدوى السل قد ضربت دارنا في عمى وزوجه ، لكنني سرعان ما عزوت ذلك إلى انفجارية جدتي معززة يوم ركبتها العفاريت بسبب بلادة صهرنا فرج تراتيرو ، سيما وأن حالة الانكسار هذه لم تطرأ على خالتي تفيدة إلا بعد عودتها من دكان جدتي الحاجة زهرة في ذلك اليوم المشنوم .

حدست أن يكون حدث بينها وعمى معارك ليلية طاحنة أدت إلى ما يكاد يكون خصاماً بينهما أدى بدوره إلى هذا الكدر الواضح على كل منهما لدرجة أن أحدهما لم يعد ينظر في عيني الآخر وهو يكلمه إذا اضطر إلى أن يكلمه !..

إلا أن الشيخة تيسير بنت عمى زكريا كان يبدو عليها أنها مثلى مهمومة بحالة عمها وزوجه . كانت تقضى وقتاً طويلاً في حجرة زوج عمها ، تقوم نيابة عنها بالأعمال التي من المفترض أن تقوم هي بها حسب ترتيب نظام العمل بين نسوان الدار .

كثيراً ما أراها خارجة داخلة بكويات من الينسون أو عصير الليمون مع حبتي أسبرين ، أو طبق شربة خضار ..

ديرت الانفراد بالشيخة تيسير على مصطبة الجنية حوالى قرب أذان
العصر . فى شعور بالتوتر والخوف سألتها عن حالة خالتي تفيدة وما الذى
يجرى لها ؟ .. ظمأنتنى إلى أن الأمر لا يعدو أن يكون شوية زعل ، لكنها
حكّت لى مشهداً : أهلتى ، بلبل خواطرى وأفكارى ..

تلك أن خالتي تفيدة حينما وصلت مع نسوان الدار إلى دكان جدتى
زهرة فى ذلك اليوم اللششوم ، وأخذت مجلسها بحداء جدتى زهرة وراحت
تواسيها وتبكي لها ، فوجئت بأفندى كفلق الخشب يدخل عليهن ومعه
سنيورة بتندرية شقراء بملابس الفرنكة ، تقدم الأفندى من خالتي تفيدة
فقاتحاً ذراعيه هاتقاً :

- «إزيك يا تفيدة يا أختى !» .

حملقت فى وجهه مأخوذة ، تبنيت أنه أخوها من أمها فريد عمرو المقيم
فى الإسكندرية عاملاً فى مصانع الهلباوى للغزل والنسيج ، تلقفته فى
حضانها فرحة به كأنه ابنها . ثم إن فريد وضع يده على كتف السنيورة
ونظر لأخته فى غبطة :

- «أعرفك بخطيبتى سهير ! جئت بها لكى تتعرف على أمى وتتعرف

عليها أمى قبلما نكتب الكتاب !» .

أخذتها فى حضانها ، أجلستها بجوارها تحت إبطها . تقول
الشيخة تيسير إن خالتي تفيدة انخطف لونها فى تلك اللحظة فلم يعد
إليها .

تقول إن خالتي تفيدة نظرت فى رقبة سهير خطيبة أخيها فريد
فأبيض وجهها كورقة الرسم وقد عبث بها طفل غشيم فرسم ما يشبه
العينين والحناك والأنف معالم منفصلة مستقلة لا علاقة لها ببعضها .

شهقت دون أن تدري شهقة فزع ، كانت نظرتها قد وقعت على «بنتانتيف» ملفوف حول رقبة سهير ومفروش على صدرها يخطف الأبصار يملأ العيون ، إنه عبارة عن شبكة منسوجة من خيوط سميكة من الذهب الطلياني مرسوم على شكل خريطة الدلتا بفرعيتها دمياط ورشيد يلتقيان حول رقبة العروس . تقول الشيخة تيسير إن خالتي تفيدة ركبتها الرعشة ، مدت يدها ، قبضت على البنتانتيف ثم خففت قبضتها راحت تتحسسها بإعجاب :

«الله على جماله ! من أين جاءك هذا البنتانتيف ياسهير ؟ إنه سمين ! ومعمول خصوصى يعنى ثمنه الشىء الفلانى !» .

انخفضت سهير وارتجت ، لاذت بقارب الصراحة ، تبسمت ، قالت :

« البركة فى نينتى ربنا يخليها !» .

« نينتك من ؟! » .

« أم فريد ! .. ست عمره على سين ورمح !» .

« وهى التى أعطته لك ؟! » .

« حتى إسالى فريد ! .. فريد وأنا كنا زعلانين من الخبر الشؤم وعزما

على السفر ! .. صالحتنى به ! وقالت : عشان تعرفى حتتاسبى مين وحماتك تبقى مين !» .

« من أين أتت به يا ترى ؟! » .

« من صندوق هدومها !» .

« كان عندها من الأساس يعنى !» .

« قالت إنه كان شبكتها وهى عروس !» .

« مبروك يا جيببتي !» .

ربت على كتفها فى حنان . عينها ظلت تحوم حول رقبة سهير فى
انبهار. سرعان ما ضجرت سهير من القعدة النائحة فوقفت :
- «عن إذتك يا تانت !» .

مشت تتقصع برغمها حيث تعين عليها أن تمرق بين كتل من الأجساد
تسد كل المنافذ . زحفت الشيخة تيسير فلاصقت زوج عمها ، همست فى
أذنها :

- «بتانتيف يشبه بتانتيفك يا امرأة عمى الخالق الناطق !» .

- «يخلق من الشبه أربعين !» .

تقول الشيخة تيسير إن زوج عمها لاذت بالصمت من لحظتها . ثم إنها
لاتى تذرّف الدمع ليل نهار ، والرأى عند الشيخة تيسير أن زوج عمها قد
صعبت عليها نفسها وأفافت على أمها التى حرمتها من حنانها وعطفها
وأعطته بسخاء لخطيبة ابنها .

(٢٤) الصاعقة

أصقى أصفياء مختار الشريتلى فى بلدتنا كلها - على الرغم من أنه ليس يصفو تماماً لأى أحد - هو المعلم غازى داوود صاحب أقخم دكان فى بلدتنا من حيث طرازه العصرى الذى صممه البناء بحيث يكون سوقاً ذات أبواب متعددة ، كل باب يختص بركن يبيع صنفاً من أصناف العطارة أو المحاصيل الزراعية والخضروات والفواكة .

وفى زمنه الأول فى ثلاثينيات القرن العشرين كان الدكان هكذا بالفعل يشغى بالزبائن والحركة يبيع بالجملة لتجار صغار من بلدان مجاورة . وكان المعلم غازى داوود ثرياً بمعنى الكلمة بصورة كانت مثيرة للريبة بين الناس على الرغم من أنهم يفهمون شخصيته ويعرفون أنه مغامر جسور ميت القلب يضرب ضربته على طريقة : يا أصابت يا خابت ، إلا أنها كانت كثيراً ماتصيب فإذا هو قد انتقل نقلة أكبر فى ملح البصر .

وقد وفر فى أذهان الناس ، من فرط متانة العلاقة بينه ومختار الشريتلى على امتداد مايزيد على ربع قرن من الزمان ، أن مختاراً هو الذى يملك أسرار غازى داوود التى لايعرفها حتى عياله وأقاربه .

ونظراً لأصالة وجدعنة مختار الشريتلى كما يشاع بين الشبان والصبيين فى قعدات الأجران المنتشية بخيال الليل القمرى فوق أكوام

التبن، فإنه كالبحر يتلقى أسراراً من كل حذب وصوب باعتباره من العياق المخالطين لجميع صنوف البشر من المغامرين وأولاد الليل قطاع الطرق ولصوص المواشى ومهربى المخدرات والقتلة المأجورين ، فتبتلع أمواجه هذه الأسرار المروعة تبدها فى نثار الماء كأن لم تكن ، وأبرع ما فى شخصيته أنه لا يترك أية حسابات معلقة مع أى شقى من الأشقياء يشترك معه فى صفقة أو عملية ، بارع هو فى التخلص أولاً بأول ، بحيث إذا التقى أحدهما الآخر بعد ذلك فكأن أحدهما لا يعرف الآخر من قريب أو بعيد ، إلا غازى داوود ، كلاهما بالنسبة للآخر ستر وغطاء .

فى طفولتى لم أكن أرى أحدهما مسافراً وحده أو عائداً وحده ، أو حتى ساهراً وحده ..

منذ عدة سنوات تدهرت الأحوال بغازى داوود ، فرغ دكانه تماماً إلا من فوارغ الأجوالة والأقفاص والصناديق والرفوف ، وفرشة صغيرة تحت تندة بكية الدكان تعرض القليل من أصناف الغلاقة : فول وعدس وذرة ونشا وقاصوليا ولوبيا وترمس نيء وحلبه حصى وينسون وقرفة وشطة وكمون وما إلى ذلك من تحبيشات يجلس أمامها ابنه الكبير بدير يبيعها لحسابه الشخصى للإنتفاق على عياله ، وابنه بدير هذا هو الذكر الوحيد على ست بنات من ثلاث زيجات ، وهو فى الثلاثينيات من عمره إلا أنه من فرط حديثه ووقاره وحزنه الدفين على الثروة التى بددها أبوه فيما لا يعرف من سكك المغامرات أصبح فى نظر الأعراب يكاد يكون أكبر سناً من أبيه ..

قادتنى محاولات بحثى الدووب لfolk لغز غازى داوود وعلاقته بعائلتنا فنجحت فى التوود إلى مختار الشربتلى باعتباره بوابة الدخول إلى غازى داوود ، شجعنى على ذلك أن مختار الشربتلى من جلاس مصطفى عمى جبريل الملاصقة لباب دكان الحبوب ، بينهما علاقة ود متينة لدرجة أن

الواحد منهما إذا رزق من باب الله بسنة أفيون أو قطعة حشيش ادخرها في محفظته ليقتسمها مع الآخر في قعدة الأصائل الساحرة على هذه المصطبة، حيث قصعة نار القوالح سخنة على الدوام وعدة الشاي حولها والسخان فوق النار لايفرغ من الشاي المطبوخ عى نار هادئة تعطى الشاي نكهة مثيرة للنشوة ..

كنت أظن أن مختار الشربتلى صندوق مفلق لا يستطيع شاب صغير مثلى أن يفتحه ويستخرج منه مايريده من أسرار ، فإذا بى أفاعاً بأنه شخص فى غاية السلاسة بل خيل إلى أنه مفتوح الأبواب والشيايبك ولسانه يجرى بالكلام بغير تحفظ .

كان عمى جبريل داخل الدكان يستمتع بمناكفة إحدى زبونات له ، فى حين كان مختار مترعباً على المصطبة يحتضن الهاون النحاس الثقيل بين فخذيه ، يده ممسكة بيد الهاون وراحت تدق وتطحن بلحة جوزة الطيب المخلوطة بملعقتين من السكر ..

أردت أن أجيء بسيرة غازى داوود بأى شكل . ألهمنى الله سؤالاً وجيهاً يستحق أن أسأله لمختار : ما سر هذا الثقب فى رقبة غازى داوود ؟ ولكنى اندفعت :

- «خال مختار !... غازى داوود...» .

قاطعنى بنظرة استنكار لطيفة باسمه رشقنى بها فى عيني :

- «غازى داوود حاف كده ؟!» .

- «كل الناس تقول غازى داوود ! من غير لقب !» .

- «لكن أنت بالذات وإخوتك وأعمامك لا !» .

- «لا أفهم !» .

- «ما داهية إلا أن تكون تخين المخ !!» .

- «ليه بس يا خال مختار !؟» .

ترك يد الهاون معلقة فى يده وقال بلهجة من يضع خطأ أسود تحت
كلماته :

- «لأن غازى داوود هذا يا أستاذ يابتاع المدارس هو خالكم !... أبوك
وأعمامك وعماتك يقولون له ياخال !» .

نشف ريقى ، لكأنه ضربنى بيد الهاون فوق رأسى بعنف ، الضربة فتتت
دماغى فصرت كأننى أحاول تجميع أشلائه :

- «يعنى غازى داوود شقيق جدتى معزوزة !؟» .

- «وجدتك زهرة وأم حمادة الخريجي ! إيه ؟ ألسنت تعرف ؟ أم أنك

تستهيل !؟» .

لكأننى صرت أشلاءً من جثة تعفنت تحت الرديم وحفر الكلاب حتى
أخرجوها ومزقوها .

صرت فزعاً ، الأرض تدور بى ، الدمع يتجمع فى حلقى يتجمد ، رغبة
فى البكاء بصوت عالٍ أحاول مقاومتها لأبدو أمام مختار كأننى كنت أستهييل
بالفعل ، إلا أننى كنت فى حالة غثيان واشمئزاز ، داهمنى السخط على
العائلة والاحتقار الشديد لهؤلاء القوم برمتهم ، حاولت أن أستوعب الموقف
لكننى عجزت تماماً عن فهم أى شىء ، وكان مختار يرمقتى من تحت لتحت
بنظرة استغراب واستهجان تكاد تتهمنى بأننى أحاول العيث به بمثل هذا
الاستعياط ، مع ذلك لا أدرى كيف اعتذرت له عن استهبالى ، أو ما بدا بأنه
استهبال ، ثم رجوته أن يحدثنى عن رقبة المعلم غازى داوود الخال الأوحد
للعقاولو والعماروة والخريجية ، ذلك الذى لم أسترح لمنظره حتى بعد أن
عرفت صلته بنا .

هكذا حاولت الإيحاء للختار بأنني من شدة قهرقي عنه أنكرت معرفتي
بصلة القريبى .. فيأذا بمختار يكتم مسحوق اليلحة قى قعر الهاون بتلقره
فيما يلسعتى بتظرة فاتحة فكيفها عن أسنان وأنياب كحك الكلب الشرس
حين يزأر على تينة قلدره :

- «يا يا إكسلانس !... أنت لم تكن تعرف !! تعنى على من ؟ على بيانا ؟ ..
عائلتك تقاطع الرجل طول عمرها وتتكر له !... خليك شجاعاً واعترف !
أهلك عندهم حق ! هو فعلاً ابن وسخة من يعرفه لا يخلعه من قدميه إنما
هو فى النهاية خالكم الوحيد وإن تستطيعوا خلعه من دمكم !» ..

ثم ضحك ضحكة قصيرة بدت كأنه تعثر فى مطب :

- «ثم قل لى : لماذا أنت قرفان من شكله ؟» .

قلت له إنه من النماذج القليلة التى لايجد الأطفال وحتى الصبيان
والشبان أية مشاعر تربطهم به .

إن شكله منفر حقاً ، تخيف كالعصا الخيزران ، طويل بشكل مزعج ،
يلف حول رقبته منديلاً مخالوياً لا يخلعه مطلقاً ولا يد أن لديه أكثر من منديل
يغيره إذ إن المنديل جزء أساسى فى شكله منذ وعيت على شكله قبل أكثر
من عشر سنوات مضت ، وجهه مثل كوز من الصفيح قبضت عليه يد عفية
عجنته فى بعضه كينفما اتفق فصارت كتلة من التواء المتكورة والمدببة
والمنفرجة والمتوية والمشروخة ، يتكلم بلا صوت ، بلا حنجره ، حنكه يسفسف
الكلمات كأنها تراب مليل يتنازات اللغاب ، كل كلمة يشد لها نفساً جديداً
من الهواء بيجاهد ليظل ممسكاً به حتى نهاية الكلمة ، الذين يعاشره
فحسب هم الذين يفهمون كلامه ، ومع ذلك يلفت نظرى أنه مبتسم على
الدوام حتى وهو يعاتى فى التحدث ، أو هكذا خيل إلي ..

ضحك مختار الشريتلى بعمق حتى دمعت عيناه وصار يتلفت حواليه
بحثاً عن عمى جبريل فيجد أنه لا يزال يستمتع بمناهدة المرأة فيه حتى بدا
كأنه نسي وجودنا على المصطبة . أخيراً دلقت مختار مسحوق البلحة فى
طبق صغير ثم ركنه تحت كتاب السيرة الهلالية تحت المسند إلى أن يجيء
عمى جبريل .

كان مزاجه رائقاً وعلى سنجة عشرة كعادته كلما التقى عمى جبريل ،
انبرى يحكى عن صديقه غازى داوود كما يحكى عن طفل شقي غريب
الأطوار .

قال إنه طول عمره دماغه طاقق ، لا أحد يستطيع إيقافه عما يريد فعله ،
يخرج من مغامرة إلى مقامرة ، ومن حفرة إلى دحديرة ، من شهيندر التجار
إلى بلبوص لا يجد ورقة توت تستره ، كان ذات يوم بعيد قد سافر فى
مشوار سرى لم يعلم به أحد ، اختفى حوالى عشرة أيام وعياله يبحثون عنه
سلقط فى ملقط ، اشتغل الصوت فى داره ليلاً ونهاراً ، فبن وقين جاعم
الخبر من مستشفى المركز بدسوق أنه يرقد فيها بين الحياة والموت ..
سافروا إليه مذعورين ، تبين لهم من محاضر الشرطة وسجلات المستشفى
أن دورية ليلية عثرت عليه عند ترعة البدالة مضروباً برصاصة فى رقبته ،
نقلوه إلى المستشفى والروح لاتزال فيه ، بعد أن أسعفوه اتضح له أن
الرصاص قد مرت من تحت ذقنه فأخذت فى طريقها تفاحة آدم التى هى
أشبهه ببلكونة الحنجرة ، ركبوا له حنجرة صناعية مؤقتة أشبه بماسورة من
البلاستيك بمقاسات معينة يرن فيها الصوت فتتوضح حروف الكلام أما
علاجه التام فبعملية جراحية ، لابد أن يسافر إلى الخارج لإجرائها وسوف
تتكلف مبالغ باهظة ، وعلى كل حال فإنهم يستطيعون مساعدته على العيش
بهذه الحنجرة البلاستيكية المؤقتة بشرط أن يكون ذلك تحت إشراف طبي
مباشر لوقت طويل .

فى محاضر الشرطة واستجوابات المستشفى قال إنه كان يحمل كيسه فيها فلوس كبيرة فى طريقه إلى لوكاندة بيبيت فيها لكى يتسوق من صباح الغد بدرى بدرى ولكن ولدين بلطجين طاردها بدراجة بخارية وأطلقا عليه الرصاص فارتدى على الأرض فهجما عليه ، نزعا الكيسه من جيبيه وفرا هارين .

ولم تكن الحكاية مقنعة لأى أحد ولكنه أصر عليها ، المهم أنه رجع إلى البلد مهزوماً ومكسوراً ، استعوض الله فيما ضاع منه ، ومنذ ذلك اليوم وإلى اليوم وهو يعيش بدون حنجوة ولا حتى البلاستيكية التى لفظها حلقه ، بقى مكان تقاحة آدم ثقب خبيث يتسرب منه الهواء بوسخه إلى حلقه ، فيصدر صوتاً كرفيف الأجنحة المتكسرة أو زفيف الريح على ورقة معلقة ، ينز مادة لزجة من البلغم تتراكم فوق الثقب ، ولولا أنه يعقد المنديل بإحكام حول رقبته ليمنع الهواء ما أمكنه إصدار صوت ..

حتى هذه الحكاية اتضح لى بعد حين أن الجميع يعرفها ، غير أنهم - كما لو كانوا متفقين على ذلك - دفنوها فى بئر النسيان هى الأخرى . ولكن الصدمة كانت أقوى من احتمالى فى تلك السن الحرجة ، كان ثم سؤال خبيث يلح على خواطرى يكاد يوقعنى فى عقده نفسية : كيف يحق لى - وبأى عين أو روح معنوية - أن أفخر بانتسابى لعائلة تملك هذه القدرة على إنكار الخال إلى حد المحو من ذاكرة العيال !؟

فلئن كانت بهذه القسوة فهل يوثق فى عواطفها الإنسانية ؟ .. العجز عن الجواب الشافى يقودنى إلى الإغراق فى البكاء حتى تشرخت نفسيتى ، لولا أن التقانى - محض صدفة - الشيخ محمد زيدان عباس ، أعظم العميان فى بلدتنا ، مثقف كبير جداً فى كل شىء ولا أحد فى البلدة يقدر على مطاولته أو طول نفسه فى النقاش السبابى أو الدينى أو

الفلسفى أو حتى فى أغنيات أم كلثوم وعبدالوهاب ، كنت أحبه جداً وألتحق به كلما التقيته ماشياً فى الشارع وحده برفقة عصاه الميصرة ، كان خارجاً من المسجد فى طريقه إلى مجلس صلح بين فرعين من عائلة واحدة تقوم بينهما جدران ومباريس من القطيعة والعداء المستحكم الذى يتفجر من حين لآخر عن كوارث ، لدرجة أن أحد فرعى العائلة شطب من شهادات ميلاد عياله لقب العائلة نكايه فى الفرع الأخر ويات إذا مانكر أمامه لقب العائلة صاح صائحهم : نحن لسنا منهم .

كنت واثقاً أن الشيخ محمد زيدان عباس قادر على حقن الدماء على مستوى الدول وليس العائلات، مشيت معه نتكلم فى أمر هذه العائلة ، فقال على سبيل التعليق العابر :

- «إياك أن تتصور أنهم وحوش مفترسون ينهشون لحم بعضهم بعضاً! .. لا يا ولد .. إنما هم ناس طيبون جداً مثلنا وربما أطيب منا ! لكنها ضريبة الحب والإخلاص ..! إن الخصام بين الفرعين خصام حاد وعنيف على قدر ما كان الحب والإخلاص عنيفين !

إن الواحد منا قد لايزعل إذا شتمه أو أهانه شخص ليس يعرف من هو! ومن لايعرفك يجهلك ..! ولكن من تحبه وتخلص له إذا قال مجرد كلمة تؤلك وهو لايقصدها تزعل منه زعلاً شديداً لأنه يعرفك وليس يجهلك ..! إن القطيعة أحيانا تكون مشروعة كنوع من التقية ..! فحتى لو كان الشخص من لحمك ودمك بل ومن صلبك إذا كان سيصيبك منه عار أو ضرر أو ذنب فالقطيعة تقيك منه !» .

نزلت عبارته على صدرى كأنى شربت إبريقاً من الخروب المنثج فى لحظة كنت فيها صديان شرقان .

(٢٥) قانون المصادفة

فيما كنت جالساً عصر ذلك اليوم تحت رف الراديو على رصيف دكان رضوان البقال فى مواجهة مصطبة بسطويسى لكى أكون تحت نظر عمى أبوالسعود طالما هو جالس وفى نفس الوقت أكون قريباً من الراديو لأسرح بخيالى مع مسلسل (سمارة) تلك الزهرة البرية الياضعة التى نشأت وترعرعت فى جو أسود رهيب كما يصفها المذيع ديمترى لوقا بصوته الساحر فى مقدمة التمثيلية كل يوم .. إذ بى أفاجاً بالواد حفناوى التملى ، الذى يوصل جودت أفندى إلى محطة السكة الحديد ويستقبله بالركوية يومياً يتقدم نحو مصطبة بسطويسى قاصداً عمى أبوالسعود مباشرة، ثم يتردد فى وجل، فيشجعه عمى أبوالسعود بابتسامته المشهورة باتساعها وغمزة طابع الحسن فى ذقنه عندها؛ فمال على أذنه ليهمس؛ لكن يبدو أن الاضطراب قد حبس صوته فحاول انتزاعه بالقوة فتدقق عالياً كالماء المحبوس فى الصنبور حين ينزاح العطل من سكتته فيندفع؛ وهكذا سمعنا طرطشة الكلام بكل وضوح، علمنا «أنهم» عثروا على صندوق خالتي تفيدة .

انتفض عمى أبوالسعود واقفاً شاحب اللون يمعن النظر فى خلقة الواد حفناوى بشك واستهجان :

— «أنت جنتت يا ولد ؟! صندوق ماذا ، هذا الذى يعثرون عليه بعد حوالى عشر سنوات من ضياعه ؟!»

لكن الواد حفناوى حلف بالطلاق ثلاثاً أنه يتكلم الجد، وأن الخير أت من بزّ أمه ، أتى به جودت أفندى بجلالة قدره يعنى لا مجال للشك فيه ؛ ثم حكى الحكاية بالتفصيل فلم نجد منفذاً للشك فى صحة ما سمعه بأذنيه اليوم منذ دقائق معدودة ..

جودت أفندى هو آخر من تبقى من رجال سمو الأمير فى بلدتنا . هو من أصل تركى وإن كان قد ولد وتربى فى مصر ويتكلم العربية المكسرة متأثراً بلهجة بلدتنا التى عاش فيها معظم عمره ولكن فى غطرسة واستكبار وعنجبية . إنه آخر من التحق بخدمة الأمير وآخر من تبقى من الخدم على قيد الحياة . كان كرارجياً فى المعية ، والكرارجى هو المسئول عن إطعام العائلة، يجمع المواد الغذائية بجميع أنواعها وييدخرها فى حجرة الكرار وهى مخزن كبير ملحق بالمطبخ مفاتيحه فى يد الكرارجى الأول . هو الآن فوق الثمانين من عمره ولا يزال قوياً صاحى الدماغ، قد شهد رحيل الأمير فالأميرة فالأسرة العلوية الحاكمة برمتها بالموت أو بالهجرة . بعد قيام ثورة يوليو ألحقوه بوظيفة ذات طبيعة مخزنية فى وزارة التموين، ثم أحيل على المعاش ، فأسفر عما كان قد سرقه من خيرات المعية الأميرية أيام كان مسئولاً عن إطعامها طوال فترات إقامتها فى الضيعة وهى قد تصل أحياناً إلى ما يقرب مجموعه من ستة أشهر ولكن على فترات متقطعة حسب نضج محاصيل الحدائق والمزارع .. شارك أحد أثرياء بندر دسوق فى مصنع للحلوى بجميع أنواعها المصرية والشامية والتركية، يتولى الإدارة بنفسه، وبيت كل يوم فى البلدة فى دار اشتراها ورممها فصارت فيلا قائمة بذاتها قرب شاطئ السلمونية محاطة بأشجار الكافور والجزورين، وقد استطاب العيش فيها مع أولاده الثلاثة الذين تعلموا فى بندر دسوق ، فكان طوال

العام الدراسي يرافقهم وأمهم فى بيت مستأجر من شريكه إلى أن تجئ
الإجازة الصيفية فيعودوا جميعاً إلى داره فى البلاد، ثم استكمل الأولاد
تعليمهم فى الإسكندرية، وفيها أيضاً توظفوا فى وظائف مزمومة لا أحد من
بلدتنا يعرف عنها أو عنهم أى شئ ولا هم يحبون أن يعزفوا لإحساسهم
اليقيني بأن جودت أفندى يستكبر على الفلاحين ولا يعطيهم أى فرصة
للتقرب منه إذ هم فى نظره أوياش رعا ع . يسافر إلى دسوق صباح كل يوم
دون كلل ، ويسمى السفر فركة كعب .. إيه يعنى ثلاث محطات قطار لا أزيد
ولا أقل ؟ .. ويعود فى قطار الخامسة مساء ..

رفيقه الدائم فى طريق الذهاب والعودة هو محمد أفندى عمرو، الموظف
بمصلحة المساحة فى دسوق . مع ذلك فإن العلاقة بينهما غاية فى الغرابة
والطرافة معاً ويعرفها جميع الناس ويتندرون بها . محمد أفندى عمرو، ابن
عم عبدالرحمن عمرو والشيخ عرفات عمرو وتوحيدة عمرو وسنة عمرو - أمى
- وأمه ست عمره ؛ قصير القامة ، قمحى اللون كأمه ، ورث عن وجهها
بعض وسامته وحدة ملامحه المنغلقة على نفسها كانغلاق شفتيه بشكل دائم
حتى وهو يشفط نفس الدخان من السيارة لا يكاد يرفع شفته عن الأخرى
مكتفياً بلثم السيارة فحسب وتلك حركة يقلد بها أولاد الذوات فى التدخين
برقة وشبع ليكون ثم فرق بينه والمخانجية . إنما شكل وجهه الشبيه بقطيرة
الغريال، يوحي بأنه من السواهى الذين تحتهم الدواهى ؛ إنه ماء من تحت
تب، فكل قصير مكير كما يقول المثل الشائع . ومحمد أفندى عمرو يكاد
يكون هو المكر بذاته فى بلدتنا . ثم إن الغموض يحيط به إحاطة السوار
للمعصم، لا أحد يدرى كيف يغتنى فى اضطراد واضح . يشاع أن حجم

الرشوات التي يتقاضاها كبير، وذلك من خلال عمليات نصب أبقنفا. وعلمها للمهندس الذي يرافقه . إن شغلته الرسمية : مساعد مساح ؛ المساح وهو يتحركان معاً دائماً ، بألة قياس ورصد عبارة عن نظارة معظمة يتم نصبها على ثلاث قوائم كسببية الجزار ، يفردھا المساعد ، يرصد بها الحدود - أى حدود - والمهندس ، أى المساح ، يقيس بالقصبه ويدون فى ورق . يقال فى قعدات مص القصب وقعدات التبن فى الأجران أقر الليل، حيث تدخين البانجو السودانى أو الخشيش فى سجائر مبرومة سراً - وكما يبلغنا فى الصباح على السنة من قالوا وزعموا أنهم سمعوا - إن المهندس المساح ومساعده ينزلان إلى أى أرض فضاء، فى أية قرية بعيدة عن العمران، ينصبان النصبه، يتلكان فى العمل حتى يتجمع ناس من بينهم أصحاب الأرض، يحاولون معرفة ما هذا الذى يحدث فى أرضهم ؟ إنهم فى توجس دائم من رجال الحكومه وحركاتهم المريبه دائماً؛ بيتعدون عن شخصيه المهندس المتجهم الذى يفتعل الانشغال، يرون أن لابس الجلباب والطربوش أقرب إليهم ويمكن أن يكون بينهم لغة مشتركة مفهومه ؛ فى توجس وحذر يستفهمون من محمد أفندى عن طبيعة ما يحدث ؛ فى توجس وأكثر منهم يهمس فى أذانهم بأن الحكومه ستشيق ها هنا مصرفاً، أو طريق سكة حديد، أو أى مشروع حكومى سيقرب عليه نزع ملكيه جزء - قد يكون كبيراً - من هذه الأرض ؛ وإذا يرى أن السائل قد انهارت قواه وكركبت بطنه يهمس فى أذنه بأنه لو تفاهم مع الباشمهندس قربما يمكنه نرححه المشروع عن أرضه وكتابة تقرير فنى يفيد بأن هذه الأرض غير ضالحة للمشروع . فى الحال يتم التفاهم على مبلغ فى حدود الممكن بالنسبه لصاحب الأرض حيث إنهما يجمعان تحريات عن المكان وصاحبه ومدى قوته من عدمها ..

إلخ ؛ يستقضيه صاحب الأرض بالدين أو ببيع ذهب أو محصول أو بأى شكل، المهم أنه فى بحر يومين ثلاثة يذهبون إلى محمد أفندى فى المكان الذى يحدده لهم، يعطونه المبلغ فى السر والكتمان ؛ يستجيبون لنصحه بإغلاق أقواهم عن الكلام فى هذا الموضوع نهائياً وإلا انقلب الوضع عليهم فتؤخذ منهم الأرض ويدخلون السجن بتهمة الطعن فى ذمة موظف حكومى كبير يعنى يكون موتاً وخراب ديار معا ..

ذلك ما يشاع ولكن أحداً لم يرب عينيه، إنما رأى الجميع هذه السرية المحترمة التى أقامها وسط حديقة منزوية فى الحقول البعيدة تبعد عن دارنا بمشوار يحتاج لركوية ، وأطقم الجلابيب الصوف والطرايش والركايب المطهمة، ورغد العيش الذى يرتع فيه عياله الكثار . أصغر أبنائه يوصله إلى المحطة .. وينتظره فى قطار الخامسة جنباً إلى جنب حفناوى التلمي المنتظر عودة جودت أفندى فى نفس القطار..

الطريق وحده هو الذى يجمع بينهما فى صداقة مؤقتة ومدهشة؛ يركض بهما الحماران جنباً إلى جنب ، من خلفهما الولدان يلهثان يستحثان الحمارين على سرعة العدو .. فى هذه المسافة فحسب يحلّو لجودت أفندى أن يتنازل قليلاً عن شموخ قبعته المعوجة ، وأنفه الطويل الشاهق الارتفاع، وخطوده الحمراء المرغدة، ونظارة الشمس الخضراء القاتمة فوق عينيه الخضراوين أيضاً، يتنازل عن شخطه ونظره المعتاد فى كل من حوله، تختفى من حديثه كلمات الخرسيس والكلبة والحيوانة، ينعدل لسانه التركي يضير لطيفاً وإنسانياً، يخرج صوته غارياً دون ربح أو جعير، يحكى عن ما صادفه اليوم من متاعب ونكت وأخبار، حتى ليستريب كل من حفناوى التلمي وابن محمد أفندى فى أن يكون هذا الرجل الوديع

هو نفسه جودت أفندى حامل كبراج السلطة الأميرية يستلب به ما يشاء من دجاج وأرانب وقطعان ضأن من أصحابها بأبخس الأثمان أو بدون ثمن . . .

يظل كل منهما يحترم الآخر ويخطب وده حتى مدخل البلدة عند مفترق الطرق، حيث يتعين على جودت أفندى أن ينحرف يميناً على ترعة السلمونية مواصلاً الطريق إلى قبيلته الواقعة على ربوة بحذاء كوعة الترعة يتقدمها صفان متقابلان من أشجار الكافور والجزورين . ينحرف جودت أفندى إلى طريقه ذاك دونما استئذان من محمد أفندى؛ يشد اللجام لاويماً عنق الركوبة دونما كلام أو سلام كأن أحداً لم يكن سائراً بجواره طول الطرق؛ ولو تصادف أن تقابلا بعد ذلك في البلدة فإن جودت أفندى لا يبدو عليه أنه يعرف محمد أفندى بل إنه يروح ينظر إلى طربوشه في اشمئناط وغيظ . في كل يوم يتلقى محمد أفندى هذه الصفة الموحجة عند كوعة الترعة ويستمر في الطريق العمودي مخترقاً المزارع على المدقات والقنوات . المفروض أن يمشى من وسط البلد إلى سرايته ولا الحوجة لهذه اللفة الطويلة التي تضطر ابنه المهرول على قدميه إلى أن يخوض في طين أراض مروية حديثاً، إلا أنه منذ ابتنى هذه السراية وبيضها بالبيوية ودهن بلكوناتها وشبابيكها بالألوان الزاهية أصبح يتجنب المرور من وسط البلد نهائياً ؛ يقول لمن يسأله عن السبب في هذه اللفة الطويلة إنه ليس يجب خوتة الدماغ ؛ ذلك لأن مروره في وسط البلدة ركباً سيفرض عليه النوق أن ينزل عن الركوبة كلما مر على ناس مهمين يجلسون على المصطبة خارج الدار ؛ وهؤلاء قد يسامحونه إكراماً لطربوشه ووظيفته الحكومية وسوف يحلفون عليه مقدماً بأن لا ينزل إذ إنهم على يقين بأنه لن يعبرهم وينزل سواء حلفوا أو لم

يحلّفوا فليحلّفوا إذن أكرم لهم ؛ هو أيضاً يعرف أنهم يعرفون بأنه لن ينزل لهم بأى حال من الأحوال ومع ذلك ما يكاد يقترب من قعدتهم حتى يرفع إليه اليمنى ليوهمهم بأنه يهيم بالنزول احتراماً لهم ، فما يكاد حلفانهم يرتفع حتى يعتدل في ابتسامته متقنة الخجل قائلاً : دستوركم ، ثم يمضى ؛ لكنه لو صادفه شخص كالعمدة مثلاً أو شيخ البلد أو أحد رؤوس العائلات المرهوية الجانب فإنه لا بد وأن ينزل مرغماً ، بقفزة واحدة سريعة ، وما دام قد نزل فليسلم بالمرة ، ولربما يلمح شخصاً آخر مهما قادماً من بعيد فيبقى ماشياً على قدميه حتى يبلغه ، وقد يرى أن المسافة إلى سرايته قد صارت يسيرة فيمشيها وأمره إلى الله . هذه الخوته - فيما يقول - لم يعد يطيقها .. ولكن هذه السيرة إن جاءت في قعدة الشاي في مكان رضوان على مصطبة بسطويسى ، يعلق الحصى خفير جتينة العمدة والممسك بسلطنة الشاي فيما هو يرفع البراد ليصب الشاي في الكوبيات الصغيرة رافعاً يده ما أمكن حتى يكون للضب رغوة يتلذذ منها الشاربون ، قائلاً إن محمد أفندى يخشى أن يمر على أمه ست عمرة أو زوج عمه زهرة إذ إنه يستعر منهما وهو الأفندى وهما الجربوعتان ، فيعقب عليه أبو سليمة الصياد وهو ماض في عقد خيوط شبكة صيد لا تنتهي أبداً ، قائلاً إن محمد أفندى ليس يقوى على النظر في وجه أمه من يوم ما بصقت في وجهه أمام جمع من الكبراء في دارها يوم إصراره على تقسيم الميراث والانعزال وحده في عيشة تليق بمركزه أفلا تتذكرون ؟ عندئذ يتفجر رضوان البقال ضاحكاً على غير انتظار وقد إنكمش في بعضه ، يصيح :

- «فكرتني يا رجل ! تصور أنه لا يزال إلى اليوم يمسح البصقه عن

وجهه! ومن لا يعرف يقول إنه يختم الصلاة»
يضحكون مجاملة لرضوان إذ إنهم يدركون من جانب خفى أن رضوان
حاقد على محمد أفندى لأنه لا يشتري طلباته من دكانه.
وحينما همس الحفناوى بذاك الخبر فى أذن عمى أبو السعود وبصوت
مسموع تحولت المصطبة ورسيف الدكان إلى دوامه صاخبة اختلط فيها
الضحك الملتاث بالسخرية المرة من أحوال الدنيا والاستعبار بحكمة الله فى
أن يعود الحق إلى صاحبه ولو بعد حين طويل..

غير أن عمى أبو السعود سرعان ما انتبه إلى شىء، فاستوقف الحفناوى،
رأجه فيما قال، طلب منه أن يعيد حكاية الخبر لكى يتأكد ويتأكد معه
الشهود الحضور مما سمع قبلاً..

قال الحفناوى:

- «جودت أفندى كان يمشى ساكتاً! وفجأة لقيناه يقول: يا محمد
أفندى أما علمت بأننى اليوم شفت صندوق أحتك تقيدة الذى ضاع منها منذ
مدة ولم يعرف البوليس كيف يجىء به؟..»

محمد أفندى كأنه قرصته عقرية! راح ينتطط فوق الحمار ويقول: ماذا
قلت يا جودت أفندى!

ما هذا الكلام الفارغ عدم المؤاخذة؟ إيش عرفك أنه صندوق أختى
تقيده؟! شفته فين؟.. وكان وشه أصفر كالليمونة.. جودت أفندى بعث له
واحدة من بصاته التى تفلق الحجر! قال له: خبيبى أنا لا أتوه عن علبة
المجوهرات الملكية المكتوب عليها اسم الأميرة واسم .. أحتك تقيدة!... شفته
فى مركز البوليس يا خبيبى! البوليس أخيراً قبض عليه! وكمان يا خبيبى

البوليس طلبنى لأتعرف عليه ! إنهم يعرفون تاريخ علاقتى بالأمير والأميرة يا خبيبي! فختمت خبيبي... طب تصدقوا بالله يا جماعة أن محمد أفندى من ريكته جعل الحمار يلف حول نفسه ! أنا انخضيت يا جماعة تصورت أن محمد أفندى يريد قتل جودت أفندى مع أنه كان من المفروض أن يفرح بخبر العثور على صندوق أخته!.. المهم .. قعد طول السكة يترجى فى جودت أفندى ويكاد يبوس رجليه ويقول له: اكفى على الخير ماجور ! اعمل معروف يا جودت أفندى اتركنى أتصرف فى السر من غير بوشة دماغ لعلنى أتعرف على الفاعل الأصلى ! لو طاوعتني يا جودت أفندى فلن أنسى لك هذا الجميل طول عمري!.. جودت أفندى من خبثه قعد يهش الذباب عن نفسه بالمنشه وهو قاصد أن شعرها يلسع وجه محمد أفندى ! وكان باين إنه غير معجب بمحمد أفندى ولا كلامه ! لم يرد عليه ! تركه وعود على سرايته من غير إحم ولا دستور!»

فى المساء وعمى أبو السعود يعرض الخبر على العقالوة شاركوه جميعاً نفس الاسترابة فى تصرفات محمد أفندى وانزعاجه من الخبر . ونزلوا على اقتراح عمى زكريا بأن يتجاهلوا الخبر كأن لم يكن حتى يجيأهم بلاغ رسمى . وفى تلك الليلة بقى القمر ساهراً يتربع فوق جريد النخيل كأنه كلوب إلهى مخصص لهذه السهرة وحدها بهذه العائلة وحدها .. فظل يؤنسهم وينير لهم جحائيق الذكريات البعيدة التى انهارت عقالاتها فتدفقت بغزارة تغمر الجميع وتضر سهم كطعم الحصرم والمياه المالحة..

(٢٦) أحكام الأيام

قالت جدتي معزوزة إن ست عمره بعد أن مات زوجها ، ابن عمها ، وتزوجت من سليم الغرغاني تراتيرو الذي كان أرمل هو الآخر ويكبرها في السن بعشرين عاماً حملت منه للمرة الثانية في ابنتها تقيدة فكانت وش السعد عليها؛ ففي نفس الأسبوع الذي ولدت فيه تقيدة تصادف أن كانت الأميرة الكبيرة في شهرها الأخير فجاءها المخاض أثناء إقامتها في المنتجع فجاء لها بالطبيب متأخراً بعد أن شافت الداية شغلها وأنتعتها بالسلامة، وطوال أسبوع والأميرة تعاني من جفاف صدرها، مما دفعهم إلى البحث عن مرضعة بصحة جيدة، فأخبرتهم الداية أنها أولدت امرأة أحد عمالهم في الجنان واسمها ست عمره زوج سليم الغرغاني تراتيرو؛ فجاء بها على الفور، كشف عليها الطبيب بدقة وقرر أنها سليمة وصحتها كالإمب قوية، فرتبوا لإرضاع الأميرة الصغيرة بمقابل سخي، وأن تأكل ست عمره من طعامهم لكي يكون اللبن الذي سترضعه الأميرة من نفس غذائهم. وقد لفت الأيام وكبرت الأميرة الصغيرة صارت غروساً مثل تقيدة يكاد الشبه بينهما يكون متطابقاً، جاءت بدورها إلى المنتجع إثر عودتها من بعثة تعليمية في فرنسا بمجرد وصولها طلبت أن ترى أختها في الرضاعة ومرضعتها ست عمره . الأميرة استلطفت تقيدة ووقعت أسيرة حياها، صارت توقفها بجوارها أمام المرأة وتقول إنها انقسمت إلى شخصين وأحدة أفرنجية صرفة

والأخرى فلاحه صرفة، وتقيس عليها فساتينها فتجدها لائقة ساحرة سيما وأن جسميهما كأن خراطاً خرطهما على قالب واحد. يوماً بعد يوم باتت تقيدة سميرة للأميرة ذات صفاء ولطف وبراءة حيث كانت حافظة للقرآن كله ولبقة وتجيد التحدث فى مسائل الحلال والحرام والشرائع السماوية وإن بشكل بدائى كما أن لديها موهبة كبيرة فى تفسير الأحلام بشفافية يشعر منها بدن المستمع فما بالك بصاحب الطم؟ وكذلك قراءة الطالع فى الفنجان وفى كف اليد ، كانت قد تعلمت كل ذلك من أمها ست عمره ومن الحاجة زهرة وقعدة رصيفها الذى يؤمه العجريات والمشعوذون كل يوم؛ إلى جانب ذلك كانت تطبخ للأميرة أطعمة فلاحية حريفة تفتح الشهية؛ الأهم من كل ذلك كانت أمينة عفيفة النفس ذات كبرياء فطرى بصورة لم تعهدها الأميرة فى أحد غيرها؛ كانت أختاً للأميرة بحق وحقيق والأخوة عندنا يافلاحين لا تقبل القسمة أو الفرقة أو الخيانة؛ مما جعل الأميرة تفرح بها كأنها عثرت أخيراً على الأخت الملائكية أو القرين الملائكى؛ لا تجد من تحكى له أسرارها وهمومها سواها فتجد من الدفء الحقيقى ما يعينها على تفتيت هذه الهموم وحل جميع المشاكل ببساطة؛ جاء حين من الدهر كانت الأميرة تأخذها فى معيتها إلى القاهرة مرات وإلى إستانبول مرتين وإلى أنشاص والقناطر والسويس والإسماعيلية مرات عديدة شاهدت خلالها استراحات وقصور العائلة المنتشرة فى كل مكان فلا يبين عليها حقد ولا حسد؛ وكانت الأميرة تتمنى لو تطلب منها أى طلب فيه منفعة لها فلم يحدث؛ ودائماً أبدأ تقول لها: مش عايزه حاجة ياتفيدة؟ فتقول لها نفس الرد : عايزه سلامتك ياأختى، وكانت كلمة «ياأختى» تعجب الأميرة على لسانها الفلاحى. ويوم مات سليم الفرغانى جاءت الأميرة بنفسها لتقديم واجب العزاء لمزضعتها ست عمره .

هكذا باتت ست عمرة ذات نفوذ قوى فى البلدة. ركبته الغطرسه حتى ضاق بها جميع الأهل والجيران والتحاب، انصرفوا عنها جميعاً. انزلت، ضارت كائناً عدوانياً يخانق الذباب والتراب والهواء. فلما تقدم عمى أبو السعود بخطبة تفيدة كان كأن العناية الإلهية بعثته لإنقاذ الصبية من نار جهنم التى كانت فيها، وإذ تعرفت عليه الأميرة وأعجبت به وقدرته وخلصته من تعنت ست عمرة وغطرستها، أصرت الأميرة على أن تخرج أختها العروس ليلة الدخلة من سرايتها. بالفعل بدأت الزفة من سراية الأميرة بالطبل والمزمار البلدى، لفت شارع داير الناحية من منتصفه مختصرة الطريق إلى دارنا، فى حين امتثل العقالوة لإصرار محمد أفندى عمرو على أن يستحم العريس فى داره ليخرج بالزفة الكبرى من باحة الدار على شارع داير الناحية من أوله فتأخذ الزفة لفتها عائدة إلى جرن العقالوة ليجد العروس فى انتظاره فى حوش الدار وبرفقتها سمو الأميرة شخصياً.. فكانت دخلة عمى أبو السعود تاريخية بمعنى الكلمة رفعت من قدر العقالوة إلى مكانة يحسدون عليها.

أطعم الفساتين والقمصان الشفشتى والأحذية والجوارب والسنتيات التى دخلت بها العروس كانت فرجة لسنوات طويلة سيما وأنها بقيت طول عمرها للفرجة فحسب لأنها لم تكن تلائم الحياة فى دار العقالوة بأى حال من الأحوال.. إنما كانت المفاجأة الكبرى هى ذلك المسمى بالصندوق؛ هو إذن لم يكن صندوقاً بمعنى الصندوق إنما كان عليه مجوهرات تسمى بالشكومية وهى تأخذ شكل الصندوق الصغير، طوله ثلاثون سنتيمتراً وعرضه عشرون وارتفاعه عشرة سنتيمترات؛ وصفه كل من رآه من كبار العقالوة بأنه تحفة ملكية ثمينة مبهرة، مصنوع من أرقى أنواع خشب الجوز أو ما أشبه، مبطن من الداخل بالذهب الإبريز، ومطعم من الخارج بأحجار

كريمة من الدر والياقوت والزبرجد والعقيق والكهرمان وأنواع أخرى غير معروفة الاسم إلا للخبراء؛ وهذه الفصوص ذات الأحجام والأشكال والألوان المختلفة كانت تبدو كحديقة من الألوان المبهجة يشعر من يشاهدها كأن أصالتها قد انتقلت إليه. قيل إن الأميرة كان لديها من أمثاله الكثير مما أهدى إليها من ملوك وأمراء وسفراء ووزراء وأهل وأصدقاء، وإذ أغدقت على أختها في الرضاعة في شراء مصاغ لها على الذوق الأميري إختارت هذا الصندوق الشكمية ووضعته فيها، ولصفاً نفسها وجمال روحها أرادت أن تضفي على هديتها لأختها قيمة تاريخية تشرفها بين الناس، أوصلت أحد جواهرجية العائلة العلوية بأن يكتب في بطن الصندوق، بالجفر على البطانة الذهبية كلمة من سطرين تفيد بأن الأميرة فلانة قد أهدت هذه العلية بمجوهراتها لأختها في الرضاعة تقيدة سليم الغرغاني، ثم وقعت بامضائها وسجلت تاريخ الإهداء بليلة الزفاف وقالت لعمى أبوالسعود وهي تراه هذا التوثيق إن ذلك يؤمن العلية ويحفظ حقكم فيها لأن وجودها عندكم وهي ذات مستوى ملوكي قد يثير الريبة. المصاغ كان أكثر من اللازم فوق شبكة عمى أبوالسعود، أشكال مما يلبس في الرقبة، أنواع مما يحيط بالمعصم كالأساور، ألوان مما يتدلى في الأذنين، ومما يزين الأصابع، وتشبك على الصدر، ويربط جداول الشعر، ومنها ما هو للسهرة وما هو للبيت والمناسبات والحفلات كأن تقيدة أميرة بالفعل ذات علاقات وسهرات ومناسبات وما إلى ذلك مما يلزمه لبس وزينة.

لم يعد للناس ثمة من حديث سوى هذا الكنز الإلهي الذي هبط من السماء على بنت تراتيرو وكأنها الأميرة ولكن بلا إمارة. كان الذين يأتون للصباحية على العروسين يقضون وقتاً طويلاً في الفرجة على الصندوق وعلى ما فيه تلمع في عيونهم نظرات الحقد والحسد بشكل لا يقوون على إخفائه.

كان الجميع يخلبهم ذلك المكتوب في بطن الغطاء إذ إنه يعنى أن تقيده قد
صارت بالفعل أميرة بموجب هذه الوثيقة

طالت لحظة الصمت وامتلاً الفضاء القمري بنقط سوداء تبدو كأنها كلمات
ضمرت من طول الصمت والجفاف ترسلها إلى الأفق عيون الكبار بنظرات
يعتريها هلع قديم تعرفه طفولتى جيداً، كل ما كان يصيبنى بالاضطراب
النفسى والكتابة فى طفولتى البعيدة بسبب هذا الهلع القديم يعترينى الآن
كأننى ارتددت إلى عالم كنت قد نسيتته مع اندياح الهلع فى عيون الكبار
طوال السنين الفائتة؛ وكان ذلك الهلع القديم يقف وراءه ضياع شىء ثمين
جداً من العقالوة انقلبت له الدنيا فى دارنا لأيام طويلة نرى خلالها
الطرايش والبرانيط من أفندية وعسكر يمطرون الجميع بالأسئلة الرهيبة،
يأخذون ناساً ثم يعيدونهم بعد أيام، وكأن كابوساً أسود خيم بأجنحته على
دارنا فيما نحن الصغار لا نفهم مما يدور شيئاً ولا نعرف حتى كيف نسال؛
وأخر ما أذكره من هموم ذلك الهلع الكابوس القديم كلمة قالتها خالتي تقيده
وهى تنظر لأخيها فرج المريض بالسل فى أوائل ظهور المرض عليه فيما
تبكى بحرقة:

- «لو كان الذى ضاع لم يضع كنت صرفته كله على الحكماء من أجل
شفائك يا حبة قلبى يا أختى»؟

تؤكد عدسات طفولتى اللاقطة أن خالتي تقيده كانت محروقة الكبد من
ألم دفين، ولم أكن أستطيع أن أعرف هل هذا الألم العميق فى صوتها
ودموعها يسبب ضياع ما ضاع أم بسبب من مرض أخيها الشقيق
الوحيد؟..

فى تلك الليلة القمرية حكّت نفيسة بنت عمى زكريا - وهى أكبر بنات الدار قاطية - كيف كانت هى السبب فى اكتشاف ضياع الصندوق: كانت تلعب مع العيال فى الجنية فعثرت على خاتم خالتي تقيدة ذى الفص الياقوت، طلعت تجرى صارخة:

- «يا امرأة عمى! يا امرأة عمى لقيت فى الجنية خاتماً يشبه خاتمك!» -
«يشبهه»!؟

ولبسته فى أصبعها ناظرة للبنت فى تشكك:

- «إنه خاتمى يابنت! من أين جئت به يامقصوفة الرقبة»!؟

شهد العيال كلهم بأنها عثرت عليه أمامهم فى هذه الحنة؛ وسحبوها إلى المكان فإذا هو المر الموصل إلى باب الحديقة؛ مشت على المر إلى الباب فوجدت «السقاطة» - لسان الكالون الخشبى - مرفوعة عن مبيتها؛ هذا الباب لا أحد يفتحه على الإطلاق إلا من داخل الجنية وهو فى العادة لا يستعمل لأن الزريبة لها باب خاص على الحارة ولها ، مثل المخزن ، باب داخلى يفتح على حوش الدار؛ عندئذ لعب الفأر فى عيها وانقبض قلبها، ارتدت مهرولة إلى حجرة نومها، فتحت الدولاب، لم تجد للصندوق أثراً ، صرخت، صوتت، لظمت، أصابتها لوثة كالثكى راحت تخريش فى الأرض وتشد شعرها وهى لا تنى تردد فى فجيرة:

- «الهدية!» تروح المجوهرات فى داهية بس الصندوق! اسمى! اسم الأميرة! التاج الملكى! ياما جاب الغراب لأمه!.. جاتنى ستين نيلة! أنا برضه كنت وش هدية ملوكى!؟.. هى قلة الأصل حتسيبىنى فى حالى!؟.. يادى الوقعة السوداء! ياخرابى! يافضايحى! ياعار العقالوة!»!

ويومها رفض عمى زكريا وعمى أبو السعود أن يتهما أحداً بعينه درأً لذنوب الافتراء بغير دليل.. وكان من الواضح أنهما اختلفا حول هذه النقطة، اتضح ذلك من خلال الحكاية التى حكاها أبى تعقياً على حكاية نفيسة بنت عمى زكريا. قال أبى وهو يعصر جبهته بين إصبعيه فى لهجة انتصار:

«أنا قلتها من يومها.. عين فرج تراتيرو كانت تبخ شراً.. أنا لست
تائهاً عنه عدم المؤاخذة يا امرأة أخي! لعن الله قوماً ضاع الحق بينهم!»
ثم أعاد علينا تفاصيل المشهد؛ قال إنه فجر ذلك اليوم الذي ضاع فيه
الصندوق كان أتياً من المسجد عقب صلاة الفجر فرأى فرج تراتيرو أتياً من
وراء جنيبتنا مضطرباً مرتبكاً يحتضن عباءة مطوية؛ وما جعل الشك يساور
أبى علمه بأن الدار تقريباً فى تلك الليلة خالية من الرجال، فكل من عمى
جبريل وعمى موسى كانا بائتين فى الغيط، وعمى زكريا وعمى أبوالسعود
يذهبان إلى المسجد قبل أذان الفجر بوقت طويل إذ أن عمى زكريا كثيراً ما
يتورط فى الأذان والاستغاة لكثرة غياب المؤذن، وعمى أبوالسعود هو الآخر
متورط فى درس قصير قبل أذان الفجر بقليل، وفى تلك الحصة كانت خالتي
تفيدة يومها منوطة بجلب البهائم ، أى أن حجرتها المظلة على الجنية كانت
خالية؛ ولأن أبى غير مستريح فى الأصل لعلاقة صهرنا تراتيرو بصهرنا
عبدالرحمن عمرو الحلاق ذى السلوك المعوج، لذا فقد كان لابد أن يسأله:
«مالك يا تراتيرو؟! ومن أين جئت فى هذه الساعة!؟»

أجابه لاهتأ وهو يهرول فى اتجاه دار محمد أفندي عمرو على الشاطيء
المقابل لترعة خلاف:
«أطارد ثعلباً أكل فراخ الجيران!»

وفى الضحى تم اكتشاف ضياع الصندوق. وبناء عليه انبرى أبى -
وخالتي تفيدة تنصت إليه بإمعان وقد بدا عليها أنها الآن تتمنى معرفة اللص
حتى وإن كان أخاها وأنها ليست تستبعده وهامى تتلف على دليل يقنعها
- مؤكداً فيما يشبه التقرير الحاسم بأن الصندوق قد خرج من دارنا بمعرفة
صهرها فرج تراتيرو فجر أن التقاه يحتضن العباءة المطوية. تلقائياً - بفعل
الغضب الذى تجدد الليلة - أيده عمى زكريا قائلاً إن الله منتقم جبار.

أصاب تراتيرو بمرض السبل يأكل في رثتيه عقاباً له على ما فعل. أيدته
جدتي معزوزة كالكورس يعزف نفس الترجيع بكلام آخر:

«حسرة على عبدالرحمن ولد أختي! أدخله الله جهنم وهو حي!

سبحانه! يهمل ولا يهمل!»

لأذت خالتي تقيدة بالصمت مقهورة بائسة، فيما راح عمى أبوالسعود -

ترضية ل خاطر زوجته التعيسة - يحاول التشبث بأهداب الأمل في أن يكونوا

مخطئين في تصوراتهم ويكون صهرانا بريئين.

عقب صلاة الفجر وقد شأشأ الضوء على أوراق الشجر والرجال على

وشك التوجه إلى أعمالهم أو استئناف النوم للضحى، فوجئنا بطرق على باب

المنذرة. وأرب عمى موسى باب المنذرة، فإذا هو فرج تراتيرو، كعادته بمجرد

انزياح الباب يدخل ملقحاً جنته على الكنية طالباً - إمعاناً في العشم - لقمة

يشقق بها ريقه. رمت له أخته - خالتي تقيدة - بالطبق الخوصى، عليه

رغيفان وقطعة جبن قريش وصحن لفت ثم تركته ومضت دون أن تنظر في

وجهه. جاءه عمى موسى الشقي المكشوف الوجه؛ جلس على مبعدة منه ،

جعل يحملق في عينيه متعمداً إرعايه لعله يكتشف ما في داخله . ناديته بأمر

من عمى أبوالسعود الذي وقف في الحوش متخفياً؛ قال لعمى موسى:

- «لا تفتح معه أى مواضيع! فاهم!؟»

قال عمى موسى:

- «فاهم! هوأت يتجسس! يريد أن يعرف ماذا سنفعل بعد انتشان

الخبر!.. أنا قرأت في عينيه كلا ما كثيراً شبه مشطوب!!»

شدد عليه مرة أخرى:

- «لا تفتح معه أى مواضيع!»

- «سأوزعه! يطفح اللقمة وأمشيه!»

- أترك له المنذرة وامش! دع باب الشارع مفتوحاً وسنكر باب الدهليز

من هنا!

إلا وهو أت من باب الدهليز حاملاً الطبق الخوصى بين يديه وقد مسح
ماكان عليه من خبز وجبن ولفت:

- الطبق يا أولاد!

اصطدم بنا فى وقفتنا فى عمق الدهاليز، تقدم نحونا هاتفاً:

- «ياصباح الخير يالى معانا!»

لم يرد عليه أحد، رماه عمى أبوالسعود بنظرة حراقة تقطر اشمئزازاً.
وضع تراتيرو الطبق على الأرض:

- «أنا سمعت أنكم مسافرون إلى المركز قلت ما يصح أن أترككم
تذهبون من غيرى.. أنا جاهز للسفر معكم حالاً!»

لأول مرة فى حياتى أرى عمى أبوالسعود يفقد أعصابه ويتعفرت؛ صرخ
فيه صرخة نفضته عن الأرض نشفت دمه:

- «لا مركز ولازفت! لا رايحين ولا جاين!»

دفع عمى موسى، ثم دفعنى، ثم مشى إلى حجرته يستغفر ربه ويتوب
إليه. قال عمى موسى بغمزة ذات معنى:

- «مع السلامة أنت الآن يا سى فرج!»

سحبنى فمضينا معاً إلى الزربية، قابلتنا خالتي تقيدة في طريقها إلى
حجرة عمى أبوالسعود، تلكأت أمام أخيها:

- «روح أنت يا فرج لا تقف لنا هكذا على الصبح كالعمل الردى!»

- «ماشى ياأختى!»

ارتد خارجاً. ودخلت هى إلى عمى. سمعناها تقول بصوت كمواء القطط:

- «نفضها سيرة ونريح دماغنا يا أبوالسعود أفندى!.. ما راح راح

وانتهى! ماذا سنفعل بالصندوق الفاضى؟ سنجدد مافات من عذاب ونحن ما

صدقنا أن نسينا؟! ياربى لماذا أرجعته؟ ياربى ياترى ماذا نويته لنا وكتبته علينا؟! .. إننا يارب غلابة! يكفيننا مافينا! عوضنا عليك وخلص! كلمة قلناها ولن نرجع فيها فأزح عنا المصائب سايقه عليك النبي وأهل بيته والإمام علي!

- «بس ياولية أسكتى!»

- «أعمل لك شاي ياخويه؟»

- «إعملى!»

- «حاضر ياخويه!»

سبقها خارجاً إلى مصطبة الجنينة . إن هي إلا دقائق وجاءه عمى زكريا، ثم أبى، ثم عمى جبريل، فعمى موسى، فأنا والشيبية. جاءت الشيخة تيسير بنت عمى زكريا، وضعت الطيلتين الكبيرتين أمامنا، وكانت رائحة فطير الذرة باللبن والقشدة قد فاحت من دويرة الفرن وفتحت شهيتنا. أخذت صوانى الفطائر تتوالى قادمة من الفرن رأساً . أثناء شرب الشاي قال عمى أبوالسعود:

- «يكون فى علمكم! نحن لا نعلم أى شىء عن الموضوع ولا نريد أن نعرف! إذا فاتح أحدهم أحدكم فى الموضوع فليشترى منه دون أن يبيعه أى شىء!»

أيده الجميع، قال أبى:

- «سنجمع القطن بعد أيام!»

- «يلزمك أنفار طبعاً!»

- «لا تشغل بالك! سأصرف!»

قاموا وغادروا، اضطلع هو على المصطبة، فرك عقب السجارة فى الأرض، أغمض عينيه فى غفوة، انطلقت خارجاً لانتظر قدوم أبوحواس بالجرائد كى أعود بها إلى عمى.

(٢٧) مشروع نحو الامية

كان عمى أبو السعود أفندى قد أمضى شهوراً طويلاً من العام الدراسى السابق يخاطب وزارة التربية والتعليم داعياً إلى فتح فصول جديدة فى القرى طوال أشهر الإجازة الصيفية لمحو أمية الذين فاتهم قطار التعليم. ولم يكن يدرى أن الوزارة التى نامت على مكاتباته طوال تلك الأشهر يمكنها أن تستجيب فجأة لبدء المشروع وفى هذه الظروف العصيبة بالنسبة للعقولة . أما وقد تلقى تعليمات ببدء تنفيذ المشروع - وعلى نطاق القرى كلها - فإنه قد انتفض فى الحال من هزة الفرح بالعثور على عمل يستغرقه ويشغل وقته الطويل الممل ؛ بدا كأنه قد صغر فى السن عشرين عاماً . ما أن تلقى الإشارة حتى سارع باستدعاء ابن خالته الشيخ عرفات ؛ شرح له موضوع النداء ، شاركه فى صيغته :

- « يا أهالى بلدة الضبعة الكرام ! .. أخيراً
جاكم النور ويسر الله لكم سبيل العلم بالمجان
لكل من فاتته قطار التعليم ! .. من بعد غد السبت
إن شاء الله ستفتح جميع فصول المدرستين
الإلزامية والابتدائية لكل من يريد أن يتعلم
القراءة والكتابة بالمجان .. وسوف يمنح

الناجح شهادة محو الأمية يمكن أن تفتح
له أبواب الوظائف .. يا أهالي بلدتنا الكرام
لا يجب أن تفوتكم هذه الفرصة النادرة!

ولكن الشيخ عرفات عندما بدأ النداء الفعلي فى الشوارع أطاح بالصيغة
المتفق عليها وارتجل صيغة جاءت أكثر حيوية وطرافة وجاذبية كأنها قطعة
فنية تتوسل بالهزل تكريساً للجد ؛ وحيث أنه يعرف جميع البقاع
الاستراتيجية فى بلدتنا ، مصطبة فلان فى الشارع الفلانى، مندرة علان فى
الحارة الفلانية ، وكذلك الأماكن التى يتجمع فيها الناس لأى سبب من
الأسباب .. فعند كل منها يتوقف، يتكئ على عصاه بيد ، واليد الأخرى على
كتف الصبى الذى يسحبه؛ إنه فى حد ذاته فرجة ، بجسده الضخم العريض
المنكبين الجارم العظام، وجلبابه البيسة الأزرق الجريان، وطربوشه المغربى
المبطوش فوق رأسه الأصلع كالزلطة ؛ ثم يطلق عقيرته ببراعة استهلال لايد
وأن تجذب الآذان من أول وهلة فتنصت إلى ما سوف يقول :

- « يا أهالى الضبعة الكرام .. باسم الله الرحمن الرحيم
نون والقلم وما يسطرون .. هكذا يحلف الله بحياة
الكتابة .. واقرأ باسم ربك الأعلى الذى علم بالقلم
علم الإنسان ما لم يعلم ! هكذا يأمر الله نبيه وجميع
المؤمنين بأن يتعلموا القراءة والكتابة حتى لا يكونوا
كالبهائم .. فمن كان منكم يحب أن يكون بنى
أدم فليذهب إلى فصول محو الأمية فى أى
مدرسة تعجبه من المدرستين ! من يوم السبت
القادم إلى ما شاء الله وسيأخذ شهادة يتوظف
بها ! .. أما من يتقاعس ! فليبق طول حياته

ثور الله فى برسيمه !»

حين تنهى صوته إلى عمى أبو السعود انزعج فى البداية لكنه سرعان ما انفجر فى الضحك ؛ فلما خرج إلى الخلاء فوجيء بالناس مهتمين بالأمر، راحوا يستفسرون منه عن مدى صحة المثل الشائع ؛ بعدما شاب ودوه الكتاب .. فأدرك عمى أنه مطلوب منه جهوداً كبيرة ؛ وبالفعل بدأها . بعد صلاة العصر استمهل المصلين قليلاً ؛ ثم جلس بينهم وراح يشرح لهم كيف أن الله سيحاسب المرء على جهله يوم القيامة فضلاً عما يراه فى الحياة من شقاء نتيجة جهله، وكيف أن مجرد فك الخط يفتح أمام الإنسان سكناً سالكة للحياة ، ثم حمل حملة شعواء على من ألفوا هذا المثل السخيف القائل بعد ما شاب ودوه الكتاب، اعتبره دسيسة شريرة تريد للشعب أن يبقى راسفاً فى أغلال الجهل طول حياته فيتوقف نموه ويسهل على المستبدين اقتيادهم كيفما يشاؤون كالأغنام ؛ إنما الحقيقة أن الإنسان قابل لتلقى العلم فى كل وقت وأن .

انتقل إلى الجامع الكبير لصلاة المغرب فيه ؛ عقب الصلاة ألقى نفس الدرس على المصلين بصيغة أكثر إيجازاً أقوى تأثيراً . فى الحال انتقل إلى جامع سيدنا هارون فى غربى البلد حيث يتمركز كبار العائلات ووجهاء البلدة ممن يوقرون عمى أبو السعود وجدى حسن وعمى زكريا توقيراً عظيماً، سعدوا به فى الجامع ، هياؤا له المجلس ، ساعده المستنيرون منهم فى توجيه كلمته بقدر هائل من الوضوح والفعالية حيث كان الدرس عندئذ حواراً حياً بين عقول وإن جهلت القراءة والكتابة وهبت القدرة على الاستيعاب والفهم بل إن بعضهم يتحدث بالفصحى الفطرية بالسليقة التى ورثها عن القرآن الكريم المتداول بينهم ليل نهار . وفى صبيحة الجمعة امتلأ مسجد العقالوة عن آخره وفرشت أرضية الباحة الخارجية بالحصر والأجولة لاستيعاب أعداد هائلة من المصلين جاؤا شغوفين بالاستزادة من المعلومات

التي تقوي من عزيمتهم التي باتت واضحة الرغبة في محو أميتهم . يومها
جلجل صوت عمى أبو السعود على المنبر يحث الناس على اللحاق بركب
الحضارة والعلم الحديث بعد إذ تحررنا من الاحتلال الأجنبي وحكوماته
البيغضية . من فرط صدقه وحرارته وبلاغته كان الناس مبهورين في نفس
الحال من الورع التي تعترهم حين يعرج الخطيب على الحديث عن النبي وآل
بيته الكرام ؛ غير أن الحديث عن آل البيت كان هذه المرة كاشفاً للقوم عن
حقيقة أذهلتهم ، تلك هي أن الطريق إلى آل البيت لن يكون مفتوحاً إلا
بمعرفة القراءة والكتابة، لقراءة تاريخهم ، وقراءة القرآن ، وأحاديث الرسول
عليه الصلاة والسلام .

مساء السبت امتلأت فصول المدرستين عن آخرها بالبشر الراغبين في
محو أميتهم ؛ شباناً وصبايا ، رجالاً كهولاً وسيدات كباراً ؛ تم توزيعهم على
الفصول وتسجيل أسمائهم في دفاتر رسمية ؛ وبدأ المدرسون دروساً
تمهيدية عن أشكال الحروف الأبجدية وربطها بأشياء مألوفة للناس في
الحياة، فالراء مثلاً شكل الهلال، والنون شبه الحلة وفي قلبها نقطة ؛ وما إلى
ذلك من تشبيهات، ولكي يخفف عمي العبء على المدرسين ويخاطب الأعراب
المقيمين في بلاد مجاورة ويجيئون بالركاب كل مساء ، فرض على جميع
طلاب بلدتنا، من حملة الشهادة الابتدائية فما فوق، أن يأخذوا حصصاً على
سبيل التطوع في مشروع وطني كهذا . سارع بمخاطبة المديرية في طلب
كمية من كراريس الوزارة؛ وإلى أن تستجيب الوزارة لطلبه فتح باب
التبرعات في صلاة الجمعة في جميع مساجد البلدة ، كل واحد يضع فوق
المنديل المفرد قرشاً أو حتى مليماً . في صلاة العصر كانت الحصيلة مبلغاً
لا بأس به ، تم انتخاب لجنة من أعيان البلدة سافرت إلى دسوق واشترت
صفقة من الكراريس وأقلام الرصاص ذات الأستيكة منه فيه، وبرايات ، تم
توزيعها على طلاب محو الأمية ، بدأ التدريس عملياً، المدرس يكتب الحروف

الأبجدية على السبورة بالطباشير بالخط الثلث الكبير مرة وبالنسخ مرة وبالرقيقة الثالثة ، تحت بعضها ؛ وهم ينقلونها بخط أيديهم فى الكراريس مع ترديد أسمائها فى تتاليات التشكيل وصوتياته وعلاماته : الفتح والكسر والضم والتسكين . كان جميع الطلاب كباراً وصغاراً فرحين جزلين بنطق الحروف إذ يستكشفون عالماً جديداً من خلالها .

كنت سعيداً لأننى كلفت بجدول مكون من ثلاث حصص كل يوم فى المدرسة الابتدائية فى مرحلة تحويل الحروف إلى كلمات وأسماء . كان عمى أبو السعود لا يكف عن التجوال بين الفصول فى المدرستين يفتش ويبدى الملاحظات ويمتنح ويصحح ويشجع؛ يداعب الفلاح بقوله :

« بكره تنجعص وتقرأ الجرنان بنفسك ! »

وللصبية الفلاحة بقوله :

« إن شاء الله تبقى ست بيت يتمناكى ناس

محترمين ! وتخلفى عيال محترمين ! »

وللشباب :

« بكره تلاقى وظيفة عايزة قراية وكتابة ! »

كل ذلك وهو يرتدى بدلته العتيدة العتيقة ، يتصعب عرقاً ، والمنديل

الأبيض فى يده صار مسود اللون .

رغم أن الدراسة مسائية فإن عمى حريص على الذهاب إلى مكتبه صباح كل يوم لاستقبال رسائل من المديرية أو إرسال مكاتيب إليها . ثم إن مكتبه فى المدرسة يحتل موقعاً ساحراً تحيطه أشجار التوت والصفصاف وذقن الباشا ، يغرى بالجلوس لوقت طويل خاصة أيام القيظ . وقد اعتدت بمجرد أن أصحو من النوم أن أجيء إليه فى المكتب لعله يحتاجنى فى أى مشوار ، أو يعهد إلى بكتابة بيانات دفترية أو أقرأ عليه أخبار الجرنان المطبوعة ببنت دقيق يزغلل عينيه .

(٢٨) ظهور بدر اليمن

فى عز اندماجنا فى مشروع محو الأمية، وأبى وعمى موسى يمضيان الليل فى تدبير أنفار لجمع القطن فى أرضنا ؛ جاء شيخ الخفراء إلى دارنا وقال لعمى أبو السعود أن العمدة يريد أن يشرب الشاي عندنا .

أهلاً وسهلاً مرحباً . بعد صلاة العشاء استقبله عمى أبو السعود على مصطبة الجنينة تقديراً لخصوصيته باعتباره صاحب بيت وليس ضيفاً تلتقيه المنذرة، ثم إن عمى أبو السعود استشعر أن فى الأمر ما يستدعى السرية فابتعد عن المنذرة وما قد تتلقاه من مفاجآت بضيوف وافدين يعطلون البوح والتشاور المكين .

شرب العمدة الشاي وقبل يد جدتى معزوزة طالباً منها الدعاء له فكان له ما أراد فى الحال . قال العمدة لعمى إن السيد ضابط النقطة تحرج من استدعاء عمى خشية أن يكون المشهد غير لائق فى نظر الناس ، فطلب من العمدة أن يزور عمى ليشرّب معه الشاي ويبلغه بأن الست حرمكم تقيده هانم سليم الفرغانى مطلوب منها الذهاب إلى مديرية الأمن لكى تتعرف على صندوق المجوهرات الأميرى الذى كان ضاع منها ولقيه البوليس ..

قال عمى أبو السعود فى دهشة بالغة :

- « مديرية الأمن حنة واحدة؟! يا أخی قل المركز تكون مبلوعة ! » .
هكذا كررها عمى على مسامعنا وسط الليل وهو يحكى لنا ما دار بينه
والعمدة . ولكى يقنع خالتي تفيدة بضرورة السفر معه بدون مناهدة قال إن
العمدة مال على أذنه هامساً بلهجة خطيرة .

- «يظهر أن الموضوع كبر أكثر مما هو كبير من حاله وأنا شممت خبراً
بأنهم أمسكوا بالولد الذى سرقه من السارق الأصى ! .. المهم أن التحقيق
يتم بمعرفة رئيس مباحث المحافظة لكى تروح القضية إلى النيابة جاهزة
مما جميعه !»

برغم هذه السرية انتشر الخبر فى البلدة كلها بسرعة البرق حتى
الأطفال قد سمعوه وردوه . كان عمى أبو السعود قد رتب للسفر إلى كفر
الشيخ بعد غد، نبه على خالتي تفيدة بأن تكون مستعدة نفسياً وبدنياً من
الآن لمواجهة ما قد يتمخض عنه الأمر من مفاجآت صادمة أو قاسية .
وفيما كان عمى جالساً إلى مكتبه فى ضحى اليوم التالى لوصول خبر
الاستدعاء ، وأنا جالس أمامه على الكنية الجلدية ؛ فى مواجهته باب
الفراندة مفتوح على الأشجار؛ قد انتهى من تصفح جريدة الأهرام
وأزاحها نحوى فتناولتها لأتصفحها بدورى؛ فإذا به يرفع رأسه مستنداً
بصره على الشجر عاقداً ما بين حاجبيه فى تكشيرة مفاجئة غاضبة ، جعل
يغمغم :

- « عجائب ! .. الوليه دى إيه إالى جابها هنا ؟! »

نحيت الجرنان ونظرت؛ إنها «بدر اليمن» الملاية ؛ اسمها هكذا : بدر
اليمن، فى حوالى الستين من عمرها لكنها عفية من كثرة المشى ودوام

الشقاء . كان عمى أبو السعود محقاً فى تكثيرته الغاضبة؛ ذلك أن هذه المرأة كانت الملاية الخاصة بدارنا و فجر كل يوم تبدأ فى نقل بلايص المياه من حنفية المكرر القريبة من جرن العقالوة ، عشرين نقلة فى اليوم أو أكثر لشربنا وطبخنا وخبيرنا واستحمامنا وغسيل ثيابنا أما الزرع فيشرب من ترعة خلاف على مرمى حجر من الجنية بواسطة قناة رفيعة متصلة بشادوف - وأحياناً طنبور - وكانت بدر اليمن تأكل وتشرب من دارنا ، وتكتسى بهدومنا وفوق ذلك تأخذ بعض أقداح من المحاصيل .. إلا أنها تمردت علينا فجأة بغير سبب مفهوم، أصبحت تتملعن، تجيء يوماً بعد يوم ثم انقطعت نهائياً ؛ كان ذلك - تقريباً - بعد اكتشافنا ضياع صندوق خالتي تفيدة بعدة أشهر، ويبدو أنها استشعرت أننا بتنا نشك فيمن يتعاملون معنا عن قرب ؛ يبدو كذلك أن واحدة من نسوان الدار أملتها بكلمة أو لوحات باتهامها ..

ها هى ندى تقترب من باب الفراندة ثم تظهر بحجة أنها تسقى أوصى الزرع فى أركان الشرفة، إلا أن من الواضح أنها تتلكأ لعل أحداً منا يناديها ، برطم عمى أبو السعود :

- « هذه الولية تريد قول شىء ! »

- « أناديها ؟ » .

- « لا تعبرها ! » .

ثم أضاف كأنه يعتذر عن هذه القسوة :

- « ولية خسيصة ! ماعدت أعطيتها الأمان ! »

أهملتها وانصرفت إلى تصفح الجرنان؛ لكنها تجاسرت شيئاً فشيئاً

حتى صعدت درجات سلم الشرفة ثم اقتربت من الباب .

- « إتصبحوا بالخير .. إزيك يا أفندي! »
- « أهلاً ! .. أنت إيه إالى حدك علينا هنا ؟! »
- « الفراش بتاعكم طلبنى لأسقى الزرع! »
زام وهو يسلقها بنظرة فاحصة بارقة كانه يراها لأول مرة .
- « وسقيتيه ! شكراً ! أعطنا عرض أكتافك ! »
- « جئت أقول لك ألف مبروك؟! »
- « على إيه إن شاء الله ؟! »
- « رجوع الأمانة - علبة المجوهرات ! أهى رجعت
لكم كما يقول الناس ؟ ألف مبروك : الحمد لله أن
ربنا يبين الحقيقة وينصف المظلوم اللهم الـ .. »
- « من هو المظلوم يا وليه ؟ » .
- « أنا يا سعادة البية ! »
- « يا وليه هل لمسك أحد! أهو تلقيح جتت ؟ أنت التى قطعت رجلك عنا
وتبطرت على النعمة ! »

- « اسألنى لماذا قطعت رجلى؟ »

- « لماذا ؟! »

- « إمراة أخيك اتهمتتى ! والسنت تقيدة تبص

لى بصة توجعنى ! .. وعيالكم البنات يمشين ورائى

فى الدار خطوة بخطوة ! .. وأنا بنى آدم من دم ولحم ! »

بقى محملاً فيها لبرهة ثم صاح بها فى نظرة ثقبت عينيها :

- « أنت يا وليه ! .. مازلت تملأين للسنت ست عمرة ؟! »

وبقيت نظرتة كالبرد تغوص في عينيها تشرخهما ؛ فارتبكت وانخضت ،
اضطربت الألوان على وجهها .

- «نصيبي ! .. لكن خلاص .. ما عدت أملاً لها !..»

الله الغنى عنها ! .. ست غدارة وعشرتها صعبة !

.. على العموم كل واحد منه لله ! ربنا لايسكت

على الظلم ومصيره يكشفها هي الأخرى بما

فعلت في الناس !».

- « طيب ! إتكني على الله ! ربنا يسهل لك ! » .

- «فتك بغافية !» .

مشيت ، اختفت تماماً من الحديقة . أشعل عمى سيجارة واندمج في
تفكير عميق لدرجة أن عروق جبهته وفوديه كانت تنتفخ وتخفق ، أكاد أرى
الدم يتدافع بداخلها صاعداً . فرك السيجارة ونادى الفراش ؛ أمره بأن
يكلف بدر اليمن بسقى الزرع كل يوم، وأنه يريد أن يراها بنفسه يومياً
طوال الأيام المقبلة .

(٢٩) المباحثة

إزاء إصرارى على مرافقتهما وافق عمى أبو السعود ثم استحسن فكرة وجودى معهما وإن كنت سأكلفه ثمن تذكرة كاملة فى القطار . كانت خالتي تقيدة قد انطفأت، انكسرت نفسها بدت ذليلة مهانة كأنها تعيش مكرهة . هزال جسمها أتاح لها ارتداء الملابس العريقة الفخمة التي لاتزال تنضح جدة وأصالة من بقايا هدايا الأميرة. شكلها كان محترماً حقاً وهى تطرح الشال القطيفة على كتفيها النحيلتين وتحيط وجهها بالإيشارب الحريري البنفسجى اللون .

توجهنا إلى مبنى المديرية؛ تقدمنا عمى أبو السعود فصعدنا إلى الطابق الثانى حيث يوجد مكتب رئيس المباحث. استقبلنا الرجل فى ترحيب يتسم بالحرارة. تمعن فيه عمى قليلاً ثم صاح فيه:

- «حضرتك من سنهور؟»

قال الضابط مع هزة من رأسه باسمه:

- «نعم وكان عمى زميلك فى كفاءة المعلمين!».

جىء لنا بالشاى، جىء بمن سيكتب المحضر ليفتح المحضر. جىء بالصندوق .. يا إلهى .. تحفة مبهرة تخطف القلب من بعيد، مهرجان من الألوان الزاهية المتناسقة كأنها الموسيقى . فلما صار بين أيدينا حزنت

قلوبنا على ما أصابه من تشوهات إجرامية، لقد عبثت به أسلحة المطاوى
والسكاكين والمفكات والكماشات في محاولات فاشلة لخلع الفصوص الكبيرة
الثمينة من تشقيقاتها فأزيل بعضها وانكسر البعض الآخر وتفلق الخشب
فى شروخ خفية كالعاهات. رفعنا غطاءه؛ نفس التشوهات فى البطانة
الذهبية؛ حروف مبتورة من اسم خالتي تقيده ، اسم الأميرة باق على حاله
ولكن من الواضح أنه تم ترميمه بعد تشوهه ولكن بشكل غيبى إذ ألصقت
حروف بعد نزعها؛ ويبدو أن الصندوق تنقل بين عدد من الأيدي الآثمة وأن
هناك من انتبه إلى ضرورة بقاء اسم الأميرة كاملاً عليه بوضوح لتبقى قيمة
الصندوق ثمينة وأثرية..

دموع خالتي تقيده تدفقت على يدها وغمرت الصندوق ، فبدا كأنها تحمل
بين يديها جثمان وليدها بعد قتله والتمثيل بجثته . كان منظرها تعيساً ،
بائساً ، مؤلماً ، لدرجة أننى لم أستطع منع نفسى من البكاء بصوت
متهدج..

– «يا ست تقيده ! هل هذه هى علبة مجوهراتك؟».

بكل صعوبة هزت رأسها بالموافقة ؛ فلما رأته لايزال ينتظر جواباً
مسموعاً حاولت التحكم فى شففتيها : «نـ .. نعم .. هو بعينه» .

– راح يملى على من يكتب أن الست تقيده سليم الفرغان الشهير
بتراتيرو عاينت العلبة جيداً وأقرت أنها نفس علبتها التى كانت قد أبلغت عن
سرقته فى المحضر رقم كذا وبتاريخ كذا؛ ثم التفت ناحية خالتي تقيده
مستدركاً :

– «ياريت ياست تقيده تتماسكى وتهدئى حتى نعرف نتكلم
بوضوح!».

ولأنها لم تكن تصلح لأى سين وجيم بأية درجة فإن عمى أبو السعود قد ناب عنها فى الإجابة عن كل الأسئلة المتعلقة بكيفية حصولها على هذه الهدية من الأميرة وكيف تمت سرقتها وفى أى ظروف ومن هم أعداؤها أو حسادها أو خصوم العائلة ..و.. وإلى أن انتهى تحرير المحضر، واسترد الصندوق ليتم تسليمه بمعرفة النيابة بعد انتهاء كافة الإجراءات..

أخيراً وبعد توهان طويل نجحت خالتي تفيدة فى أن تنطق بشيء من الواضح أنه كان كابوساً يؤرقها ويكتم أنفاسها:

« عدم المؤاخذة يا سعادة رئيس المباحث! أحب أن أعرف من الذى سرقتنى وكدر على شبابى ومرر طعم حياتى! ..»

كان رئيس المباحث يرمقها فى إشفاق :

«ياست تفيدة إنه ليس لصاً واحداً! إنهم حلقة متصلة! واحد أخذه من واحد وأعطاه لواحد!

وهكذا .. الحمد لله أمسكنا بآخر واحد! وإن شاء الله كل شيء سيتضح!».

خلال دموعها الهائلة:

«كان مليون بمجوهراتى يا أستاذ! أشكال وألوان حرمت من التمتع بها!».

«نحن أمسكنا الصندوق بالصدفة! واحد مرشد سياحى ذهب يبيعه لواحد تاجر عاديات وآثار مشهور! التاجر شك فى أن يكون المرشد السياحى مرشداً! فتأكد أن الصندوق مسروق! فأبلغنا! عملنا له كميناً وقبضنا عليه وهو يقبض الثمن من فلوس الشرطة!.. وأخيراً أستطعنا أن نعرف من أين أخذه المرشد السياحى المزعوم!».

هتفت خالتي تقيدة:

- «من هو إلهي ربنا يسترك؟».

تبسم رئيس المباحث:

- «سنعرف حالاً!.. والأن بعد إذنكم! سنطلب منكم أن أن تمثلوا معنا

مسرحية صغيرة!».

قال عمى فى مرح مفاجىء:

- «نمثل مانتمثلش ليه؟».

وقف رئيس المباحث متمصاً شخصية المخرج:

- «حضرتك والمدام والأخ تقفون بعيداً وتمثلوا أنكم متهمون! وجوهكم

فى الأرض من الكسوف والخوف! ماشى؟».

- ماشى!».

وقد فعلنا . منظر عمى أبو السعود وهو يمثل دور المتهم المقهور واضعاً

نراعيه فوق بطنه متقاطعين ، كاد يصيبني بنوية من الضحك لولا نجاحي

فى قمعها بالإطراق إلى الأرض وإغماض عيني . صاح رئيس المباحث فى

طلب المتهم عبد السميع المنقراوى . رفعنا أظفارنا فى تحفز؛ دخل مكبلاً

بالحديد من خلف ظهره، رجل قصير القامة نحيف سفروت . وكان رئيس

المباحث قد وضع علبه المجوهرات فوق مكتبه بشكل بارز جاذب للنظر؛ فما

أن لمح المتهم حتى صاح:

- «أهوہ!.. هو دا كنزى! بتاعى!».

قال رئيس المباحث:

- «بص فيه جيداً!».

- «أعرفه من غير بص! إنها عشرة عمر!».

كم سنة وهو فى حضنى أتفرج عليه كل يوم وأخفيه!.. كنت أستخسره فى البيع لكن منه لله مطرح ماراح!..

- «يعنى هذا هو الكنز الذى أعطيته أنت للقتيل زقلة أبو زربة تاجر المواشى؟»

- «هو بعينه!»

ثم أضاف بعد هنيهة :

- «يعنى ظهر الكنز يا بيه! كنتم تتمقلتون على الكنز تظنونى أخرفا.. عدم المؤاخذة لقيتوه عنده طبعاً!»

قال رئيس المباحث فى تمثيل متقن:

- «لقيناها باعه لهؤلاء المغفلين!»

وأشار إلينا فأحمرت وجوهنا من غضب..

انعوج عبد السميع المنقراوى وطرح فوقنا نظرة كأنها سحابة سوداء هبطت فوق روعسنا ؛ هز رأسه وزام بلهجة ذات معنى . تجاسر واقترب منا متفحصاً خالتي تفيدة على وجه التحديد ، ثم وجه عمى . زام مرة أخرى، هز رأسه بحركة من يريد القول بأنه كشف التمثيلية من أساسها، لكنه مع ذلك عاد إلى المكتب بحركة استخفاف واستهزاء:

- «وماله ! .. ماشى على كل حال! لكن .. متأخذنيش يعنى .. متهياً لى إن الست دى هى صاحبة الاسم المكتوب جوه الصندوق يعنى لزمنا تكون أخت الأميرة فى الرضاعة.. لأن ملبوسات حضرتها ملبس أمراء من غير مؤاخذة!..»

- «لأ مفتح يا واد!.. طبعاً .. صاحب دفتر سوابق: سرقة ونصب وختمت

بالقتل!»

- «كل واحد يأخذ نصيبه يابيه!».

- «لكن بما أنك راجل مفتاح وذكى وعرفت صاحبة الصندوق فلابد أنك تعرف من الذى أعطاك هذا الصندوق؟ من أين جئت به؟ صندوق عليه شارة ملكية! واسم صاحبه كيف يصل إليك؟ إما اشتريته أو سرقتة!».

- صراحة ربنا .. لا اشتريته ولا سرقتة!».

- «إذن كيف امتلكتة؟».

- واحد صاحبي ابن سوق له فى عشم! يعنى أنى لا أكل من الأونطة ولا تأكل منى الأونطة! أقدر أحمى من يلوذ بى قال لى :

الصندوق هذا مثل التهمة! ولصوص بلدتى طمعانين فيه ويطاردوننى فى كل سفر وربما قتلونى ليأخذوه! فخليه عندك أمانة حتى تشوف له صرفة!.. أنا كنت أعرف زقلة أبو زرية من زمان .. دارهم كان تحتها طربة أثرية يغرفون منها ويبيعون لبتوع السياحة! مساخيط على جثث على صناديق على مجوهرات وعملات!.. قلت: بس! زقلة أبو زرية هو القناية التى تصرف!.. مارأيك يابو زرية؟

قال : أشوفه!.. شافه إتهيل! قال خليه عندى مدة طويلة!.. ليه ياعم؟.. قال: طيزه ثقيلة فى البيع! يحتاج لترتيب حتى لاينكشف أمره!

.. قلت : ماشى!.. فانت سنة! اتنين! ثلاثة! خمسة! لا حس ولا خيرا!.. آخر المتمة كذب على وادعى أنه دفنه فى المزرعة فانسرق!.. ما أكلت من هذا الكلام طبعاً!.. وصاحبي صاحب الصندوق أجارك الله منه! قلبه بارد يحرق دولة بحالها لتوليع سيجارة! أروح منه فين؟ وأنا؟.. كيف تاكلى الأونطة؟! حلفت لأخلصن عليه هو وزوجته وأدخل الدار أخذ منها مايعوضنى!.. فإذا بينت الكلب امرأته واقفة فوق دماغى!».

- «وبعدين؟»

- «ولا قبلين!»

- «من إذن هو صاحب الصندوق والدم البارد؟»

- «واحد وخلص!»

- «على كل حال نحن عرفناه وقبضنا عليه فجر اليوم!.. ستراه بعينيك

الآن!»

وأشار بأن نعود إلى كراسينا ، فعدنا . قال عبد السميع في

تشكك :

- «ولكن .. كيف عرفتموه ؟ أحب أن أفهم !» .

ضحك رئيس المباحث ساخراً :

- «المسألة كلها عائلية !.. من كان يدعى أنه مرشد سياحي لبيع

الصندوق لتاجر الآثار هو يسرى أبو زربة شقيق القليل زقلة أبو زربة!.. هذه

واحدة .. الثانية : الذى أعطاك الصندوق له ملف عندنا! راقبناه يوم القبض

عليك! المخبر بتاعنا كان فى قفاه وهو واقف يولول مع صاحبه ويقول العوض

على الله فى بتاع الناس!

شككتنا فيه أكثر!.. رجعتنا إلى قضية قديمة كان فيها مضروباً بالرصاص

فى رقبته وكانت المعركة بسبب هذا الصندوق.. وأنت كنت معه ليلتها

وبالأمانة قال لك خذ الأمانة أنت واجرى .. سمعه ورأى الشاهد الذى نقله

إلى المستشفى وأدلى بأوصاف تنطبق عليك .. وبالطبع لابد أن تكون تلك

الأمانة هى هذا الصندوق ! صح الكلام؟»

هز عبد السميع كتفيه فى استخفاف ولا مبالاة . ضغط رئيس المباحث

على زر، صاح:

- «هات الرجل الذى قبضتم عليه فجر اليوم!»

إن هى إلا دقيقة وفوجئنا بالداخل؛ لم يكن إلا .. غازى داوود، خال العقالوة كلهم، باللعار؛ انكمش عمى فى نفسه لدرجة أنه على ضخامته بدا كزكيبة كانت ممثلة بالهواء ثم فرغت منه فانصطفت. أما خالتي تفيدة فصارت كالفأر فى مصيدة، لاتنى تتلفت حواليتها فى ذهول كأنها تقيس حجم الفضيحة؛ عود من القش صارت هى، ثمة من يعصره، أمن العرق أم الدموع كل هذا الانهمار؟.. أخشى أن يصيبها صرع بعد برهة.

غازى داوود تجاهلنا تماماً، تقدم من رئيس المباحث بخطى ثابتة، على شفثيه نفس الابتسامة المقيتة تحت شارب كصرصار متمدد الجناحين .

أشار رئيس المباحث إلى الصندوق:

- «تعرف هذا الصندوق طبعاً!».

الهواء المسحوب يشنشن فى جدران حلقه المثقوب، يستعين به الحلق ليطرد صوت الكلام وهو يطرد الهواء مع الزفير:

- «طبعاً صندوقى!».

هكذا بكل بساطة وصفاقة وقوة..

- «صندوقك من أين؟!».

- «اشتريته بحرُ مالي!».

- «من الذى باعه لك؟».

- «أمها!».

وأشار بذراعه إلى خالتي تفيدة..

- «أمها؟! أمها مين ياراجل أنت؟!»

- «أمها ست عمرة!».

خالتي تفيدة وقعت مغشياً عليها؛ إلا أنها سرعان ما أفاقَت بمجرد أن
تلقاها عمى بين ذراعيه وربت على خديها بكفيه..

- «إذا كنت اشتريته بحر مالك! ما الداعي لأن تهرب به ويطاردك

الصوص! من هم؟».

- «رجالَة أخيها عدم المؤاخِذة!».

- «أخوها من؟!».

- «محمد أفندي عمرو! أصله من أمها! هو لما علم بأنى اشتريته جاعنى

وقال لى هاته ولا داعى للفضايح وخذ ثمنه!».

- «ولماذا لم تفعل؟».

- «لا! أنا تايه عنه؟ إنه سيبيعه بالغالى!

ماشاء الله سكه واسعه ومعارفه أوسع!..

قلت له أنا أولى بيه وابدع عنى أحسن لك!..

وعينك ماتشوف إلا النور .. كل يوم والتانى ناس تنط علىّ جوه

دارى وتفتش!.. ناس تطاردنى كل ما أسافر! الرصاصة التى أكلت تفاحة

أدم من تحت ذقنى وطارت ، ضريها واحد منهم سوف أضربه مثلها بعون

الله!..

هذا الصندوق ثمنه يزداد غلواً كل يوم .. هو الآن يساوى عمرى

كله!..».

- «وما صلتك بعبد السميع المنقراوى قاتل زقلة أبو زرية؟».

- «شريكى!».

- «فى ماذا؟».

- «فى كل شىء!.. بيع وشراء .. نبيع أى شىء ونشتري أى شىء .

- «من الذى كان معك ليلة أن ضربت بالرصاص؟»

- «كنا ثلاثة نحب المشى دائماً مع بعضنا:

أنا ومختار الشريتلى والمنقراوى».

سأله عما حدث ليلتها بالتفصيل فحكى، لكن دماغى كان قد انفصل تحت تأثير الصدمات العنيفة المتوالية ! أفقت من دوخة ، كان رئيس المباحث مسلطاً عينيه على غازى داوود متفكراً كأنه يتأمل فى إحدى عجائب الدنيا السبع : رجل بلا حنجرة ويتكلم أسرع من أصحاب الحناجر القوية مما يشى بقوة جبارة فى القلب والرئتين معاً.

- «تعرف طبعاً أن من يشتري شيئاً مسروقاً. يعامله القانون كاللص؟»

- «أعرف طبعاً : كيف لا أعرف؟»

- «وما دمت تعرف .. فلماذا فعلت؟!»

- «وما يدرينى أنه مسروق؟! وأنا اشتريت من امرأة محترمة واسمها

على كل لسان ! يعنى تعتبر من الأعيان ! يعنى الشك فيها عدم المؤاخذه قلة أدب!».

- «ألم تسألها من أين أتت بالصندوق؟!»

- «ولماذا أسألها وأنا أعرف أصله وقصله؟!»

- «ألم تقرأ اسم الست تفيدته على..»

- «عدم المؤاخذه لا أعرف القراءة!»

- «ألم يقرأه لك أحد؟»

- «حصل ! .. لكن يا داخل بين البصلة وقشرتها ما ينويك إلا صنتها !

.. تصورت أن الأم سر بنتها ! .. ولربما تكون البنت تنازلت عنه لأمها ! أو

لعل الأم تبعيه نيابة عن بنتها ! .. وفى النهاية شغل هو أم بحلقة من غير

مؤاخذه؟!».

حملق فيه رئيس المباحث فى مزيج من الحيرة والدهشة والاستفزاز ..
لهفى على عمى أبو السعود أشجع رجال بلدتنا ؛ ها هوذا قد صار أثراً
بعد عين كما تقول نصوص المحفوظات . يا ربى إنه بيكى يالكارثة ، عمى
أبو السعود أفندى عقل معلم بلدتنا لأجيال كثيرة بيكى هكذا كطفل يتيم
مقهور لا حول له ولا طول ؟ .. فلتخرب الدنيا ولا أراه فى هذا المشهد
المرزول . لك الله يا خالتي تفيدة ، لم يعد لك ثمة من وجود فى الثياب ،
مجرد شبح أو خيال لفتلة خيط بيضاء طالعة من طوق الفستان تتمرجح فى
الهواء بين ثقبين أسودين كعيني البومة تفح ظلمة وحكمة فى آن معاً لعلها
حكمة السديم مضافاً إليها خبرة الأديم الذى نبت فيه أبونا آدم عليه
السلام.. هكذا يؤوب قتال البشرية على طول الزمان إلى عدم حى ، عدم
يفكر مع ذلك ، يشخص نفسه بنفسه فى نفسه عن عمد وبقوة جبارة لعلها
صحوة الشعور بفداحة المآب ، فداحة أن نعيش حياة يؤمها الشر وتقودها
الخسة والوضاعة والأناية وأمراض التسلط والتملك .. كل هذا التشخيص
رأيته فى عيني خالتي تفيدة ، فكرت من فرط الروع أن أطرشق وأتناثر
شظايا ..

أصابنى الرهك ، غفلت عن متابعة شهادة مختار الشريتلى وإن كنت
أذكر أنى انتبهت لبعض جمل وكلمات أشعرتنى بأننى قد سمعت هذه
الشهادة من قبل..

لن أنسى ما حييت رقة هذا الضابط رئيس مباحث كفر الشيخ آنذاك
وأئل جليل الربيعى ؛ كان مثقفاً ومؤدباً ورجل شرطة واسع الأفق فى تطبيق
مفاهيمه ، وكان حليماً يضبط نفسه عند الغضب. يوماً أدرك ما نحن فيه
فقدر موقفنا وعمل على إزالة الكابوس عنا قبل انصرافنا ؛ أعطى لخالتي

تفيدة أقرصاً لعلها أسيرو ، وأمر لها بليمون ، ولنا بشاي ، قال وهو يعزم على عمى بسيجارة:

- «لن يهدأ لى بال إلا بعد أن أعرف كيف انتقل الصندوق من دولاب الست تفيدة إلى دولاب أمها ست عمرة ؟ هل سرقة أحد لحسابها ؟ حرضته مثلاً ورسمت له الخطة ؟ غررت بواحد قليل الوعى من المتصلين بكم؟ سرقته هى بنفسها ؟ .. كل هذا إن شاء الله سيئين قريباً جداً!».

إعتدل عمى أبو السعود وقد ردت الدماء قليلاً إلى وجهه ، كان الدخان يخرج من منخريه كالقطار السريع ، كأن سحب الدخان المتدفقة أفكار عرقانة تالفة يزيحها عمى عن نافوخه ليمسك بالجوهر الثمين ، قال ببساطة وثقة تنضحان أسفاً عميقاً لكنه أسف زكى الرائحة بما فيه من العرق الإنسانى الصرف:

- «أسمح لى سيادتك ! .. أنا الآن فحسب ! فى هذه اللحظة ! عرفت بالضبط من هى التى سرقت الصندوق لحساب ست عمرة ويتحريض منها.. وتديير!».

هتف رئيس المباحث بلهفة ، كذلك دبت الحياة فى عيني خالتي تفيدة ..

- «من هى !؟»

- «الولية الملاية .. بدر اليمن!».

نطت الروح فى حلق خالتي تفيدة كأنها كانت محبوسة فى حنجرتها منذ مدة فتوزعت كهربياًؤها على جميع أنحاء جسدها ، ففى الحال دبت فيه الحركة واستضاء بل صارت قادرة على أن تشهق وتصرخ وتتكلم بوضوح وانفعال حاد:

- «بنت الأبالسة ! طول عمرى وقلبى يشاور لى عليها ! .. نعم هى .. أنا

متأكدة!».

نقر رئيس المباحث بسن القلم على زجاج المكتب :

«عندك دليل محدد يا أبو السعود أفتدى؟»

«ما عندي .. ولكن متأكد .. وأراهن!»

«بسيطة ! نقيض عليها!»

نفضت خالتي تفيدة ذراعها كأنها تستغيث :

«فى عرضك ! ما فى داعى !»

«ما فى داعى يعنى إيه؟!»

«أنا متنازلة عن القضية ! أنا من وقت قريب عرفت أن ذهبى عندها !

شفقه بعينى على صدر خطيبة ابنها ! .. إنما .. ماذا سنأخذ من القضية

سوى مزيد من البهدلة وقلة القيمة؟ .. ذهبى سيعود؟ لا .. صحتى سترد؟

ياخى دهنه .. سارى الفرح ثانية؟ فات الأوان ! .. إعمل معروف يا سعادة

البيه أقفل لنا هذه القضية بأى شكل - إلهى يسترك ! أبوس يدك؟ .. حتى

الصندوق لا أريده! يغور فى ستين داهية ! ماذا سافعل به؟ أبيع به؟ يادى

الفضيحة ! أتفاخر به؟ على من؟ ووسط من؟ .. الزمن تغير يا سعادة اليه

ومن كان فوقاً أصبح تحتاً ! وما كان مصدر فخر أصبح مسخرة ونكداً !

أحطه فى دولاى الفضيات يعطى منظراً؟ جت الحزينة تفرح ما التقت لها

مطرح!»

قال رئيس المباحث متائراً :

«هدئى نفسك يا أمى ! .. على كل حال أنا فى غاية الأسف ! أزهقتكم

كثيراً .. تفضلوا أنتم وما يفعله الله سوف يكون!»

نهض عمى واقفاً :

«عاجزين عن الشكر!»

صافحنا ، ودعنا إلى الباب متمنياً لنا السلامة.

(٣٠) التحرر من التاريخ

فلتبق القضية إذن معروضة على المحكمة ما شاء الله لها أن تبقى فنفس المحاكم طويل والعدل غير مطبق على القضاة أنفسهم فكيف نطالبهم بسرعة النفاذ كما يقول عمى أبو السعود ؟ ..

قد يوفق محامينا الأستاذ حامد عبد العزيز وقد لا يوفق في تقفيل القضية وفصلها عن قضية مقتل زوج خالتي توحيدة زقلة أبو زرية .. سيان الأمر على كل حال ، على رأى عمى زكريا سيما وأنا لن نقبل مقاضات ست عمرة .. لقد هدأت خواطر أبى وتفرغ لجنى القطن فى أمان الله بعد إذ عرف الحقيقة وتكدت فطنته وفراسته فى الربط الذكى بين خاله غازى داوود وعبد السميع المنقراوى ..

كان الزمن يمشى بنا رأسياً بالعمق لدرجة أن تغيرات وتحولات مذهلة قد حدثت فى حياة العقالوة فى بحر أيام قليلة جداً . مكث عمى جبريل أياماً كثيرة شبه ذاهل شاردا اللب لا يقرأ ، لا يبحث عن آخر نكتة بعد أن قال الزمان نكته الكبرى فى حياتنا ، كان ثمة شعور بالعار يكاد يعصف بكبريائه ويوقف روحه المعنوية عن مواصلة الغزل فى النسوان من زبوناتة . الوحيد الذى بدا وكأنه ضاربها صرمة قديمة هو عمى موسى ، بقى كما هو ذلك الولد الظنى العايق يسحب بهائمه عصر كل يوم ليسقيها ويحممها فى

ترعة خلاف فيما يرقع بالموال ، هنا فحسب حدث التغيير فيه ، مواويله أخذت منحنى مختلفاً ، فبعد أن كانت حمراء بلهيب العشق ومرارة الحرمان من ريق الحبيب أصبحت تندد بالخسيس وبالندل الذى إن قدر لا يعفو ، وبالنديا المغرورة التى لا يقع فى أحابيل غواياتها سوى الأخصاء ناقصى المروة .. إلخ..

جدتى معزوزة أضافت إلى فجرها ورداً جديداً تبتهل فيه إلى الله بأن يسامحها على غلطتها فى حق خالتى تقييدة وأخيها فرج تراتيرو ، لدرجة أن خالتى تقييدة من فرط تأثرها بحالة الندم التى تعانيتها حماتها ، استردت صحتها بإرادتها القوية لا لشيء إلا لكى تكون صادقة إذا ما قالت لحماتها:

«مانى حلوة أهه وزى الفل مزعله نفسك ليه بس ؟»

ذلك أن شعور جدتى معزوزة بالذنب كان نابعاً من شدة إحساسها بأنها اشتكرت دون أن تدرى مع ست عمرة فى إذلال خالتى تقييدة وقهرها حتى تدهورت صحتها ..

خلال جمع القطن جاءت عماتى وأقمن معنا فى الدار بعيالهن ، ويمر أزواجهن آخر الليل لأخذهن . هن فى العادة يأتين بذريعة المساعدة فى شغل الدار وإطعام الأتفار الجميعة وخدمة الرجال ، فيما هن فى الواقع - ربما بتحريض من أزواجهن جنن لمراقبة محصول القطن لتقدير حجم أنصبتهن منه على أى نحو يكون . ما يكيدنى أنهن يدعين بإصرار غبى أنهن غير محتاجات لأى شئ إذ أن أزواجهن ربنا يعطيهم العاقية وطول العمر يكفينهن من كل شئ ..

نسى فرج تراتيرو طرد جدتى له ، استأنف تطفله الغريزى على موائدنا وقتما يشاء ..

لعل أهم ما حدث من تغيير فى هذه الأيام القليلة التى لم تكمل شهراً ، هو عودة النضارة إلى وجه خالتى تقييدة . عاد إليها استقرارها النفسى؛

قالت إنها تخلصت من جبل كان مربوطاً فى كتفيها . وذات ليلة من أيام جمع القطن ، وفى ظل الفرحة بجودة المحصول حيث امتلأ مخزننا بالزكائب المعبأة بالقطن ، وفى لحظة روقان على مصطبة الجنيينة والعائلة كلها متناثرة حوليها ، طاب لعمى أبو السعود أن يفتح سيرة الصندوق المطعم بالأحجار الكريمة والمبطن بالذهب الخالص محفوراً فيه اسم تقيدة سليم الفرغانى .. فبدا كأن عمى يهدف إلى إغراء خالتي تقيدة بإعادة النظر فى موقفها الرافض للصندوق لعلها توافق على استرداده..

بكل هدوء وشوحت خالتي تقيدة بيدها فى الهواء تزيح هذه السيرة من أمامها ؛ ثم ترجمت حركتها هذه :

- «أنا أرحته من دماغى فتحسنت صحتى !»..

- «لكنه قيمة أيضاً ولا يصح إزاحتها بهذه البساطة !»..

اتسعت حدقتها وامتلأتا باللهب :

- «قيمة؟! ذهب وأحجار كريمة؟! طظ !»

- «إنه تاريخ يا امرأة ! وثيقة تاريخية مهمة جداً ! تخيلى معنى أن يكون

اسمك محفوراً بجوار اسم الأميرة على بساط من الذهب فى تحفة فنية ذات قيمة مادية وفنية عالية!»..

باسم الله ما شاء الله خالتي تقيدة حلت فيها شخصية أستاذ فليسوف يكلم عمى أبو السعود كأنه طفل غرير :

- «يانور عينى ! الله الغنى عن هذا التاريخ !

ليس يلزمنى ! هل أهدت شريكى فى نفسيتى !؟

أنت شريكى فى الحب والحياة فحسب ! لكن هذا الموضوع يخصنى وحدى ! وأنا قلت فيه كلمتى لربنا ! ولن أسمع أى كلام يغربنى بأن أكون صغيرة أمام ربنا وألحس كلمتى !»..

- «أقول مجرد نصيحة أخيرة قبل أن يفوت الأوان وتتعرض للندم !
ونصيحتي أن الإنسان لا يجب أن يفرط في تاريخه بسهولة!».

- «اتضح أننا لسنا أهلاً لصيانة أى تاريخ ! تظننى جاهلة
يا أبو السعود أفندى ؟ يا أخى يكفى أنى عاشرتك هذا العمر الطويل ! ..
ملعون أبو التاريخ الذى أحميه ولا يحمينى ! الذى يفرض على أن أبقى مدى
الحياة مجرد حارسة له ! .. هذا تاريخ يقلق منامى ! وكلما أبص فيه
الأقيني صغيرة ! .. والأقيه مشمئزاً من دولابى الذى وضعته فيه ! ؟ من
اليد التى قد تخريشه! .. والأقيني مذعورة من العين التى ستحسدنا عليه !
والنفوس الخسيصة التى تسعى لسرقته ! .. تريدنا يا أبو السعود أفندى
أن نكرر ما حصل لنا من أول وجديد؟ .. طالما الصندوق عندنا فالشيطان
فى دارنا ! .. كل عيالنا سوف يقتتلون بشأته ! .. لا لأ يا أبو السعود
أفندى !».

عندئذ بدأ وجه عمى أبو السعود يخلع رداء الدور التمثيلى الذى أتقنه
جيدا طوال المشهد السابق : لقد تقمص شخصية الضد أمام خالتي تفيدة
ممعناً فى تبني منطقها والدفاع عنه ، لا لينتصر له فى النهاية ، بل ليؤكد
ويكسر المعنى المضاد الذى تمثله خالتي تفيدة . إنه فى حقيقة أمره ضد
عودة هذا الصندوق إلى دارنا ، بل يزدريه أيما ازدياء ، بل إنه هو الذى
يردد على أسمعنا دائماً أبداً قول المتنبي ، ليس الفتى من يقول كان أبى إن
الفتى من يقول ها أنذا .. ولكن لأن عمى أبو السعود لا يريد أن يفرض علينا
ولا على خالتي تفيدة رأيه هو باستبداد سلطوى بحكم كونه عميد العقالوة ،
لهذا فقد استدرج خالتي تفيدة أمامنا إلى هذا الموضوع ليمهد لنا كيفية
الوصول إلى بناء رأى خاص بنا كل واحد على حدة تجاه أى موضوع بوجه

عام وتجاه موضوع الصندوق بوجه خاص ؛ أى أنه استدرج خالتي تفيدة لكى تعبير - بهذه الحرارة - عن موقف هو مؤيد له مؤمن به ، وأن تقول ما كان يعجز عن قوله بهذه الحرارة والقناعة والحسم .. مما جعل عمى أبو السعود من فرط جذله اعترته حالة صبيانية لطيفة ، فرفع ذراعه هاتفاً كقائدى المظاهرات:

- «يسقط التاريخ المنتحل!»-

كنا أكثر منه صبيانية ، رددنا الهتاف وراءه فى جدية لها زئير ، فساق فيها وكرر:

- «يسقط التاريخ الموروث!»-

رددنا ؛ قال إنه من غد سيكتب عريضة يرفعها إلى وزير الداخلية يفيد به بأن السيدة تفيدة سليم الفرغانى الشهير بتراتيرو حرم أبو السعود أفندى عقل المفتش بوزارة التربية والتعليم قد تنازلت عن الصندوق الأثرى الذى كان مسروقاً منها وعثرت عليه الشرطة فى القضية رقم كذا بتاريخ كذا والجارى نظرها الآن فى المحكمة الفلانية ، برجاء متابعتة واستلامه وضمه إلى متحف المسروقات التى تضبطها الشرطة أو إلى المتحف الذى يضم جواهر الأسيرة العلوية .. هذا ما لزم عزفناكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

فى الصباح وقعت خالتي تفيدة على العريضة وهى فى منتهى النشوة . طواها عمى أبو السعود ودمسها فى مظروف حكومى محترم ، وأرسلها بالبريد المسجل بعلم الوصول.

(٣١) اهزوجة الرضا

اليوم بيع محصول القطن ، تم ذلك فى حضور الجميع من كافة من ينتهى اسمه بلقب : عقل . عرفوا جميعاً - ويكل دقة - كم جنيهاً وكم قرشاً وكم مليماً دخل دارنا اليوم على التراييزة أمام أعين الجميع .

كالعادة تم تكفين القلوس فى منديل محلاوى معقود الأطراف استقر فى قعر دولاى الحائط فى حجرة جدتى معزوزة فى انتظار تقطيع أوصاله وتفتيته على الورق فى كشوف حسابية سنكلف عمى أبوالسعود عناء يوازى إن لم يفق ما بذل فى زراعة القطن من عناء .. مطلوب منه الآن تدبير نفقات لعديد من الضرورات الملحة العاجلة ، ثم الأمنيات المؤجلة، لعل أهم ما هو مطلوب منه الآن وقبل كل شىء هو تدبير نفقات كسبوات متعددة الأشكال والأنواع والألوان والأحجام لما يقرب من خمسة وأربعين فرداً ، من جلابيب إلى قفاطين وجيب إلى بدل وقمصان أفرنجية وأربطة عنق إلى فساتين وأحذية وبلغ وشباشب ومراكيب وجوارب وفانلات وألبسة وصديريات وتلافيع ولاسبات ، ففى الدار طلبة فى الجامعة وفى التوجيهية والابتدائية ، إضافة إلى عرائس تقرر دخولهن فى موسم القطن ، وصبايا على وش زواج يلزمهن تجهيزات مبكرة .

كان الله فى عون الحاسيين المدبرين ، فبرغم احترام الجميع لكشوف الحساب فإن كل واحد فيهم ليس مستعداً للتنازل عن حلمه الوردى الذى رسمه على ذمة محصول القطن ، وسوف يسخط ويحتج ويتزربن إذا شعر بأن الواقع سينتقص من حلمه فما بالك لو انسخط حلمه نفسه وآب إلى شىء أقل من أن يفرح به ..؟

أنا وبعض أبناء عمومتى الجامعيين نظمنا هذا العام فى تفصيل بديل جديدة تليق بالجامعيين وبالمثقفين بالتعليم الثانوى فى المدينة.

هكذا عقدنا النية والاتفاق الجماعى وجلسنا معاً فى حالة تحفز واستنفار لإعلان الإحتجاج على البديل السوقى الجاهزة التى لاتجىء مضبوطة أبداً ناهيك عن فسولة نسيجها .

لكنها نظرة خاطفة ، وقعت من عيني أثناء تحليقى فى الحلم ببذلة ذات مواصفات معينة .

نظرتى وقعت على عمى أبوالسعود ، الذى اكتسى وجهه بملاءة شفاقة من الحرج والكسوف كأنهم ضبطوه فى موقف مشين ، ترتعش الابتسامة المكسوفة على شفثيه كالمذنب يتلجج بحثاً عن ذريعة .

ظننت لأول وهلة أن أحداً قد أهانه على نحو ما ، استعدت ما كان يقوله منذ هنيهة حينما عصر جبهته بين السبابة والإبهام ثم قال بنبرة أليمة :
«تعرفوا يا أولاد متى فصلت آخر بذلة فى حياتى ؟.. كانت من حوالى عشرين سنة !» .

قلم يأبه به أحد ، كأنهم لم يسمعه ، فانفردت بملاءة الكسوف المريدة وغطت وجهه التعيس المقهور النبيل فى آن .

كنت القريب منه طول عمرى وأعرف أن آخر بدلة فصلها كانت فى الواقع منذ ربع قرن مضى من الزمان ، ولست مدى زهقه من البدلتين الكالحتين العجوزتين .

فى ظنى أنه لو دخل الآن فى الموضوع مباشرة وقال لهم بكل وضوح إنه قرر تفصيل بدلة جديدة لنفسه هذا العام بمناسبة ترقيته إلى مفتش بوزارة التربية والتعليم أو حتى بغير مناسبة ، لوجد من الجميع ترحيباً وتشجيعاً بل وتحريضاً .. إنما .. لا .. فالغريب أنه متأكد من هذا ، لكنه متأكد فى نفس الوقت أن تحريضه على تفصيل بدلة جديدة لنفسه سيكلف العائلة ما لا تطيق ، إنه لو اتق أن التشجيع والتحريض ليس نابغاً من قناعتهم بأحقية فى تفصيل بدلة جديدة بعد طول حرمان من هذا الحق ، إنما هو تشجيع على خلق ذريعة ، فكل واحد سيلوح بأحقية فى تفصيل جلاب من الصوف ، وسيقدم المبررات المقنعة .

عمى أبوالسعود كان رومانسياً أكثر من اللازم فيما يبدو ، تصور أنه بمجرد تذكيرهم بهذه الحقيقة سيشعرون بالخجل ويطلبون فى كشف الحساب تخصيص بدلة جديدة له خصماً من الميزانية قبل توزيعها ؛ مثلها مثل أنصبة عماتى وأجور الأنفار .. أى لا يحق لأحد المطالبة بشىء لنفسه فى مقابلها ..

خيبة الأمل فى عين عمى كانت ومضة خاطفة إلا أنها كانت كشعلة من لهب لسعت الوجوه من بعيد لبعيد ثم انداحت عبر أوراق الشجر إلى الأفق الأبعد ..

كشوف السحاب رجعت عشرات المرات .. أعيد الحساب من أول وجديد مرات عديدة نظراً لاختلاف طرائق الحساب حيث يريد كل منهم حساب

حسابه بطريقته الخاصة فى الجمع والطرح والقسمة والضرب ولممة الكسور العشرية فى أحاد صحيحة ، تتصادم النتائج بفارق ملليم ناقصة أو قروش زائدة ، ليدب الشك من جديد حتى فى قواعد علم الحساب نفسها .. تعلق الأصوات حتى لكان يلدأ بأكملها تتعارك مع أنها مجرد مناقشة عائلية ترتبط فيها حرارة العاطفة بعلو الصوت إلى حد الضجيج الهائل إلا أنه على حدته وقوته الشكوية سرعان ماينكتم فى الحال بمجرد حركة غضب مكتوم يفعلها عمى أبوالسعود ، كأن يرمى بالورق والقلم واضعاً يده على خده تعبيراً عن اليأس والاشمئزاز ، يبقى هكذا لبرهة وجيزة ، قد يشعل سيجارة ، أو يمسح عرقه المتصبب ، أو يجأ فى اتجاه الدهاليز فى النسوان طالباً كوية شاي ..

فى النهاية تم توزيع المحصول على داير مليم ، تم تسكين كل مبلغ فى خانة الغرض المطلوب له ولو على الحركرك يعنى دونما زيادة أو نقصان متعشمين فى ستر الله بعدم زيادة الأسعار كثيراً عن السنة الماضية ، مع تعديلات مقبولة من جانبنا فى مطالبنا ، فبدلاً من البدل التفصيل الثمينة رضينا بالبدل الجاهزة ذات المستوى الشعبى المتواضع .. اختفى ذكر أية بدلة لعمى أبوالسعود مكتفياً بالكسوة المتواضعة من جلايب وفانلات وألبسه .. سلمت جدتى معزوزة بأن نصيبها فى حج بيت الله لم يكتب بعد فى كشوف تنفيذ المشيئة الإلهية بله أن يكتب فى كشوف عمى .. تنازل أبى عبدالعال عن قماشة العباءة الأمبريال التى يحلم بها منذ ثلاثين عاماً ، وعمى زكريا عن الجبة الجوخ ، وعمى جبريل عن بغلة عفية كان يترصدها عند صاحبها منذ مولدها ويحلم بامتلاكها لتسهيل سفره إلى الأسواق ، كذلك تنازل عمى موسى عن ساعة الجيب التى وعد بها منذ محصول العام الماضى ..

كان الجميع مع ذلك راضين كل الرضا ، يقبلون أياديهم ظهراً لبطن
شاكرين الله فى أهزوجة جماعية مرعوشة الأصوات والأبدان تقودها جدتى
معزوزة فى إنشاد حقيقى ، حيث قد اطمأنوا إلى أن كسوة العيال فى العيد
قد أتت ، وأن مصاريف المدارس قد دبرت ، ونفقات سفر وكتب وكراريس قد
وزعت بالعدل والقسطاس ، وليس ثمة من دين فى رقبة العائلة لأى أحد ،
وفى حجرة الكرار قمح ويقول وأدام ، وفى البرج حمام ، وفى صحن الدار
بط وأوز ودجاج وأرانب ومعيذ وخرفان ، وفى الزريبة ماشية وألبان ، وفى
المخزن تبن وعليق ، وفوق أسطح الدار أكداس مكدسة من وقود الجلة
الناشفة وقش الأرز وحطب القطن ، وفرن الدار مشتعل من صبيحة ربنا
لخيز لقمة طرية من فطير الذرة بالقشدة السائحة النائحة لشق الريق فى
باكورة الصباح .

تمت

المعادى الجديدة - مساء السبت ٢٢ - ٧ - ٢٠٠٦

حاليا بالأسواق

٥ أكتوبر ٢٠٠٦

المجلة



الشيخ الفقيه

ر. عبد القادر شهاب

رئيس التحرير

مجدي الدقاق

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهاب

أحدث إصدارات روايات الهلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٨٢	دق الطبول	محمد البساطي	أكتوبر ٢٠٠٥	٥,٠٠
٦٨٣	العابرون	محمد إبراهيم طه	توفمبر ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٨٤	دموع الجيوكنده	نادية شكرى	ديسمبر ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٨٥	كوكب القردة	بيير بول	يناير ٢٠٠٦	٦,٠٠
٦٨٦	أزمة من غبار	ناصر عراق	فبراير ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٨٧	ظل الأفعى	يوسف زيدان	مارس ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٨٨	أبناء الديمقراطية	ياسر شعبان	أبريل ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٨٩	مجموعة شهادات وثائق لخدمة تاريخ زماننا	صلاح عيسى	مايو ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩٠	الحب في زمن العولمة	صباحي فحماوى	يونيه ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩١	عطر البرتقال الأخضر	شريف حتاتة	يوليو ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٩٢	أنا الذى رأى	محمود سعيد	أغسطس ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩٣	الجميلة حتماً توافقى	رأفت الميهى	سبتمبر ٢٠٠٦	٥,٠٠

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/١٨٠١١

I.S.B.N

977-07-1218-3

عن المؤلف



- منامات عم أحمد السماك
- حائز على : -
- جائزة الدولة
- التشجيعية، عام ١٩٨١ .
- وسام العلوم والفنون
- من الطبقة الأولى ، عام
- ١٩٨١ .
- جائزة التميز من
- اتحاد الكتاب ، عام ٢٠٠٣ .
- جائزة نجيب محفوظ
- عن رواية «وعمالة عطية»،
- عام ٢٠٠٣ .
- جائزة الدولة
- التقديرية عام ٢٠٠٥ .
- مواليد شياس عمير،
- مركز قلين ، محافظة كفر
- الشيخ ، فى ٣١ يناير
- ١٩٣٨ .
- صدر له سبعون
- كتاباً.
- صدرت له الروايات
- التالية عن دار الهلال :
- صاحب السعادة اللص
- المنحنى الخطر
- فرعان من الصبار
- أولنا ولد
- وثاتينا الكومى
- وثالثنا الورق
- صالح هيصة
- صهاريج اللؤلؤ

عن الرواية



في «نفاذ الجناين»، يعود خيري شلبي مجدداً إلى عالم القرية المصرية الأثير ، قرية الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين ، حيث المجتمع يقوم على نظام العائلة ، فلا وجود للوطن ولا معنى للوطنية إلا في ظل عائلة متماسكة ، وبنیان العائلة لا يتماسك إلا بوجود مادة بديلة عن الأسمت المسلح في المعمار السكاني ، تلك هي منظومة القيم والمبادئ والأعراف والتقاليد التي تربط الأفراد ، وتمد بينهم جسور المودة والرحمة والإنسانية .

في هذه الرواية يستخدم خيري شلبي سرداً روائياً نابعاً من طبيعة البيئة الريفية ، إنه سرد فلاحى يعكس ثراء الطبيعة وصراحتها وبساطتها وشاعريتها ، وتتجلى فيه روح الحرث والبذار والإنماء والإرواء والحصاد، وروح القرية المصرية بكل ما فيها من أنس ومودة وخصوية ، وناس لهم نكهة نفاذة مثل نكهة نفاذ الجناين .

أشهر الحوادث والقضايا



طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع: ١٠٠٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع: ١٦٠، ١٠ ش كامل صدقي الضجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة: ٦٨٢٢٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧. فاكس: ٢٥٩٦٦٥٠ - ٢٥٨٧٠٠٢ / ٦٨٢٧٠٢ ج.م.ع ٤ ش بدوى مجرم بك - الإسكندرية .

أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٦ • بضع الجنائز • خبزي شمس • العدد ٦٩٤ • الفن • أجناسيات